

ليالى ودموع أطيف



يوسف السباعي

ليلى ودموع الطيبات

يوسف السباعي

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صديقي - الجيزة

لَيْلَةٌ بِلَا عَمَى

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة وأنا فى طريقى الى البيت ،
و كنت مرهقا مكدودا ، ضيق الصدر بمتاعب اليوم ، ولم أجد
هناك مايدفعنى الى التعجيل بالعودة الى الدار ، وداخلى احساس بالحاجة
الى الانطلاق بالعربة فى الطرق الخالية بأطراف هليوبوليس .

ولم أعرج على البيت وتركت العربة تنطلق بى فى شارع
السباق ، وأحسست من فراغ الطريق وسكونه وهبة الهواء الرطب التى
لفحت وجهى بشىء من الانتعاش ، فتمهلث وأخذت أدندن بصوت
خافت .

ولم يبدو على طول الطريق أثر لعابر ، وقامت الدور على يمينى
ساكنة مظلمة الا من بضعة أضواء تناثرت من نوافذها ، وعلى اليسار
امتد سور السباق المنخفض وقد ترامى وراءه الفراغ الفسيح يلفه وشاح
من الوحشة والظلمة والصمت المطبق .

وعلى أضواء الطريق الباهتة .. ووسط سكونه المخيم بدا لى شبح
امرأة تستحث الخطأ . وترامى الى أذنى وقع خطواتها جادة متعجلة ..
كأنها خطوات جندى فى طوافه .

وبغريزة الرجل .. ازدادت تمهلا .. وأخذت أرقب شبحها .
المقبل .. الذى لا أكاد أميز منه سوى حدوده الخارجية وطريقة سيره .

وأنا أميز المرأة بطريقة سيرها وهيكلها .. وأكاد أحس بمدى
جمالها أو قبحها من هذين المنظرين . ولا أظنهما خدعاني الا فى القليل
النادر .. ولقد أحسست من خطوات المرأة المقبلة وتخطيط شكلها فى
الضوء الباهت .. أنها شىء لطيف يستحق الرؤية .. أو أكثر من الرؤية
ان أمكن .

وازداد تمهلى وهى تزداد اقترابا .. وأيقظت الوحدة والظلمة
ونسيمات المرأة المقبلة مشاعرى وأرهفت حواسى ، فانحرفت بالعربة
الى الجانب الأقرب إليها - وهو جانب السباق - حتى أتمكن من رؤية
وجهها .

وعندما دنت من العربة .. أحسست أن ضوء الطريق الخافت لن
يهيئ لى فحصها جيدا .. وأضأت ضوء العربة الكبير .. فسطع عليها
فجأة وبدا عليها الضيق والانزعاج وبدأت لى فى خطواتها العجلى
وسيرها المندفع كطائرة أمسك بها ضوء كشاف وهى تحاول الفرار
منه .

وخرجت عن نطاق الضوء .. واستمرت فى سيرها العجل ..
وخطواتها الجادة ، غير متلفتة حولها .. أو ملقية الّى أدنى اهتمام .

ولم أحاول التوقف .. فقد كانت الفترة التي وضعت خلالها فى نطاق الضوء . كافية لكشفها .. وكافية بالتالى لأن أواصل السير بعد أن أحسست أنه ليس بها مايجذبني إليها .. أو يغريني بها .. أو يهيبى لى فيها أى نوع من أنواع المغامرة . وبعد أن أيقنت أن المشية والهيئة قد خدعاني - الى حد ما - هذه المرة .

كان وجهها نحيلًا .. شاحبًا .. وقد بدت حول عينيها من تجاعيد الإرهاق والذبول .. ما دفع فى نفسى الظن بأن عقدها الرابع يوشك أن ينفلت .

ودفعنى الكسل وهزال الصيد الى معاودة الانطلاق بعربتى مفضلا الليل ونسماته الرطبة والاستمتاع بالسرحان والدندنة .

وواصلت السير فى الطريق مخلفا ميدان السباق ، والعمارات الجديدة المشرفة على ساحته ، عابرا خط المترو الجديد حتى بلغت نهايته وأدركت العربة حول المحطة الأخيرة عائدا فى طريقى من حيث أتيت .

ومرة أخرى .. بدا لى الشبح فى خطواته العجلى ومشيته الجادة الصارمة .. وسط الفراغ العريض والسكون الشامل .

وأدهشنى استمرار المرأة فى السير بلا هدف واضح . فقد كنت أتوقع أن تكون قد اختفت فى احدى الدور التى لاشك تقصد إليها .

ولم تكن فى سيرها مستعرضة ، ولاكان الطريق الخالى بميدان صيد .. حتى أظنها امرأة ليل تبغى صيدا .. ولاكان الوقت الذى تسير فيه أو المظهر الذى تسير به يدفعان الى الظن بأنها تمارس نوعا من الرياضة .

وعادت غريزة الرجل وحب الاستطلاع والرغبة في المغامرة توقظ حسي وترهف أعصابي .. وكنت قد أشرفت عليها .. وأوشكت أن أجاوزها .. دون أن أستقر على أمر أو اتجاه .

وبلا خطة موضوعة .. أو تفكير مرتب .. أو هدف واضح .. أوقفت العربة .. وفتحت الباب .. وفي لهجة جادة مقتضبة قلت لها .
- تفضلي .

ولم أشك في أنني قد فاجأت المرأة بدعوتي .. بل بمجرد وجودي .. وقفت تنظر إلي على ضوء العربة الداخلى الذى أضاءه فتح الباب .. وقد بدت مشدوهة مأخوذة .. ومرت لحظة صمت .. حاولت خلالها أن أضع خطتي للحظات القادمة وردودى للاحتتمالات المنتظرة .. ووسائلى لمقاومة التمتع المحتمل .

ولكن المرأة فاجأتني مفاجأة أشد ، وبلا كلمة تمنع .. أو سؤال استفسار .. وفي ثانية واحدة .. كانت تستقر على المقعد بجوارى دون أن يختلج في وجهها عصب أو تفتح شفة .

وسمعت صفقة الباب .. وساد السكون .. وعم الصمت الا من صوت أنفاسها تتلاحق لاهثة كأنها جواد فى سباق .

وسرت بالعربة .. ومضت برهة .. كان .كلانا يشرد ببحره من زجاج النافذة الى الظلمات المترامية .. وكان على أن أفيتق من المفاجأة وأن أقول شيئا .. ألم أكن الصائد صاحب الدعوة ؟

وكانت أقرب الألفاظ الى شفتى .. كلمات التحية .. فقلتها .. أكتسب بها الوقت .. وأتمالك أعصابى .. وأستعيد طبيعتى المغازلة المرحه ، فقلت .

وأخيرا قالت :

- مساء الخير .

ولم تكن كلمات الغزل قد لانت على شفתי بعد . اذ لم أجد
بها ما يدفعني الى الغزل المخلص الطبيعي .. ووجدت رغبتى فى
الاستطلاع تسبق قدرتى على الغزل المجامل المتكلف فقلت متسائلا :

- الى أين ؟

وبساطة أجابت .

- أحضر العشاء .

(عشاء !!) وكادت تنفلت منى صبيحة دهشة .. أسرع فى
كبتها .. ولم يكن فى مظهرها المحترم ولا فى الساعة التى تسير فيها ..
مايرر خروج سيدة مثلها لإحضار عشاء ، وسألتها فى لهجة غير
مصدقة :

- الآن ؟ تحضرين العشاء ؟

- أجل .. لقد عدت فلم أجد فى البيت طعاما .

- وأين البيت ؟

- فى احدى العمارات المطلة على السباق .

- ولكن أألم تكونى تعرفين أنه لا يوجد فى البيت طعام ؟

- انى أنسى هذه الأشياء .. لأذكر شيئا عن البيت الا عند

عودتى اليه .

مخلوقة عجيبة .. ورد أعجب !

وعدت أتساءل .. دون أن أُنبه الى أن المرأة الغريبة قد حوّلتني
من صائد ليل مغازل .. الى وكيل نيابة محقق .

قلت لها :

- ولماذا لم ترسلي أحدا من البيت يحضر لك عشاء ؟

- لأنه لا يوجد معي أحد .

وطرقتي ردها طريقة مثيرة .. لقد بات أمرها سهلا ، من حيث
المكان ، فهي تقطن وحيدة .. ويمكنني أن أعود معها الى بيتها .

وكان عليّ أن أتولى احضار العشاء .. وبحثت في ذهني عن محل
ابتاع منه .. دون أن أسلك طريقا مطروقا يعرضني واياها للأبصار ..
وقبل أن أستقر على رأى سمعتها تقول .

- من فضلك اتجه يسارا .

الجانبى الذى يلف يسارا حتى ينتهى الى
، بالمارة والحوانيت .

وأجبت مترددا :

- لماذا ؟

- لأحضر العشاء .

- سأحضره لك أنا من محل أعرفه .

- لا داعي لأن تتعب نفسك .. يوجد بقال على الناصية لى عنده
نساب .

وحاولت أن أجادل ولكنها أصرت .. فلم أجد بداً من الذهاب الى حيث تريد .

ووقفت بها أمام البقال وهبطت من العربة لتعود بعد لحظات وقد حملت معها بضع لفائف صغيرة .

ومرة ثانية استقرت بجوارى وقلت متسائلاً :

- أتعودين الى البيت ؟

وترددت لحظة قبل أن تجيب متسائلة :

- ألا تحب أن تلف بالعربة برهة ؟

- أجل .. أجل .. كما تشائين .

وأدركت العربة مرة أخرى الى شارع السباق وانطلقت أجول بها متبعا الطرق الخالية في أطراف الضاحية .

وبدا عليها الشroud وهي تستقر بجوارى في هدوء وصمت ولم تعد أنفاسها تتلاحق لاهثة ، بل بدت عليها السكينة ، والطمأنينة والاستقرار .

وكان على أن أوالى بقية تحقيقاتى .. لأستفسر منها عما غمض على .

قلت أستدرجها من شroudها وأقطع عليها صمتها :

- أتعيشين وحدك .

- أجل .

- أأست متزوجة ؟

- لا .

- أألم تتزوجى ؟

- تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. وقد أتزوج وأطلق .. وأن الزواج فى حياتى من الحوادث العابرة وليس من الأحداث المقيمة .

- أليس لك أهل ؟

- لى .. ولكنى أفضل أن أقطن وحدى .. انى أعمل فى الفن .. أقوم ببعض الأدوار الثانوية فى السينما والمسرح وأحيانا أعود فى الليل متأخرة .. وأحيانا سكرى .. ولا أحب أن أقلق راحة أهلى أو أسىء اليهم .. ولذلك أفضل السكن وحدى .

ولم يكن هناك شك بعد هذا .. أن المرأة صيد سهل ميسور .. زواج وطلاق .. وفن .. وسكن وحدها ، وسهر ، وسكر .. كل هذا .. ترك المسألة كما يقولون (على بلاطة) .

ولكن المشكلة لم تكن مشكلة السهولة واليسر .. بل كانت مشكلة القابلية والإثارة .

ان المرأة لم تثرنى من اللحظة الأولى .. بوجهها الشاحب المرهق ، وهزالها البادى ، ولقد ظننت أن التلاصق والحديث قد يمنحنى شيئا من الإثارة ، ولكن مشاعرى لم تثر بأكثر من الشفقة والعطف .

ومع ذلك .. ويدافع من العناد .. والإصرار على اتمام المغامرة وجدتنى أسأئلهما :

- ألا نعود الى البيت ؟

وبلهجة الاستسلام والرضوخ أجابت :

- أمرك .

ووقفت أمام باب البيت ، ووجدتها تجمع اللفائف لحملها
فقلت :

- عنك .. دعيني أحملها لك .

- لاداعى للتعب .. سأحملها أنا .

- ألدريك ما يمنع من الصعود معك ؟

وصمتت .. ومضت بها برهة وجوم وتفكير وما لبثت أن
تساءلت :

- أتصر على الصعود ؟

- اذا لم يكن لديك مانع .

- أبدا .. لا مانع لدي .. فقط .. أخشى لفظ البواب والسكان
وأكره أن يقولوا أنى أحضر رجالا فى البيت ، فانتظر حتى أتأكد أن
البواب قد نام وأن الطريق خال .. وسألّوحد لك بضوء ثقاب من وراء
النافذة الكائنة فى أعلى الدار .

- واذا لم أر الضوء ؟

- يكون من الخير أن تنصرف .

ودلفت الى البيت وجلست أرقب النافذة الصغيرة التى أشارت
لى اليها .

أى أحقق أنا ! ماذا يدفعنى الى الزج بنفسى فى مثل هذه
المغامرة ؟ أدخل بيتا لا أعرفه فى منتصف الليل .. مع امرأة لا أكاد
أعرف عنها الا ما حدثتنى به عن نفسها مما قد يكون باطلا مكذوبا ..
وقد تكون ذات زوج .. وقد يكون بيتها كمينا لاصطياد المأفوفين
السذج من أمثالى .. للاعتداء عليهم وسلبهم نقودهم !

ولماذا أفعل كل هذا ؟ من أجل امرأة لا أريدها .. ولا أشعر لها
بأية قابلية ، ولم تثر فى جارحة .. أو تهيج لى حسا .

يجب على أن أنصرف .. وكفانى هذا القدر من المغامرة . خير
لى أن أعود الى البيت لألوذ بأطراف الأمن والراحة وأجنب نفسى شر
الكوارث والفضائح .

ومع ذلك لم أتحرك فكثيرا ما ينطلق تفكيرى فى ناحية ويتبدل
تصرفى فى ناحية أخرى .. فأظل مقيدا فى موضعى لا سلطان لتفكيرى
على تصرفاتى .

وتعلق بصرى بالنافذة العالية التى بدت وراءها رقعة السماء الداكنة
بنجومها المتناثرة وقطعة ضئيلة من القمر تعدو على صفحتها نتف من
السحب تحجبها تارة وتبرزها أخرى .

وفجأة لاح لى الضوء الباهت يتحرك وراء النافذة ، وأحسست
بأعصابى تتوتر .. وبمشاعرى ترهف ، وتملكنى وهم شاعرى ممتع
مشير .

نافذة فى السماء .. وسحب متحركة ، وقمر شاحب ، ووقفه
مستترقة فى عرض الطريق المظلم الخالى .

وأخيرا ضوء باهت يتحرك المظلم الخالى .
لا .. لا .. انها مغامرة ممتعة .. أيا كانت المرأة التى سأغامر
من أجلها .

وبيلاهة المغامرين .. طرحت مخاوفى فى عرض الطريق واندفعت
اصعد السلم .

وبدأت ألث عندما وصلت الى الدور الرابع .. فتوقفت وأنا
لأجد أمامى سوى سلم ضيق يؤدى الى السطح ولم أكن واثقا بالضبط
من عدد أدوار البيت .. كل ما كنت أعرفه أنها تقطن فى الدور الأخير
وأن نافذتها مطلة على الشارع .

ووقفت برهة حائرا وأنا أجد الأبواب أمامى موصدة دون أن
أعرف بابها .. ولم يكن من المعقول أن أغامر بطرق أحدها خشية أن
أخطئ بغيتى وأفضح نفسى فى مثل هذه الساعة من الليل .

وأنقذنى من حيرتى همسة استدعاء آتية من السطح ورفعت
بصرى فوجدت وجهها يطل من أعلى السلم الصغير .

وصعدت السلم فأفضى بى الى حجرة صغيرة فوق السطح .
وأحسست بشيء من الخذلان والخيبة وأنا أرقب الحجرة
المتواضعة بمظاهر الفقر والرثاثة البادية منها ، وحاولت جهدى أن أخفى
مظاهر خيبتى وأن أسترها بمظاهر المرح المفتعل .

وسمعتها تتمتم فى استحياء وهى تقدم لى مقعدا من الخيزران :
- أنا متأسفة .. الحجرة لاتليق بك .. ولكنك أنت الذى
أصررت على الصعود .

وزاد اعتذارها الخجل من احساسى بالشفقة عليها .. وصممت
على ألا أخذلها وأن أجعل من مرحى المتكلف مرحاً أصيلاً .. فقلت
ضاحكاً :

- انها مكان شاعرى لطيف .

ورمقتنى فاحصة ، ثم أطلقت من أنفها ضحكة قصيرة ساخرة
وأجابت :

- انك أنت المجمال اللطيف .

وخيمت على وجهها سحابة معتمة كبتت دوافع المرح فى نفسى
وأوقفت كلمات التهريج التى أوشكت على الاندفاع من شفتى .

ومدت يدها الى الدولاب الوحيد الموجود فى الغرفة فأخرجت
زجاجة ويسكى قد امتلأ نصفها ووضعتها على المنضدة الخشبية الصغيرة
بجوار اللفائف التى أحضرتها من البقال وقالت متضاحكة :

لعلك لاتمانع فى مقاسمتى الزجاجة .. انى فى حاجة اليها كلها ،
ولكنى على أتم استعداد للتنازل لك عن نصفها .

- انى لا أشرب .

- غير معقول !

- ولماذا ؟

- مغامر مثلك يطارد النساء فى منتصف الليل .. ويتبعهن الى
خدورهن .. ثم لايشرب ؟ خذ لك كأساً .

- حقيقة لا أشرب .

- اذا أصنع لك فنجانا من الشاي ؟

- لا لزوم له .

- أو فنجانا من القهوة ؟

- لا داعي للتعب .

- اذا تشاركني عشائي ؟

وسارت الى باب صغير يفضى الى دورة مياه ، وما لبثت أن عادت ومعها بضعة أطباق أخذت تفرغ فيها اللقافات : جبة وزيتون ، ومرتدلا ، وطرشى .

ودرت بصرى فى أنحاء الحجرة .. فوجدت خليطا عجيبا من البوهيمية والريثة والفوضى .

فراش ما زالت أغطيته مشوشة من نوم الليلة السابقة ، ووسائد بدت عليها آثار الرأس بقذارتها الدهنية جلية واضحة ، وفردة ششبب مقطوعة ، وأعقاب سجاجير ، وزجاجات ويسكى وبيرة ونبذ فارغة .. ومشجب تراكمت عليه مختلف أنواع الثياب النسائية : روب حريرى ، وكورسيه ، وفستان أزرق ، وعلى الأرض بجوار الفراش كوم آخر من الملابس وأعقاب السجاجير والصحف والمجلات .

وبجوار الفراش والمشجب استند الدولاب على الحائط بمرآته المشروخة وضلفه التى لاتغلق وأحشائه المطلة بخليط عجيب من الثياب والأوراق والزجاجات ، وتتوسط الحجرة سجادة ناحلة استقرت عليها المنضدة الخشبية وأحاطت بها بضعة مقاعد من الخيزران ومقعد كبير متهالك منهار ، ووسط هذه الفوضى والريثة بدا الشيء الوحيد المعنى

به فى الحجره والذى لم أجد لوجوده مبررا ولا معنى وهو رف للكتب
وضعت عليه عدة كتب مرصوطة بعناية .

وسألتها مستوضحا :

- يبدو لى أنك تقرئين كثيرا ؟

- ان القراءة هى الشئ الوحيد الذى أدمن عليه دون أن ينالنى
منه سوء .

وكانت قد انتهت من رص الصحف ورأيتها تمد يدها الى
المشجب فتناول القميص والروب وتجه الى الباب الصغير الذى
أحضرت منه الأطباق قائلة :

- دقيقة واحدة .. أبذل ملابسى .. انى أحب أن أجلس معك
على راحتى .. ألدبك مانع ؟

- أبدا .. افعلنى كل ما يحلو لك ، ولانقيمى لوجودى وزنا .

- معك حق .. ما دمت قد غامرت باحضارك هنا .. فليس لى
أن أخشى بعد ذلك شيئا .. ليس لددى أسوأ مما ترى .

ولم يكن هناك فى الواقع أسوأ مما أرى ، فلا أظن المرأة قد
أدخلت فى حسابها قط .. أن رجلا سيزورها فى حجرتها .. فالمرأة
التي تصيد رجلا لتقدم له جسدها لايمكن أن تعرض عليه كل هذه
الخفايا المنفرة التى تحرص فى العادة على اخفائها .

ولقد قلت أنى من بداية الأمر لم أحس للمرأة بأى قابلية وأنى
كنت أرجو أن تثيرنى المغامرة نفسها ، ولكن جو الحجره بكل مافيه

من فوضى وقذارة وراثثة قد قضى على كل ما يحتمل أن تثيره فى نفسى خلوتى بامرأة ، واندماجى فى جو المغامرة .

واختفت المرأة لتبدل ثيابها وبدأت أجد أن مهمتى التى كانت فى مثل هذه المواقف - تنحصر فى استدراج المرأة - قد باتت تنحصر فى كيفية التخلص منها دون أن أخرج مشاعرها أو أولم نفسها .

وعادت اللى قائلة فى مرح :

أما زلت تصر على ألا تشاركنى الزجاجة ؟ سأضطر اذاً أن أشربها وحدى .. واذا سكرت فأنت المسؤول .. تفضل .. كل على ما قسم . ولم تكن لى قابلية للطعام .. ولكنى خشيت أن أولهما يرفض مشاركتها اياه فاقتربت بمقعدى من المائدة وتشاغل بالأكمل .

وبدأت الخمر تتدفق من الزجاجة الى الكأس .. ومن الكأس الى حلقها .. ورفع الشراب ستار الكلفة والاستحياء الذى كان يسدل عليها وفك عقدة لسانها ، فاندفعت تثرثر فى خفة مستحبة ومجون لذیذة ، وأخذت تروى النوادر عن عملها فى المسرح والسينما وتحكى عن حياتها وراء الكواليس ، ومغامراتها مع المنتجين والمخرجين .

وظللت أجد فى حديثها تسلية ومتعة حتى بدأت الكأس تثقل عليها وأخذت تخبو رويدا رويدا ذبالة المرح التى أشعلتها بضعة الكؤوس الأولى ، وبدأت تغمرها موجة من الحنين الحزين .. وكف لسانها عن الثرثرة ليستعير عنها بالتهنيدات والآهات وبدت عليها هيئة العشاق السكارى .

وهنا أحسست أن مشكلتى قد بدأت تتعقد .. وأن على أن أبدأ مهمتى الشاقة فى التخلص منها دون أن أخذلها أو أولمها .

وقرعت المائدة بكأسها ومدت ساقها وألقت برأسها الى الورا
وأطلقت تنهيدة حارة ، ثم سمعتها تهمس فى شبه أنين :

- دنيا !

ووجدت أن على أن أقطع سلسلة التهنيدات ، وأن أحسر عنها
موجة الحزن المرفهة التى تعقب فى نفوس السكارى موجة المرح .
وقلت ضاحكا :

- سأروى لك آخر نكتة سمعتها .

ورفعت الى رأسها فوجدت فى عينيها عبرتين وعادت تقول فى
صوت خافت وكلمات بطيئة متقطعة :

- بل سأروى لك أنا أول مأساة عرفتها .

ومدت يدها فوضعتها على ظاهر يدى وأطبقت كفها عليها ثم
رفعتها الى شفتيها ومست باطنها فى رفق .

وأحسست بأنفاسها تلهب أصابعى .. ووجدت أن المسألة تتطور
سريعا .. وأن على - ما دمت لا أريد المغامرة - أن أضع حدا لها .

وسحبت يدى .. فسقطت يدها على المنضدة .. وقلت وأنا أهم
بالوقوف :

- يبدو أنك متعبة .. وأظن من الخير أن أنصرف ، وأدعك
تسترحين .

وانتفضت بكأنا لسعتها عقرب وتساءلت وقد فغرت فاهها :

- تنصرف ؟ لماذا ؟
- الوقت متأخر .. وأنت متعبة .
- أنا لست متعبة .. انى فقط سعيدة ، وأنا أبكى عندما أكون سعيدة .. أجلس أرجوك .
- وجلست . لقد كان علىّ أن أحتمل .
- وعادت المرأة المخمورة ، الباكية من فرط السعادة ، تواصل سلسلة تنهداتها السعيدة .. وتهمس الّى فى صوتها المبحوح :
- ألم تذق الحب ؟
- ذقه مرارا .
- مرارا ؟ أنت اذا لم تذقه .. ان الحب لا يذاق الا مرة واحدة ..
- اما ان ترديك صريعا . او تبعثك حيا .
- وماذا فعلت بك أنت ؟
- أردتني صريعة بالطبع .. لم تدع لى سوى هذا الحطام الذى تراه .
- وخشيت أن تطلب منى أن أبعثها حية فقلت لها مستضحكا :
- أنت ما زلت بخير .. أنك فى أوج صباك .
- صباى ؟! كم تعطينى من العمر ؟
- وأنا خبير بعمر النساء .. أعرف أنه لا يمكن أن يتعدى الثلاثين ..
- ولا بعد مائة عام ، وأنهن يعقدن على هذا السن فلا يتجاوزنه أبدا ..

وَعَرَفَ كَذَلِكَ أَنَّهُنَّ جَمِيعًا تَزَوَّجْنَ فِي الثَّالِثَةِ عَشْرَةِ ، وَأُنْجِبْنَ الْإِبْنَةَ الْأُولَى فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةِ .

وَقُلْتُ لَهَا لَكِي أَقْطَعُ عَلَيْهَا خُطَّ الْجِدَالِ .

- ثَلَاثُونَ عَامًا ؟

- انْقِصَ عَامَيْنِ .

- ثَمَانِيَةَ وَعِشْرُونَ ؟

وَهَزَزْتُ رَأْسَهَا مُوَافَقَةً .. وَهَزَزْتُ رَأْسِي مُسْلِمًا . لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ وَفَتْ وَلَا دَاعٍ لِلْجِدَالِ حَوْلَ عُمُرِ الْمَرْأَةِ الْهَادِيَةِ .. لَتَكُنْ فِي الثَّامِنَةِ عَشْرَةِ إِذَا أُرَادَتْ .. الْمَهْمُ هُوَ أَنَّ تَتْرَكْنِي أَنْهَضُ ، وَهَمَمْتُ بِالنَّهْوِضِ مَرَّةً أُخْرَى عِنْدَمَا أَحْسَسْتُ بِكَفِّهَا فَوْقَ كَفِّي وَسَمِعْتُهَا تَهْمَسُ :

- كُنْتُ فِي الثَّالِثَةِ عَشْرَةِ .

وَتَوَقَّعْتُ أَنَّ تَقُولَ (عِنْدَمَا تَزَوَّجْتَ) ثُمَّ تَرْدِفُ بِالْجُمْلَةِ الطَّبِيعِيَّةِ (وَأُنْجِبْتَ ابْنَتِي الْأُولَى فِي الرَّابِعَةِ عَشْرَةِ) وَلَكِنِّهَا خَذَلْتَنِي وَقَالَتْ :

- عِنْدَمَا أُحْيَيْتُ .

وَكَانَ عَلَيَّ أَنَّ اسْتَسْلِمَ لِسْمَاعَ قِصَّةَ حَبِهَا .. الَّذِي أَرَادَهَا صَرِيعةً . وَتَرَكَهَا حَطَامًا .. وَاسْتَمَرَّتْ تَتَحَدَّثُ فِي صَوْتِهَا الْخَافِتِ وَتَنْهَدَاتُهَا الْمَتَقَطِّعَةُ :

- وَكُنْتُ وَقْتِذَاكَ .. عَلَى النَّقِيضِ مِمَّا تَرَانِي .. كُنْتُ سَمِينَةً ..

سَمِينَةً جَدًّا .. وَكَانَتْ أُمِّي فَخُورَةً بِسَمْتِي .. كَأَنَّمَا كَانَتْ تَثْبِتُ بِي قُدْرَتَهَا عَلَى التَّغْذِيَةِ .. أَوْ كَأَنَّمَا كُنْتُ لَدَيْهَا وَزَةً أَوْ بَطَّةً ، وَلَمْ تَكُنْ

سمنتى كطفلة شيئا مزعجا .. بل كانت أمرا مستحبا .. وكنت طفلة نموذجية اذ كان وجهى جميلا متوردا ، وأنت تدرى قيمة سمنة الجسد وحلاوة الوجه فى الأطفال .. ولكن هذه السمنة المستحبة بدأت تنقلب أمرا بغيضا ، ولاسيما أنها أخذت تزداد عاما بعد عام ، وبدأت أضيق بسمنتى .. بعد أن بلغت الثالثة عشرة .. ودخلت فى دور المرأة .. ورغم ضيقى بها لم أكن أجدها شيئا مخيفا .. حتى أحسست بالحب .

- أحسست بالحب ، وأنت فى الثالثة عشرة ؟

- أجل .

- أهذا هو الحب الذى حطمتك !؟ انه عبث صبية .

- انتظر حتى أروى لك .. كان يقطن على مقربة منا ، وكانت بين أمى وأمه صداقة جيرة ، وأحببته أنا .. أحبته حبا حقيقيا . وليس عبث صبية كما تقول .. وأحب هو أختى النحيلة .. النحيلة بالنسبة لى طبعها .. أو ربما لم يحبها .. بل عبث معها .. ما سميت أنه عبث صبية .. ولم يحاول أن ينظر التى فقد كان جسدى السمين .. لايمكن أن يجعل منى أكثر من مادة للفاكهة والضحك .. وطويت مشاعرى فى صدرى .. وكانت كتل الشحم الراسخة عليه .. أسمك من أن تشع عاطفة أو احساسا .. كنت يائسة منه يأسا مطلقا .. زاده ما سمعته من أمه .. من أنه يكره السمان .. ويحب الفتاة الخفيفة كالفراشة .

وتستطيع أن تتخيل أية عقد ركبته السمنة فى نفسى .. ولاسيما وأنا أسمع فى كل آونة من أمى هذه الجملة التقليدية (لو وضع وجهك على جسد أختك .. كوّنتما أجمل مخلوق فى العالم) .

وكان وجهى جميلا حقا .. ولكن ماذا يمكن أن يجدينى وهو على هذا الجسد الهائل .. لقد كنت على استعداد لأن أمنحه لأختى .. أو لأى مخلوق اذا استطاع أن يأخذ معه هذه الكتل الشحمية التى ترسب على .

وسمعت من أمه ذات مرة أنه قال ان وجهى جميل .. فبدأت أحرق فى المرأة .. وأحسست بشيء من الاعتزاز به .. ونفذت الى نفسى بارقة أمل لأول مرة .

ان هناك ما يعجبه فى .. وأنا أستطيع أن أفوز بحبه .. لو حطمت هذا السد الكائن بينى وبينه ، أعنى : جسدى .

وهنا بدأت معركة هائلة .. بينى وبين جسدى .. أو على وجه أدق .. الكتل الشحمية المرصوفة عليه .

وصممت على أن أكسب المعركة .. فقد كنت أشعر أنها معركة فى سبيل حياتى .

وسافر هو وقتذاك فى بعثة الى أوروبا ، وأحسست بشيء من الغبطة ، وبدا لى أن سفره كان تدييرا من عند الله حتى أدخلو بجسدى فى المعركة .. وحتى أفاجئه عند عودته بمخلوقة أخرى .. تكون أهلا لحبه .

واندفعت فى المعركة .. بجنون وقسوة .. وبغير رفيق ولا هوادة ، ولست أريد أن أثقل عليك بالتفاصيل .. المهم هو أنى كسبت المعركة .. والدليل الواضح هو هذا الهيكل الذى تراه أمامك .. انتصرت .. ولكن بثمن .. ثمن ضخم .. كاد يكلفنى حياتى .

لقد أعياني (الرجيم) الحاد .. والإجهاد المضني .. وبدأت كتل الشحم تنهار ، وتنهار معها قواي ، وعندما بدأت أجنبي ثمار المعركة وأختال بجسدي الضامر النحيل .. خرت صريعة .. بعد أن أصبت بنزيف في الرئة .. عرضني للإصابة بالسل .. وكاد يدمر حياتي .

وصمتت المرأة وبدأ عليها الإعياء وانتظرت أن تقول شيئاً عن نتيجة انتصارها .. عن الهدف الذي من أجله دخلت المعركة .. عن الربح الذي كانت ترجوه ، والتمن الذي كانت تأمل فيه .

وطال صمتها حتى اضطرت الي أن أستحثها قائلاً :

- وصاحبنا .. ماذا فعلت معه ؟

ورفعت كتفها وأطلقت من أنفها ضحكتها القصيرة المريرة الساخرة :

- لاشيء .. لاشيء أبدا .. عندما عاد .. كنت أرقد صريعة الداء .. وكانت جيرتنا قد انتهت منذ فترة طويلة .. ولم يكن لديه أقل فكرة عني .. كنت بالنسبة له شيئاً مجهولاً ، وعندما شفيت من الداء - ان كنت قد شفيت - طوتني أعاصير الحياة .. تزوجت وطلقت .. وتزوجت وطلقت .. واندفعت لألطم أمواج العيش .. فلم يبق مني أكثر مما ترى .. لقد ضاع انتصاري في المعركة سدى ، وذهب ريحي فيها هباء .

ومددت يدها مرة أخرى لتضعها على يدي ، ولكنني سحبت يدي ونهضت .. كانت الساعة قد بلغت الثانية وكان علي أن أعود الى البيت .

ورأيتهما تتطلع الى فى جزع متسائلة :

- إلى أين ؟

- أظن الوقت قد حان للعودة .

ونهمضت متساندة الى المنضدة ونظرت الى نظرة راجية :

- ألا تبقى قليلا ؟

- سأتى اليك مرة أخرى .

وكنت قد وصلت الى باب الحجرة وفتحته مصمما على الخروج .. ومددت يدي أضافحها مودعا .. وأمسكت يدي لاتريد أن تتركها ، وهتفت فى توسل أليم :

- ألا تريدنى ؟

وأحسست أنى أذلت المرأة باضطرارها الى عرض نفسها .. وخيل لى أن خير ما أفعل هو أن أعوضها بالنقود .. وأن أدفع لها ثمن ما كان يجب أن أفعله .

ومددت يدي فأخرجت بضع ورقات مالية ، ثم دسستها فى يدها .

وبدأ عليها ألم مروع كأن الأوراق جمره لسعتها ، ووجدتها تطبق عليها بعصية وتدفعها لى وتهمس :

- أهذا هو الذى أقبضه بعد طول انتظار ؟

وفجأة .. وكما ييرق وميض البرق .. بدت لى فى ملامحها
الشاحبة الهزيلة .. صورة قديمة باهتة لوجه سمين متورد ممتلىء .. وجه
طوته الأيام ومحاه الزمن .

وتذكرت بيتنا فى حى السيدة .. والصبية الصغيرة السنمينة التى
لمحتها فى دارنا مرة أو مرتين .

أحسست بأنى أكاد أتهاوى فى موضعى ونظرت الى الطير
الجريح وهو يترنح أمامى وقد بدت فى عينيه نظرة عتاب أليم ، وانساب
الدمع من مآقيه .

وشددت على يدها فى صمت مشدوه دون أن أجسر على أن
أقول شيئا .. وانحدرت على الدرج كالهارب من شبح ، أو العائد من
جنازة .

وعندما وصلت الى الطريق رفعت رأسى ، فوجدت شبحها فى
النافذة العالية تلوح بيدها فى بطاء وقد أحاطت بها الرقعة الداكنة والنجوم
المتناثرة وقطعة القمر المختفية وراء السحب .

وانطلقت بى العربة وأنا أطبق على عجلة القيادة بيد ، وباليد
الأخرى أطبقت على الأوراق المعادة .. أو على الثمن المرفوض .

★ ★ ★

دُجُوعٌ لَيْلَتِي حَمْرًا

كانت بداية ليلة حمراء .. وكل شيء بدا معدا بمهارة وذوق واتقان ،
وقد تعاونت مركبات الحجرة من عطر نفاذ ، وموسيقى ناعمة ،
ولهب حار يتراقص في جوف المدفأة ، وضوء خافت ينبعث من مصباح
أحمر أنيق .. تعاونت كل هذه المركبات .. بالإضافة الى الأنثى الساخنة
المتعطشة المتأهبة .. على خلق جو أحمر حار يرهف الحس ويؤجج
المشاعر ، ويدفع الدماء حارة في العروق .. ويهمس أو يصرخ .. في
غير تحفظ ولا حذر بأن فعلا ما - مما يسمونه منكرا - على وشك
أن يحدث .

وكانت تجلس متربعة على أريكة منخفضة في ركن الحجرة وقد
شمرت كمي وساقى ييجامتها الصوفية الفضفاضة المخططة .. التي
تعوّدت أن تسرع بارتدائها بمجرد أن تعبر قدماها بابه .. وبعد أن تنزع
عنها جميع ملابسها .

وكان يجلس متكئا برأسه على كتفها ممددا ساقيه على الأريكة .. وأحس بأصابعها تعبت في شعره وبأنفها يمس رأسه وبشفتيها تهمسان :

- أحب رائحة شعرك .

ولم يجب ، ورفع شفتيه فألصقهما بشفتيها في قبلة قصيرة ثم عاد يحملق في اللهب المتراقص .

ومرة أخرى عادت تهمس في حرارة :

- انى أحبك .. حبا كامنا في أعماقي .. أكتشفه كلما خلوت الى نفسى وحاولت سبر أغوارها .

ومرة أخرى لم يحرك شفتيه .. بالكلام ولا بالقبل .. وطال الصمت فعادت تهمس متسائلة :

- وأنت ؟

- انى أعزك ..

- ومن تحب اذن ؟

- لا أحب أحدا .. أو أحب التى معى ساعة أن تكون معى .

- هذا ليس حبا .

- هذا خير لى من الحب . عندما يحب الرجل عشر نساء .. يمتلك العشر .. وعندما يحب واحدة تمتلكه الواحدة .

- اذن فليس هناك من تمتلكك ؟

- أجل .

- ان فى هذا لى بعض العزاء .. وبعض الأمل فى أن أمتلكك
يوما .

وساد الصمت مرة أخرى ومدت يدها فتناولت كأسا من فوق
المنضدة ، ورشفت منه رشفة .. ثم أعادته .. وتساءلت فجأة :

- ألم تحب يوما ؟ ألم يمتلكك أحد ؟ أمضيت حياتك
هكذا .. لاتحس بنعمة الامتلاك ؟ أتجلس على قارعة الحياة .. لاتعرف
سوى الإيجار .. ايجار نفسك وايجار الغير ؟
وضحك وقال وهو يرفع اليها عينيه :

- الإيجار يمنحنا نعمة الحرية .. ومتعة التغيير والتبديل
والانطلاق ، وقلما نشاء وحيثما نشاء .

- ومتعة الاستقرار والسكينة والطمأنينة .. والحب ؟ ما رأيك
فيها ؟ .. لقد كنت أظنك من قراءتى لك .. لاتفعل شيئا سوى الحب ..
عجيب هذا التناقض بين ما نتوهمه فى الكتاب وما نجدهم عليه ..
أمعقول أنك - مع كل ما كتبت - لم تحب أبدا ؟ لابد أن تكون اذن
مخادعا كبيرا !

ولم يجب ، وبدا فى صمته كأن الحديث لايغنيه فهمست به
عانية :

- لماذا لاتجيب ؟ حدثنى عن الحب ؟

وحول اليها بصره ناظرا اليها فى شئ من الدهشة وقال متسائلا :

- ماذا بك الليلة ؟

- انى أحبك ، واذا كنت لاتريد أن تبادلنى الحب .. فبادلنى
أحاديث الحب .. ألم تحب ؟

وعاد يحملق فى اللهب المتراقص وبدا عليه شرود حزين وأجاب
فى لهجة مقتضبة وصوت خافت :
- أحبيت مرة .

- حدثنى عنها .. متى ؟ وكيف ؟
وبدا كأنما ينفض عن نفسه شبحا جثم عليه وقال وهو يمد يده
ليتناول كأسه ويهم بالنهوض :
- دعينى من هذا .. سأروى لك آخر نكتة .

وأحاطته بذراعيها وأبقتة حيث كان وقالت فى اصرار :
- لا أريد أن أسمع نكتا .. أجلس وحدثنى عن الحب ..

وأحس بأصابعها تعاود العبث فى شعره وبأنفها يتشممه وبشفتيها
تسفلان الى جبينه وعينه ، وغمرته بموجة حنين جارفة أثارت فى نفسه
شجنا كامنا وذكرى هاجعة ، ووضع الكأس جانبا وأخذت الألفاظ
تنساب من شفتيه بطيئة هامسة كأنما يحدث نفسه .

- بدأت الصلة بيننا بالكتابة .. وكانت تقطن احدى بلدان
الساحل ، وقرأت رسالتها أول مرة ضمن عشرات الرسائل التى يحملها
البريد التى طالبة صورة أو امضاء أو كتابا أو اجابة لبضعة أسئلة أو حلا
لمشكلة .. ورددت عليها فى بضع كلمات مهذبة مهديا اياها الصورة
أو الكتاب - لست أذكر - الذى طلبته ، وردت على - كما يرد عني
سواها - شاكرة فى رقه .. واسترسلت تعبر فى بضعة سطور عن

اعجابها بى وتقديرها لى .. ولم تكن فى هذا أيضا تفرق كثيرا عن العشرات غيرها .

وتبادلنا بضعة رسائل تقدير من جانبها وشكر من جانبى ، وبدأ التقدير يتطور الى أكثر من تقدير ، وبدأت الرسائل تطوى فى خلال سطورها كلمات الصداقة والأخوة .. والصلوات الروحية وغيرها من التغييرات التى لايفصلها عن الحب سوى خيط دقيق .. أو التى يستغلها الحياء للتعبير عن الحب .

وحتى هذه التعبيرات لم تميز صاحبة الرسالة عن العشرات غيرها فقد كانت كلها تحمل مثل هذا التطور ، وكان على أن أجييهن جميعا كصديقات صغيرات عزيزات .. ولقد كنت أحس لهن كذلك فعلا ، فكنت حريصا فى ردّى على ألا أفرط فى الرقة .. فأمنجهن أملا أحمق أو أفرط فى الجفوة فأصدهن صدا موجعا .

وحملت التى احدى رسائلها أمنيته فى أن ترانى قائلة : ان تلك قد باتت أقصى أمانيتها وأنها لابد مع الزمن أن تنالها . وحتى هذه الأمنية لم تستطع أن تميز صاحبة الرسالة فقد حملتها التى غيرها من الرسائل .

وأنا أعرف نفسى جيدا .. أعرف أنى لأستحق شيئا من هذا كله ، ولم أملك الا أن أضحك من نفسى ساخرا أن تكون رؤياى قد أوضحت أمنية .. لكائن من كان .. فما بالك بهؤلاء الصغيريات العزيزات اللاتى أحب أنا نفسى رؤيتهن !

وهيأت لى الظروف فرصة السفر الى بلدها .. ووجدتها فرصة سانحة لأن أراها هى وغيرها من أصحاب الرسائل المعجبة اللاتى يقطن نفس البلد ويتمنين رؤيتى . فأرسلت اليهم أنبئهم بقرب قدومى اليهن .

وكان علىّ اما أن ألقاهن جملة في موعد أحده لهن في الفندق الذى أنوى النزول فيه .. أو ألقاهن فرادى ، كل في موعد مختلف ، وكان لكل طريقة عيوبها ومزاياها . فالأولى تفضل الثانية في أنها توفر علىّ الوقت والجهد في الحديث ، والثانية توفر علىّ الحرج في جمعهن سويا وفي خذلانهن عندما ترى كل منهم أنها ليست الوحيدة التى أخصها بالكتابة واللقاء .. وأنها لاتعدو واحدة مجهولة ضمن بقية المعجبات .

وفضلت الطريقة الثانية ، فقد خجلت أن أحيط نفسى في الفندق بمظاهرة فتيات .. ووجدت أنى أول من سيحس بالحياة والحرج أمامهن .

واخترت منهن خمسا .. كنت أحس من كتابتهن شيئا - حرارة أو لطفا أو رقة - يميزهن عن غيرهن ويجعلهن أقرب الى نفسى . وكانت هى .. ضمن هؤلاء الخمس .. اللاتى كتبت اليهن أنبهن بقدمى وأحدد موعد اللقاء .

ولم يكن لدى من الفراغ سوى بينهن ، فحددت المواعيد الخمسة الظهر وتنتهى فى التاسعة .. وقدرت ألا يريد سبى ح . نصف ساعة تاركا ربع ساعة بين رحيلها ووصول الأخرى حتى لا يحدث ارتطام بينهن .

وذهبت الى البلدة وأتممت أعمالى بها ، وقبل الرابعة فى الأمسية الموعودة اتخذت مجلسى أمام منضدة فى ركن التراس المطل على

الشاطيء وكنت قد كتبت ورقة بأسمائهن وأمامها موعد لقاء كل منهن حتى لا أخلط بينهن .

وكنت أعرف سلفا أى نوع من الفتيات أوشك أن ألقى ، ولم أحاول أن أخدع نفسى فأمنيتها بمتعة منتظرة .. بل أقنعتها بأنها تؤدي واجبا لا بد من تأديته .. ولم أكن أتوقع قط أن أبصر بهن أى نوع من أنواع الجمال والإغراء .. وأكثر من هذا كنت أعرف من خلال رسائلهن ، سيذهب بها الحياء والارتباك الذى سيصيبهن عند أول لقاء لى .. وأن على أن أمضى نصف الساعة التى سأجلس خلالها مع كل منهن فى دفعهن الى الحديث وفى خلق موضوع له .

وحلت الرابعة - موعد قدوم الأولى - وأنا أرقب مدخل التراس ، محملا فى كل قبيحة صغيرة مرتبكة ، معتمدا على أن تعرفنى هى فتتجه الى .

ومضى ربع ساعة ولم يحضر أحد .. ونصف ساعة ولم يحضر أحد .. وبدأت أسترخى فى مقعدى مخرجا الأولى من حسابى ، تاركا لنفسى فرصة ربع ساعة راحة قبل أن أبدا فى انتظار الثانية .

ولكن .. لم يكد يتجاوز العقرب النصف بيضع دقائق .. حتى لمحت فتاة تجتاز المدخل ووجدت أعصابى المسترخاة تتوتر ، واحساسى يرهف .. وأخذت أرقبها جيدا .

ولم أتوقع قط أن تكون احدى المقيدات فى جدول مواعيدى .. اذ لم يكن ينطبق عليها الكثير من المقاييس التى فرضتها عليهن والصور التى تخيلتها لهن .. حقيقة كانت الى حد ما صغيرة .. والى حد ما .. مرتبكة مترددة ، كمن تبحث عن شىء .. ولكنها لم تكن قبيحة أبدا ..

بل كانت جميلة .. الجمال الأمثل الرقيق الذى يمس شيئاً فى أعماقى ..
والذى أشعر أن كل حواسى قد شددت اليه .

وأخذت أرقبها .. ليست مراقبة منتظر موعدا .. أو متوقع لقاء ..
بل مراقبة ملهوف مأخوذ .. متناسيا كل شيء عن معجبائى وعن جدول
مواعيدي .. وتطاييرت منى كل مظاهر الكبرياء والغرور الذى كان
يفرضه على الموقف فرضا .

ورأيت خطواتها تتباطأ وعيناها تبحثان فى حيرة بين المناضد
ووجدت الحق البيانى الذى لا أستطيع التخلص منه يدفعنى الى أن
أتمنى أن تكون احدهن .. وأن أذهب اليها لأقول لها أنى أنا هو أنا ..
وقبل أن أراجع حماقتى الصبائية كانت عيناها - فى جولتها الباحثة -
قد وصلت الى الركن الذى أجلس فيه .. والتقتا بعينى .. وفى ثوان
معدودات تصاعد الدم الى وجهها ، وافر ثغرها عن ابتسامة جميلة
وتلألأت عيناها بفرحة ممزوجة بدهشة .. ثم وجدتها تتجه الى فى
خطوات سريعة وجلة .

ونفضت ألقاها فى لهفة أطاحت بكل ما رسمته فى ذهنى من
سمات التؤدة والهيبة التى كان يجب على أن ألقى بها معجبى . وشددت
على يدي ، ومازالت تعلقو ثغرها الابتسامة الحلوة الخجلة .. وقالت لى :

- لم أكن أتوقع أن أميزك بهذه السهولة .. انى أشعر أنها ليست
المررة الأولى التى أراك فيها .. لقد عرفتك بمجرد أن التقت عيناى
بعينيك .. وأنت .. أعرفتني ؟

وقلت وأنا أقدم لها مقعدا وأجلس قبالتها .. محدقا فى وجهها :

- طبعاً عرفتك .

ولم أكن مدعيا فى قولى .. فقد أحسست أنى عرفتها من الصورة
المرسومة فى باطنى منذ عشرات السنين .

ورمقتنى بعينيها الحلوتين الباسمتين وقالت مازحة :

- من أكون ؟

ولمحت الساعة فى معصمى .. كانت الخامسة الا ربعا ..
وأحسست أنى قد أسقط فى يدى .. من تكون ؟ الأولى .. أم
الثانية ؟ .. كوتر .. أم بثينة .. الاحتمالان جائزان ، فقد تكون كوتر
متأخرة فى مواعدها .. أو بثينة مبكرة فيه .

ولو قلت لها هذه وكانت تلك .. أو تلك وكانت هذه ..
لجرحت مشاعرها .. وأظهرت أنى لا أتوقع مجيئها هى .. بل كنت
أنتظر أخرى .. وأنى أخطأت فيها .. وتحتم عليها الرحيل لترك مجالا
للأخرى التى قلت اسمها .

وكرهت أن أفقدها بعد أن أقبلت علىّ بمثل هذه اللفهه ، وبعد
أن أقبلت أنا عليها بلهفه أشد وكأنى لا أنتظر سواها .

وكانت لم تزل تنظر الّى فى ابتسامتها الرقيقه ، وقد بدت عليها
أقصى مظاهر الرضاء والسعادة .. وعادت تتسائل :

- لم تقل من أكون ؟

- وكان علىّ أن أقول شيئا لايفضح أمرى ، وأن أستدرجها فى
الحديث ، عليها تفصح فى أقوالها عمن تكون .

وقلت محاولا اكبتساب وقت يمنحنى فرصة التفكير :

- أتعتقدين حقا أنى لا أعرف من تكونين ؟

ومرّ بذهنى أن خير طريقة أعرفها بها هو أن أعرف منها حقيقة موعتها ، فإذا كان الرابعة فهى كوثر ، وإذا كان الخامسة فهى بثينة .

وقبل أن تجيبين أردفت قائلا :

- كيف لا أعرفك .. أليس بيننا موعدك ؟

- أجل .. لقد تأخرت عليك .. وكنت أخشى ألا أجدك .

- أتاخيرين دائما فى مواعيدك ياكوثر ؟

وأحسست بموجة من السعادة تغمر وجهها وأنا أنطق باسمها .. ولم يكن من العسير على أن أعرفه وأغامر بنطقه بعد أن اعتذرت عن التأخير ، فأيقنت أنها لابد أن تكون فتاة الرابعة كوثر .. ولكنى أحسست بمشكلة جديدة تطل برأسها بيننا .

كانت الساعة قد بلغت الخامسة الا الربع ، ولم يبق سوى ربع ساعة على الموعد الثانى ، وإذا كانت فتاة الرابعة قد تأخرت نصف ساعة فليس هناك من يضمن لى أن فتاة الخامسة لن تأتى مبكرة عن موعتها .. ولاسيما بعد أن بت أتمنى تأخيرها ، والأقدار تأبى دائما أن تنيلنا ماتمنى .

وتملكنى قلق وحيرة ، فقد كرهت أن يحرمنى مخلوق - أيا كان - من هذه الأمنية العذبة الجالسة أمامى .. وأحسست أنه لا توجد على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تنزعها منى بعد بضع دقائق .

ووجدت هذا الشيء الذى أثارتته فى أعماقى .. يملؤنى رغبة فى أن أفر بها بعيدا .. وتلفت حولى وأشرت الى الجرسون ، وبدل أن

أطلب لها شيئا نقدته حسابه عما طلبت وبمتهى البساطة ، وبمتهى
الحقق وقلة الذوق نهضت قائلا :

- المكان مزدحم .. (ولم يكن مزدحما) .. ألدك مانع من أن
نتمشى على الشاطيء .. أو نذهب الى أى مكان آخر ؟

ويبدو أن فرحتها بلفائى كانت على استعداد لتغطية كل مساوئى
وتصرفاتى غير الطبيعية ، فقد رأيتها تبغنى فى استسلام ومازالت يكسو
وجهها الإشراق والسعادة والابتسامة المتلاعبة .. وأحسست بالراحة تملأ
نفسى وأنا أسير وياها متلاصقين على رمال الشاطيء .. ووجدتني
أستعيد رسائلها فى ذهني .

كانت أرقهن قولا ، وأحرهن مشاعرا وأجملهن روحا ، وأشدهن
صلة بى واجترأ فى الحقوق على ، ولم أكن أشك - من سابق
تجاربى - فى أنها لابد أن تكون أقبحهن شكلا .. فقد علمتني التجارب
أن جمال البعد غالبا ما يتناسب تناسبا عكسيا مع جمال القرب ، وأن
الله يوزع المزايا على الناس بقدر .. اللهم الا قلة شاذة يتجمع فيها
الفضل كله أو السوء كله .

وتحدثنا كثيرا ، ولم يصعب على أن أزيل عنها الرهبة الأولى .
وأن أجعلها تؤمن بسهولة .. بعد أن كانت - على حد قولها - لاتصدق
أنها معي وأنها تسير بجوارى جنبها الى جنب .. بأنها أصبحت أقرب
الأصدقاء الي .

فعلت هذا بلا جهد ولا كلفة .. لم أتكلف سوى أن تركت
نفسى على سجيته . وليس أسهل على نفسى من الانطلاق على سجيته

عندما أكون بجوار شخص أحبه ، ولقد أحسست من اللحظة الأولى
التي رأيت فيها هذه المخلوقة .. أنى أحبها .

وأنا على مَرّ السنين .. وعلى ما يفرضه على السن من تودة
واحتشام .. لا أستطيع أن أنتزع نفسي من طفولتي وصباى فى لحظة
انسجامى مع من أحب ، فانطلقت مع الحلوة الرقيقة المرفهة السائرة
بجوارى أمرح وأضحك خارجا عن كل قيود الكلفة والتزمت داخلا فى
نفسى الشاعرة الذائبة .

وقلت لها الكثير ، وقالت لى الكثير .. حدثتني عن أمها وأبيها
وأخواتها ومدرستها وزميلاتها ، ثم عند بدء قراءتها لى وكتابتها الى
وأحاسيسها نحوى .

وكان البحر قد اقتضم الشمس وأخذ فى ابتلاعها على حافة
الأفق . وامتدت يد الظلمة لتمسح بقايا الدماء المنتشرة فى الشفق .
ودون أن نشعر وجدنا الظلام يحوطنا فيما أحاط .. واستقر بنا المقام
على حافة صخرة يتطاير من حولها الرذاذ ويتلاطم الموج .. ورأيتها ترفع
الى وجهها وعلى شفيتها ابتسامتها المشرفة وهى تتساءل فى استحياء :

- لم تقل لى حتى الآن .. كيف وجدتني ؟

- لم أقل لك حتى الآن ؟ . أحقا تعنين سؤالك هذا ؟

- أقلت لى ؟

- لم أقل بلسانى .. ولكن ألم تحسى أنت كيف وجدتني ؟
وبعد أن نسيت نفسى .. ونسيت كل ما حولى وأخذت أسير معك
كصبية العشاق تسأليني كيف وجدتني ! لقد كان مفروضا ألا يزيد

لِقائى لك عن نصف ساعة أعتذر لك بعدها بأنى على موعد ، ثم ألقى
بعدك أربع معجبات أخريات ، ولكنى لم أكّد أراك حتى اختطفتك
وفررت بك الى هنا . أعرفت الآن كيف وجدتكَ ؟

وبدا على سيمائها التأثير وأطبقت شفيتها على ابتسامتها الدائمة ..
وسمعتها تهمس فى سرور وقد أطرقت برأسها وحدقت أسفل الصخرة :

- عجيبة هذه الأحلام !

- كيف ؟

- لقد حلمت ليلة أمس أنى معك .. كان حلمًا لذيذا ما قضيت
فى حياتى لحظات أمتع منه .

- قصّيه علىّ .. لعلّى أحققه لك .

ورفعت رأسها وارتمت على شفيتها ابتسامة مستحبة وقالت
فى حياء لذيذ :

- لأستطيع .. انى أخجل أن أقصه .

- أين كنا ؟

- فى حديقة دارنا ، وقد أتيت تسأل عن عنوان مجهول ..
فعرفتك ، وادعيت أن عنواننا هو ماتريد ، وتحايلت على ادخالك ..
وجلست معى فى الأرجوحة الكائنة أسفل حجرتى والتي تعودت أن أقرأ
فيها كتبك ، وعندما اعترفت لك بخدعتى قلت انك تعرفها وأنك تريدنى
أنا ، وكان الليل مخيما ، والسكون سائدا ، والقمر مطلا ، وجلسنا نقرأ
سويا .. ثم أدبرت لك الموسيقى .. التى كنت أطلب منك فى رسائلنى
سماعها . وسألتك أن تنهض لترقص معى .

وصمتت مطرقة برأسها ، فعدت أتساءل :

- وبعد ؟ أكملى الحلم .. حتى أحققه لك .

- لا أستطيع .

- أنهضت معك ؟ ..

- وأشارت برأسها :

- أجل .

- وأمسكت بيدك ؟ ..

ومددت يمينى فأمسكت بها كفها ، ثم عدت أتساءل :

- وضممتك يدي ..

وأحطتها بذراعى الآخر فى رفق روجدتها تغمض عينيها
كالمستغرقة فى حلم ، وهى تشير برأسها إشارة خفيفة (أجل) .

وفى صمت وضعت شفتى على شفتيها فى مسة خفيفة وبدا لى
وجهها فى الظلام كأنه وجه قديسة . ومضت برهة قبل أن تفتح عينيها
المغرورتين وتهمس فى لهجة ذائبة :

- لست أدري كيف أشكرك .. ما ظننت أن حلمى سيحققه
الله بمثل هذه السرعة .

وافترقنا ليلتذاك ، وعدت وأنا محمل القلب بأجل ما حمل قلب
بشر من حب .

واستمر الحب بيننا يزداد على مرّ الأيام .. حب حقيقي كاعنف
ما يكون الحب وأحرّ ما يكون الهمام ، وانكشمت رسائل المعجبين بعد
أن تركز كل ردّي على رسالة واحدة .. حارة ملتهبة .

وقد يبدو الحب غير متكافئ الكفتين ، وقد يثير الدهشة
والعجب ألا يسقط ماهرا محنكا خبيرا بالنساء مدرعا بتجاربه ضد فتنتهن
سوى طفلة بريئة عاطلة من كل قدرة وخبرة .. ولكنى أعتقد أن هذا
الشيء يجب ألا يبعث على الدهشة .. فلست أرى هناك مقاييس معينة
يمكن أن نخضع لها الحب .. بل يبدو لى أن المسألة على النقيض ،
وأن أخطر أنواع النساء ، وأشدهن تأثيرا على الكتاب والفنانين وأصحاب
التجارب هن أشدهن سذاجة وبراءة وبساطة .

على أية حال .. لست أجدها هناك ما يدعو للمناقشة ، أو التبرير
أو الاعتذار .. فالأمر قد وقع .. ولم يكن هناك مفر من التسليم بالواقع .
وبدأت أدبر أمري وأنظم حياتى على أساس حالتى الجديدة .. حالة
إنسان محب جاد فى حبه مخلص لمن يحب .

وبدأت بعد عمر طويل من العبث واللغو .. تصيبني حالة من
الزهد والقناعة .. وتساقطت الرفيقات من حولي كما تتساقط أوراق
الشجر .. واستطاعت الفتاة الصغيرة أن تدفع عني من الخطايا ما عجزت
عنه نذر السماوات وعظمت الرسل .

وبلغت بى الجدية فى مشاعري الى الحد الذى هانت على فيه
حريتى .. ولم يعد الزواج فى نظرى مصابا يتحتم تجنبه وبلية يجب
اتقاؤها ، بل وجدت نظرياتي فى الزواج تنقلب رأسا على عقب واذا
بتفكيرى ينتهى الى أنه خير وسيلة للاستقرار والطمأنينة .

وكنت أذهب للقاء فى كل فرصة تسنح لى .. صيفا وشتاء . ولم يتعد اللقاء بيننا صخرة الشاطئ أو ركننا فى أحد مقاهيه .. ولاتعددت علاقتنا .. مسة الشفاء .. التى حققت لها بها أول حلم .

وبدأنا نظرق حديث الزواج طرقا خفيفا ، وحاولت هى تجنبه فى أول الأمر ليقينها مما تعرفه عن آرائى وطريقة حياتى أنى أكرهه .. ولقناعتها بما كان بيننا .. وعدم محاولتها التطلع الى تجاوزه أو الطمع فى أكثر منه .

وزاد حديثنا عن الزواج والعائلة ، وربة البيت والأولاد فى لقائنا ورسائلنا ، حتى انتهى الأمر بيننا الى قبوله كفكرة ، ثم تأكيده وتحديده كأمر واجب منته .

ولم يد لنا اندفاعنا فى الحب .. اى نوع من انواع الموانع تقف امام رغبتنا فى الزواج .. لا ارادة اهل ، ولا فارق سن ، ولا شىء ابدا .. كل ذلك كان حصى صغيرا امام تيار حينا .

وحملنى القطار اليها ذات ليلة .. بعد اتفاق على لقاء يتبعه تقدم لطلب يدها .. وجلست فى عربة القطار اضيع الوقت بمراجعة مقال وبضعة بروفات ثم اعدتها الى الحقيبة واخرجت بضعة الرسائل التى تسلمتها قبيل الرحيل ولم يسمح لى الوقت بفضها .

ولم اجد بالرسائل جديدا .. نفس الطلبات ونفس الأسئلة ونفس المشاكل .. حتى توقفت امام احداها ومررت بصرى بخفة على بضعة الأسطر الأولى .. ثم وجدتنى اتمهل وتمعت فى القراءة وقد تملكتنى الدهشة .

انى أذكر الرسالة كلمة .. كلمة .. لقد كانت كما يلي :

(لا أريد أن أثقل عليك بكلام كثير لا أجد فى النفس الصبر عليه ولا الجهد له . كان يجب أن أكتب اليك من قبل لامنحك من الاستمرار فى الطريق الذى انتهى بك الى ما وصلت اليه ، ولكن لم يخطر لى ببال أن العلاقة مستمرة ، وأن طريقا واحدا مازال يضمكما سويا ليؤدى بكما الى هذه النهاية المذهلة . كل ما رأيته هو رساله منك اليها تبينت منها أنها رد على احدى رسائلها ، وأحسست برجفة عندما قرأت امضاءك .. ولم املك أن أزجرها عنك ، وأمرها بالكف عما سميت عبث اطفال) .

(ما أحقنى .. كان يجب أن أقول لك أولا من أنا .. ولكنى افترضت أنك تعرفنى كما أعرفك ، أنا الآن - ام كوثر - وأظن هذا تعريفا كافيا بالنسبة لك .. لانك لاشك تعرف كوثر جيدا .. تشهد على ذلك كومة رسائلك الملتهبة اليها) .

(أظن كوثر قد حدثك عنى .. وأظنك قد كوّنت فى ذهنك صورة معينة لى .. وان كنت أعتقد أنه لايمكن أن تنطبق بحال على الصورة الواقعة لى .. والتي يمكن لو قلبت اليوم ذهنك أن تجدها قابعة ضمن عشرات أو مئات القابعات فيه) .

(لست أدري ما اذا كنت أستطيع تذكيرك بنفسى .. وان كنت سأحاول .. فاذا فشلت فيجب عليك أن تأخذ كلامى قضية مسلما بها ، فأنا أذكرك جيدا ، لأنك تمثل لى خطيئة واحدة فى حياتى .. بينما أمثل فى حياتك واحدة من آلاف الخطايا .

(لقيتك أول وآخر مرة وأنا حديثة عهد بالزواج فى زيارة لى بالقاهرة . وكنت شديدة التأثر بك وبكتابك .. تأثراً قد يبلغ حد البولہ . ودعوتنى الى زيارتك لتناول الشاى .. ولم أستطيع رفض الدعوة .. وأنا أجد فى لقائى بك شبه معجزة .. وكانت لم تزل أمامى بضع ساعات على القطار .. وذهبت معك بعد أن دعتنا واسطة التعارف .

(وضمننا واياك بيتك الساحر لبضع ساعات . لا أعتقد أنك تذكرها .. أو تذكرها كعينة لمئات الساعات المشابهة ، ومع ذلك فما زلت أذكرها أنا بعد كل السنين الطوال كأنها حدثت بالأمس ، أذكر أريكة الركن الخضراء المنخفضة واللهب المتراقص فى المدفأة والأشعة الهادئة المنبعثة من المصباح الأحمر والموسيقى الناعمة .. أذكر كل هذا جيداً ، وأذكر اللوحة فوق المدفأة وأذكرك ترنو التى فى لهفة وأذكر استسلامى بلا مقاومة .. وأذكر بعد هذا أمتع ساعات عمرى .

(وتركتك بغير ندم والى غير رجعة ، وأحسست أنى قد ذقت طعم شىء .. كان يتحتم على أن أذوقه ، واعتبرت المسألة تجربة أولى وأخيرة فى سبيل ما يسمونه بالخطيئة .

(ونسيت كل ما كان من أمرى معك .. وصدت نفسى عن القراءة لك خشية أن يدفعنى الحنين اليك مرة أخرى .. وأنجبت ابنتى الوحيدة .. ومرت بى السنون وأنا مثال للزوجة الصالحة والأم المثلى التى لم تشب حياتها شائبة .

(وعندما بدأت ابنتى القراءة لك لم أحاول أن أصدها فقد كنت أجذك - مع السنين التى كرت ، والبعد الذى طال - أناى من أن تكون مصدر خطر حتى وجدت رسالتك اليها وعلمت أنها كتبت اليك فنهيتها عنك .

(ومرت الأيام .. وأنا آمنة مطمئنة .. لم يطف شبحك بذهني مرة واحدة .. حتى وجدت بالأمس .. كومة رسائلك إليها .

(عجيب هذا الذى حدث ! كيف ؟ ! ومتى ؟ ! ولماذا ؟ ما الذى دفعك إليها ؟ وما الذى دفعها اليك ؟

(ولقد رأيت صورتك ، وقرأت رسائلك ، وعجيب فى نفسى كيف استطعت أن تحتفظ بأشراق وجهك وفتوة روحك ، ونضارة قلبك .. ان السنين السبعة عشر لم تغير فيك كثيرا .

(وأدركت ببساطة كيف أحبتك .. ولم يصعب على بالطبع أن أدرك كيف أحبتها .

(ان المسألة فى نظرى لا غبار عليها لاسيما وقد كنت معها - على غير ما كنت مع أمها - مهذبا أمينا .. وقصدت وإياها الى الطريق الصواب وتعاهدتما على الزواج واتفقتما كما أرى فى آخر خطاب على أن تتقدم لطلب يدها .
(كل هذا معقول .. ولكن ثمة أمر بسيط أريد أن أنبهك اليه .
أمر قد تكون خالى الذهن منه .

(لقد حملت فى كوتش فى الشهر الذى لقيتك فيه ، ولست أستطيع أن أجزم بالضبط من يكون أبوها أنت أم زوجي ؟ ولكن الشيء الواضح الذى أستطيع أن أجزم به .. هو أنى لم أحمل بعد هذا من أيها أبدا .

(أنا لا أستطيع أن أجزم بشيء .. وقد يكون أبوها هو فعلا أبوها .. وقد يكون أصيب بالعقم بعد ذلك .. أجل قد يكون ذلك ، وقد لا يكون .

(وانى لم أفكر فى المسألة سوى اليوم ، وكوم الرسائل أمامى
ومن ورائه شبحك يتقدم لطلب يدها .. والشك يكاد يقتلنى .

(لماذا ؟ من بين بقية بنات الأرض ، يقع اختيارك عليها ؟ ! .

(لقد عرضت عليك الأمر ، وسواء ذكرتنى أم وجدتنى ضائعة
فى غمار مغامراتك .. فثق أن ما قلت هو الحق .

(وإذا استطعت بعد كل ما قلت أن تقاوم الشك فتقدم لطلب
يدها .. انى فى انتظارك .

وانقضت الصاعقة لتركنى حطاما عاجزا عن الحراك والتفكير ،
وأطبقت على رأسى بكتفى أمنعه من الانفجار والتطاير .. وأحسست
بصوت عجلات القطار المنتظمة كأنها مطارق تهوى على وأحسست
من تباطؤ سير القطار بأنه يوشك أن يصل الى المحطة .. وودت لو
استطعت أن أوقف القطار أو أعيده من حيث أتى .. ولكن أضواء المدينة
بدأت تتواتر مؤذنة بالوصول .

ووجدت نفسى قد جمدت فى مقعدى كأنى قد أعجزنى شلل ،
ومر الوقت بطيئا وأنا جائم لا أتحرك حتى دق الجرس وعلا الصفير ،
وبدأت عجلات القطار تدور وأخذ القطار يتباعد فى ببطء .

وعلى ضوء أحد المصابيح لمحت وجهها يبحث فى لهفة بين
النوافذ وفجأة التقت عيناها بعينى وأنا متصلق بالمقعد فى جلستى الصامتة
العاجزة فهتفت باسمى فى صرخة مجنونة وانطلقت تعدو وراء القطار .

وأخذت أرقب شبحها يتضاءل وصرخاتها باسمى تخفت رويدا
رويدا حتى غلبتها ضجة القطار وابتلعها الظلمات .

وساد الصمت .. صمت أليم موجه .. ومد طرف لسانه يلحق
دمعة ساخنة مالحة .. انسابت حتى شفثيه .. ولم تستطع صاحبه أن
تكبح جماح دمعها .. تركتة ينساب في غزارة .

وكان هو أول من تملك نفسه .. ورفع اليها بصره وقال في
مرارة :

- ألم أقل لك .. ان الإيجار خير من الامتلاك .

★ ★ ★

لَيْلَتِي حُسْبِي

كان يكره نفسه !!
يكره منها ذلك الحذر والتردد والضعف ، والخوف كلما
أضحت محطاً للأنظار .

لم تكن القدرة هي التي تنقصه .. ولكنها كانت الثقة .. كانت
الجرأة والإقدام .

انه لم يكن عاجزاً ولا ضعيفاً .. وكان يملك الجهد والقدرة ،
ولكن هذه القدرة لم تكن تستطيع أن تتعدى النطاق الضيق الذي يقوم
فيه بالتدريب والمران حيث يشعر أنه ليس هناك من يرقبه ، وأن عمله
لا يتوقف عليه نتائج حاسمة أو كسب خطير مرتقب .

فاذا ما خرج من ذلك النطاق الضيق وأحس بالأنظار تتطلع إليه ..
وبأن على جهوده تتوقف نتائج خطيرة لنفسه أو لفريقه أو لمدرسته ..
طارت من نفسه الثقة .. وضاعت القدرة وبدد الجهد .. وتملكه
الاضطراب والخوف .. وتمنى لو استطاع الفرار من الميدان .

تلك كانت شيمته فى كل عمل يؤديه .. سواء أكان عمله ذهنيا أو جثمانيا .. وسواء أكان امتحانا دراحيا أو مباراة رياضية .

ما استطاعت نفسه أبدا أن تنصفه أمام الغير .. بل كانت تخذله فى كل مباراة وامتحان ومسابقة .

واتهمه رفاق الطفولة والصبا بالجبن .. واقتنع هو بتهمتهم .. ولم يكن يملك غير ذلك .. وكل الشواهد .. والظواهر تدل عليها وتؤكد وجودها .. وهو يشعر فى قرارة نفسه .. انه حقا يفتقد الثقة والجرأة والشجاعة والإقدام .

ودخل الكلية الحربية .

والكلية الحربية - لمن لايعرفها - أشبه بدوامه فى أيامها الأولى .. التى يطلقون عليها .. أيام المستجدين .. والطلبة فيها أشبه بكوم من القش تدور به الدوامه .. لايميز فيها واحد عن غيره .. ولايعرف فيها الطالب رأسه من قدمه ولا بداية يومه من نهايته .. بل تظل الدوامه تلف وكأنها تلعب به (دوخينى يالمونة) فلا تتركه عند نوبة نوم الا وقد أضحى جسدا هامدا لاتبعث فيه الحياة الا نوبة الصحيان .

وأضاعت رهبة الكلية ومشقتها والدعر الذى يشيعه صف الضباط فى نفوس المستجدين .. والبقية الباقية .. من الثقة التى كان يحتفظ بها لنفسه .. فى نطاقه الضيق .. عندما كان يشعر أنه وحده ليس هناك من يرقبه .. لأنه لم يشعر قط فى الكلية أنه وحده .. وأنه ليس هناك من يرقبه حتى فى ساعات النوم .

ووجد نفسه .. يتحرك فى دوامة الكلية ضالا نكرة مجهولا .. كأنه فرد فى قطيع متشابه لايميزه مخلوق ، ولايشعر به انسان .

حتى أحس ذات يوم بأنه ليس مجهولا تماما .. بل ان هناك -
لدهشته الشديدة - من يعرفه ويميزه .

لم يكن مخلوقا ذا بال .. ولا مكانة ولاحيثية ، ولكنه مع ذلك
سرّه أن يميزه .. والإنسان النكرة المجهول .. لا يدقق كثيرا .. في حيثية
من يمنحه شرف التمييز بين القطيع المتشابه المجهول .

ومع ذلك فلم تدم فرحته بالتمييز طويلا .. عندما اتضح له أن
الرجل .. قد منح هذا الشرف جميع زملائه من الطلبة .. وأنه قد ميز
القطيع فردا .. فردا .

ولم يمنع ضياع فرحته بالتمييز .. وسخطه على الرجل الذي
أشرك الكل في التمييز والمعرفة واعجابه المفرط بذكائه ودهشته الشديدة
من قوة ذاكرته .

كان معقولا أن يميز الرجل صف الضباط فهم قلة معروفة مسيطرة
مميزة .. وكان معقولا أيضا أن يعاونه بعض الذكاء المفترض - رغم
أميته وتقدم سنه - على معرفة طلبة القسم المتوسط فهم لايزيدون على
بضعة عشر طالبا وقد مضى عليه عام وهو يبيع لهم (الاسباتس والسيدر
وبقية أنواع الكازوزة) .

كل هذا كان معقولا .. أما أن يميز الرجل دفعة المستجدين
بأكملها وقد بلغت الخمسين .. ولم يمض عليها أكثر من شهر في
المدرسة .. فقد كان أمرا بلاشك يستحق كل اعجاب وتقدير .

ولقد وضحت قدرة الليثي (اسم الرجل) لصاحبنا عندما اندفع اليه
أول مرة وقد استقر بصندوقه المليء بمختلف أنواع الكازوزة تحت

السلم الحجري المفضى الى عنابر النوم يرجوه أن يحتفظ (بالبل) حتى يأخذه منه عقب انتهاء الحصة .

(والبل) لمن لا يعرفه من غير العسكريين ، هو مجموعتان من الأكياس المزورة توضع فيها الطلقات وتشدان الى الكتفين بحمالات والى الوسط بحزام ويلبسهما الطلبة فى طوابير التمرين على البندقية .

ولم يكن صاحبنا وحده الذى اندفع الى الليشى يرجوه الاحتفاظ بالبل ، فقد اندفع بعض أفراد الفرقة يرجونه نفس الرجاء اذ كانت الحصة تقع بين طابورين ، ولم يكن لدى الطلبة وقت للصعود الى العنابر لوضع البل والهبوط الى الفصل ، ثم الصعود لإحضارها مرة أخرى بعد الانتهاء من الحصة للبسها فى الطابور التالى ، اذ كان المفروض ألا يدخلوا الحصة بها ، وكان الزمن بين الحصص لايكفى للصعود الى العنابر والهبوط منها .

وكان أكثر ما يقلق صاحبنا وهو جالس فى الحصة ، هو ما يخشاه من خلط البل .. ولكن لم تكد تنتهى الحصة ويذهب الى الرجل حتى وجده يسلم كل واحد بلة ، بابتسامة مرحبة وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

وبدا له أن قدرة الرجل على تمييزهم سببها قلة عددهم ، وأنه استطاع ببعض التذكرة أن يعي صورة لكل منهم ويعرف أين وضع بله ، ولم يعجزه بعد ذلك أن يسلمه له .

ولكن الأمر تكرر بعد ذلك ، واستقرب الطلبة كشك الليشى انكائن أسفل السلم .. وازداد عدد الطلبة الذين يحتفظون بالبل عنده .. ومع ذلك فلم تخن الرجل ذاكرته .. بل كان يأخذ من كل منهم بله ،

بإتسامته المرحبة ، فإذا عاد لأخذه سلمه له بلا أدنى تشكك .. بل كان يبدو وكأنه يعرف كلا منهم معرفة وثيقة .

ومرت ايام المستجدين بصاحبنا وهو يعلو مع القطيع في الدوامة .. نكرة مجهولا .. لا يميزه أحد .. ولا يحترمه مخلوق .. سوى عم الليثى .

حتى بدأ الخروج في عطلات الخميس والجمعة ، فإذا به يجد نفسه مميزا ، ومعروفا .. بل وأكثر من هذا مما لا يجسر على تحديده بالضبط .. من مخلوق .. أجل وأخطر .. من الليثى .

كان مخلوقا ناعما رقيقا .. وعلاقته بالمخلوقات الناعمة الرقيقة .. كانت كلها فيما مضى .. علاقة من طرف واحد ، فما كانت خشيته ووجله وخوفه واضطرابه ، وحاجته الى الثقة والإقدام تهىء له أكثر من التطلع والتمنى والهيام المطوى في الصدر والجوى الخبيء بين الضلوع .

وكان المخلوق الناعم الجديد الذى أحس به وميزه ، وربما أكثر من ذلك .. هى مديحة صغرى أختى رأفت أعز أصحابه فى الكلية .

رآها أول مرة فى دار صاحبه ، وقد دعاه ذات خميس لسماع أول اذاعة لأنشودة عبد الوهاب (كليوباترا) .

والصوت منبعث فى سكون الليل .. بشعره الرقيق ، ولحنه العذب ، والناعمة متكئة بذقنها على كفها ومرفقها على ساقها ، وقد مالت فى مقعدها الى الأمام مأخوذة بالإصغاء .. وقد انعكس ضوء المدفأة الأحمر المتراقص على جانب وجهها فبدأ رقيقا رائعا بطرف أنفه الأشم وفمه الرقيق المضموم .

وهو موزع المشاعر بين اللحن المنبعث والوجه المصفى وكل ما حوله من تعاون على ارهاق حسه والهَاب عواطفه والصوت يردد :

(يا حبيبي ! هذه ليلة حبي آه لو شاركتني أفراح قلبي)

وتنهيدة رقيقة تنبعث من صدر الناعمة الحاملة المصغية النشوى .

ولم يكن هناك أعنف من هذا هجوما على قلب ، ولا أحر من ذلك دعوة الى حب .

وأحبها صاحبنا .. بكل ما يملك من عجز وخشية وضياح للثقة .. وفقدان للجرأة والإقدام ، ومَرَّت أيامه حثيثات سரா .. وهو مغرق في حبه السلبى ، وعاطفته المستسلمة العاجزة .

وفي المدرسة بدأت طبيعة خلقه تظهر أشد ما تكون وضوحا وجلاء .. قدرة فى المran والتدريب .. وعجز فى المباريات والمسابقات .. قوة بينه وبين نفسه وضعف أمام المشاهدين ..

وفي كل مرة يحاول التماسك والتجلد والاحتفاظ بثقة فى نفسه وقوته وقدرته .. ولايكاد يشعر بالأنظار تحيط به ، ويحس بأن عليه تتوقف نتيجة المباراة حتى تتسارع دقائق قلبه ، وتتوتر أعصابه ويفقد كل سلطان على نفسه .. ولا يبقى منه الا انسان عاجز يكاد يخر جزعا واعياء .

وحلّ موعد الحفل العام الذى تقيمه المدرسة آخر السنة وكان أكثر مايشاه هو حضورها لمشاهدته .

وبدأ الحفل وهو يعلم أنها فيه .. ولكى لانظلمه نقر بأنه بذل أقصى مايمكن أن يبذله مخلوق للسيطرة على أعصابه والاحتفاظ بقدرته

وبثقته فى نفسه .. ولكنه رغم ذلك كان فى مباريات الحفل مثلاً للعجز والضعف .. حتى لقد كان فى معظمها السبب الأول لهزيمة فريقه .

وتسلل من الحفل وحيداً .. يائساً .. منهزماً .. وقادته قدماه الى أسفل السلم الحجرى .. الى كشك الليشى .

وتلقاه الرجل هاشاً مرحباً .. وقدم اليه زجاجة (سيدر) مثلجة يتصاعد من فوهتها الدخان ، ويعلو صدرها ندى الرطوبة .

وجلس يشرب فى صمت مطرقاً حزينا .. وحانت منه التفاته الى العجوز البادى الرضا والقرارة .. وطاف بذهنه أن يسأله سؤالاً طالما تاق الى الاستفسار عنه .. وهو كيف يحفظ الوجوه بمثل هذه السهولة .. وكيف يميزهم فرداً فرداً ، ويرد اليهم حوائجهم التى يحتفظ بها دون خلط ولا خطأ .

ورفع رأسه ووجه السؤال الى الرجل .

وابتسم الرجل .. ثم اتسعت ابتسامته حتى كشفت عن بضع أسنان معلقة فى لثته .. ثم انطلقت منه ضحكة طروب وأجاب :

- تريد أن تعرف حقاً ؟

- أجل .

- على أن تبقى سرا ؟

- أجل .. أجل .

- انى اميز كلا منكم بظاهرة فيه .. فى وجهه .. فى جسده .. فى صوته .. فى خلقه .. فى أى شىء مميز به .. وأسميه بهذه الظاهرة .. فهذا مثلاً ذو الأنف الكبير .. وهذا الطويل وآخر ذو

الرأسين .. وآخر الجعجاع .. وآخر الأخرس .. والحمار .. والعقل ..
والأنيق .. والمفشكل .. والدَّهْل .. والحدق . هذه كلها أسماء أميزكم
بها ولا أخطئها أبدا .. فإذا ما أعطاني أحد منكم إحدى حاجياته ..
دخلت لوضعها في الكشك وأرفقت بها ورقة صغيرة كتبت عليها الاسم
الذي أميزه به .. فإذا أتى لأخذها رددتها اليه بعد أن أمزق الورقة دون
أن يرانى .. وهكذا أبدو كأننى أعرفكم جميعا .. وأرضى غروركم
جميعا .

ورغم ما كان بصاحبنا من حزن وضيق فقد أطربته اجابة
الرجل .. وكان السؤال الطبعي الذي يجب أن يسأل بعد ذلك ..
والذي يرضى به خب استطلاعه هو (وأى ظاهرة ياترى سميتنى بها ؟ .
ولقد أوشك أن يسأله لولا أن أضاع الفرصة فوج من الطلبة ..
أقبل متدققا على الكشك وحال بينه وبين السؤال .

ومرّت أيام آخر .. وتخرجت دفعته .. وهو هو .. لا يتغير طبعه
ولا تبذل حاله .. حتى كلمة جب .. لم يجسر أن يقدم على قولها ..
لمن ولهت قلبه حبا .

ولقد فكر فى خطبتها .. ولا سيما بعد أن خطبت أختها الكبرى
وعقد قرانها ، ولكنه يتجاوز نطاق التفكير .. لعجزه عن أى عمل
ايجابى ، وفقدانه لكل قدرة على الإقدام على شىء ، وضياح الثقة من
نفسه .. وأكثر من هذا وذاك ، احساسه بأنها تعرف فيه ذلك العجز
والجين .. ألم يتأكد لها أمره من يوم الحفل ؟ أتراها تحتفظ له بعد
ذلك بأى احترام أو حب .

ورحل مع وحدته الى فلسطين ، ولم يكن فى قرارة نفسه يخشى الحرب فى حد ذاتها ، ولكن خوفه كان من نفسه .. كان يخشى أن يتخذله ، كما سبق أن خذلته ، فى كل عمل أقدم عليه .

ومرت بضعة شهور وهو محتل بجنوده أحد المواقع ، دون أن تسنح فرصة الاختبار أعصابه ، وامتحان قدرة نفسه .

وفى ذات ليلة علم أن العدو قد نفذ من الخطوط وأنه قد احتل إحدى التباب المشرفة على خطوط المواصلات وأنه يهدد بعزل كل المواقع .

وحلت اللحظة الرهيبة ، واستدعى لتلقى الأوامر لكى يسترد بجنوده الموقع الذى ملكه العدو .

وإذا كانت أعصابه .. قد خائنه فى ملعب كرة .. أو فى ساحة قفر .. أو فى حلقة ملاكمة .. فقد كان أولى بها أن تخونه فى ميدان قتال .. ولقد خائنه فعلا .. فقد عاد الى مواقعه .. متوتر الأعصاب .. خافق القلب .. شارد الذهن .. ولم يكن هناك مفر من تنفيذ الأمر .. فان النكوص مستحيل .. ولم يسعه الا أن يلم جنوده .. ويبدأ الهجوم .

وأجرى المراحل الأولى للهجوم .. بطريقة آلية .. وهو يشعر أن الذعر قد ملك عليه نفسه ، وأن زمام أعصابه يوشك أن يفلت منه .. وأنه لولا بقية من تماسك لأسرع بالفرار .

وبدأت المراحل الجدية للهجوم .

واستمرت قواته تتقدم ، وهو يسير مع الرئاسة فى المؤخرة ، وما زالت نفسه المنهارة ترتجف وتنتفض .

وانطلقت قذيفة من مواقع العدو .. فأطاحت ببضعة من جنوده
وأبصر بعينه أعضاءهم تتناثر فى الهواء كأنها رشاش الماء .

وتوالى القذائف .. ودوت الانفجارات .

وأحس بالدم يجرى فى عروقه حارا .. وبمراحل الغضب
والانفعال تغلى فى صدره .

وفجأة .. شعر بأنه فقد نفسه .

أجل .. لقد فقدها تماما .. بذعرها وخوفها .. وتفكيرها ..
وخشيتها .. وانطلق وسط جنوده .. بلا وعى .

وهو لا يذكر جيدا ما حدث .. فقد كان حقا يتحرك بغير وعى ..
كل ما يذكره هو أنه استمر يندفع بجنوده حتى مواقع العدو .. ثم يذكر
صوت انفجار بجواره .. ضمن بقية الانفجارات التى كانت تدوى
حوله .

وقد عرف فيما بعد أنه أصيب بشظية أصابت ساعده ومزقت
كتفه .. ولكنه يؤكد تأكيداً جازماً أنه لم يشعر بها ساعتذاك .. وأنه
لم يحس من إصابتها أى ألم .

ورحل فى قطار الجرحى الى مستشفى العجوزة .. وأدهشته أن
يسمع ممن حوله أنه قام بأحد أعمال البطولة الخارقة .. وأنه كان
شجاعاً .

ولم يستطع بالطبع أن يكذبهم .

ماذا يقول لهم ؟ أيقول أن كل ما حدث هو أنه فقد نفسه ؟ .
أيقول لهم أن أعمال البطولة .. يقدم عليها الإنسان بلا شعور .. وأنه
يفعلها لأنه يجد نفسه لا يستطيع أن يفعل سواها ؟

لا .. لا .. يجب أن لا يخذلهم ويحرم نفسه من التقدير
والاعجاب اللذين طالما حرم منهما فيما مضى .

وخرج من المستشفى .. وكل ما يتوق اليه .. هو لقاءها .. كان
يريد أن تراه كما يراه الناس .. فى صورته الجديدة .. كان يريد أن
يزيل من نفسها الصورة الضعيفة .. العاجزة .. الخائرة .. والتي يتوهمها
عالقة بنفسها .

انه بحالته الجديدة .. يستطيع أن يقدم على خطبتها وأن يوح
لها بمشاعره .. وهو يجد فى نفسه الجرأة على ذلك .

وفى طريقه الى باب المستشفى التقى بأحد زملائه الذى أتى
لزيارته ولم يكذب يراه خارجا حتى هتف به :

- حمدا لله على سلامتك .. ان رأفت (سيخبط مشوارا على
الفاضى) .. لقد لقيته الآن .. فى شارع فؤاد .. وأنبأنى أنه سيزورك ..
على أية حال سيسر كثيرا لخروجك اليوم .. لأنه كان يود أن تحضر
الاحتفال بعقد قران شقيقته فى نادى الضباط .. لقد دعوا عبد الوهاب
لإحياء الليلة ، وهو يعلم أنك تحبه .

ولم يسمع من كل ما قال صاحبه .. سوى جملة (عقد قران
شقيقته) .. لقد كانت السهم الذى مرق فى صدره ، والأنفجار الذى
دوى فى أذنيه .

أبعد كل هذا .. يفلت الطير ؟ يالها من سخرية !

وانطلقت العربية به تعدو على غير هدى .. وعندما عاد في النهاية الى البيت .. أكدوا له وقع المصاب بقولهم : ان رأفت أتى لدعوته .. لحضور قران شقيقته .. فى نادى الضباط .

وأقبل الليل .. وبنفس يائسة منهارة ، وذهن شارد ذاهل .. ارتدى ملابسه ليشتيع أمله .. الى مثواه الأخير .

واجتاز بعربته كوبرى أبو العلا ، وهو لا يكاد يبصر ما أمامه .. وانطلق فى شارع الزمالك ثم دلف من بوابة النادى ووضع العربية فى حشد العربات المصطفة .

وبدا النادى مضيئا متلألئا ، ونغمات الموسيقى تتردد فى أنحاء الحديقة ، وأحس من كل تلك المظاهر امعانا فى السخرية .. ووجدوها تنعكس فى نفسه وكأنها النواح والعيول .

واجتاز مدخل النادى ، وعلى يسار المدخل أبصر الغرفة الصغيرة التى تحفظ فيها الكابات والعصى والمعاطف ، ومد يده فرفع الكاب من فوق رأسه وسلمها الى الحارس العجوز الواقف وراء الحاجز الخشبي ، ولم يتمالك نفسه من الدهشة عندما وجد الحارس هو نفسه الليثى بائع الكازوزة فى الكلية .

وسيقه العجوز الى التحية والترحيب ، وتسلم الكاب دون أن يعطه رقما يتعرف به عليها عند استردادها .. ولم يستطع هو أن يجزم بحقيقة ترحيب الرجل به .. اهو قد عرفه حقاً وميزه .. منذ ان كان طالبا .. أما تراها مجرد مخادعة كعاداته ، وأنه لا يلبث أن يكتب صفته المميزة .. ويضعها فى الكاب .

على أية حال لم يملك الا أن يبادل الرجل ترحيبا بترحيب ،
ووقف ينتصت مجاملا الى بعض أحاديثه عن أيام المدرسة ، واستطاع
الرجل ببشاشته وافراطه فى الترحيب أن يقنعه بأنه يذكره تماما .

وخطا الى الداخل وكان المكان يعج بمن فيه .. فتسلل بين
المدعوين واتخذ لنفسه ركنا قصيا .. وجلس يرقب المكان فى صمت
وشرود وبنفسه احساس من يجلس فى سرادق عزاء ينتظر خروج النعش
بين آونة وأخرى .

وفجأة بلغ مسامعه هتاف باسمه ، وأصابت من الصوت رجفة
شديدة .. فقد ميز فيه - على طول الفراق - صوتها .

وتلفت فاذا بها تقف بجواره ترنو اليه بنظرات ملؤها اللهفة
والشوق .

ونفض يحييها فى كلمات متحشجة وهو يشعر بغصة فى حلقه
ويسألها قائلا :

- كنت أظن أنى سألقاك فى ثوب العرس ؟

وأجابته فى دهشة :

- ثوب العرس .. لى أنا ؟

- أجل .. ألن يحتفل اليوم بعقد قرانك ؟

ولم تستطيع أن تكبت ضحكة انطلقت من شفتيها :

- .. قرانى أنا .. انه قران أختى سميحة .

- سميحة ! ولكنى أعلم أن قرانها قد عقد قبل أن أسافر
فلسطين .

- لم تحدث قسمة فافترقا قبل الدخلة وقد خطبت ثانية واليوم
عقد قرانها الثانى .

وأحس بأن الميت الذى أقبل لتشييع جنازته .. قد عاد الى
الحياة .. وخيل اليه أنه يوشك من الفرحة .. أن يجن .

وسنحت الفرصة ثانية .. ولم يكن هناك سبيل للتردد والانتظار
والخشية والرهبة .

وهمس بها وأنفاسه تتلاحق وكأنما يخشى أن تضيع الفرصة مرة
أخرى :

- اسمعى يامديحة .. أريد أن أحدثك على حدة فى أمر هام
يخص كلينا .

وتلفت حوله ثم جرّها من يدها قائلاً :

- ما رأيك فى جولة قصيرة بعربتى على النيل ؟

- الآن ؟

- أجل .. هيا بنا ننسحب دون أن يحس بنا .

وتسللا من الصالة المزدحمة ، وقبل أن يجتازا الباب مدّ يده
فتناول الكاب من الليثى وهو يحس أنه يوشك من فرط السعادة أن
يطير .

وشيعه الليثى كعادته بألفاظ الترحيب والمعرفة ، وبعد لحظة
كانت العربّة تنطلق بالإثنين وقد سرى فى الجو صوت عذب يلاحقهما
متباعدا خافتا رويدا :

(يا حبيبى هذه ليلة حبيبى آه لو شاركتنى أفراح قلبى)
وفى الليل عاد الى بيته وهو يشعر بالسكينة تملأ قلبه والسعادة
تفعم روحه .
وقذف بالكاب على المقعد وخلع ملابسه ، وهو يدندن بأغنيته
المحبوبة .
وهمّ باطفاء النور عندما أبصر فى الكاب ورقة .
يا للرجل المخادع .. انه مازال يتبع نفس الوسيلة .. ترى ماذا
كتب عنه ؟
لقد آن له أن يعرف صفته المميزة عند الرجل .
ومد أصابعه فالتقط الورقة وقرأ بها :
(الرجل الذى كان جباناً) .
وانطلقت منه ضحكة طروب وهتف لنفسه : الحمد لله على أنه
(كان) .

★ ★ ★

حديقة في الظل

لم تكن مجنونة بمعنى الكلمة .. ولكن كان بها مظاهر شذوذ عجيبة ..
تكاد تجعلها في عداد المجانين لولا فرط رقتها وهذوئها وسكبتها .

لقيتها أول مرة في دارها خلال زيارة لها بقصد استئجار الدار
في الصيف ، وكانت تقطنها مع أب عجوز وهن العظم منه فهو لا يكاد
يفادر مقعده .

وأحببت الدار لقدمها وفساحة حديقته وكثافة أشجارها اذ كانت
احدى الدور العتيقة الكبيرة الكائنة في رمل الاسكندرية بالقرب من
زيزينيا ، ولم يدع لى رخص ايجارها مجالا للتردد ، فسرعان ما
استأجرتها في فترة الصيف ونزلنا في الدار ، وانتقلت الابنة وأبوها الى
جناح أشبه بالسلامك قائم في أقصى الحديقة منفصل عن الدار ..
ومرت بنا الأيام ونحن نستمتع بالدار والحديقة والشاطئ الى أقصى
حدود الاستمتاع حتى لانكاد نشعر بأصحاب الدار أو نبصر لهم وجها
الا في النادر القليل .. ولولا ذلك الطامى العجوز الذى كنا نبصره حاملا

سلة الخضار فى ذهابه وأوبته لما أحسنا أن هناك أحياء يقطنون بجوارنا على قيد خطوات منا .

ولقد كان انطواء الأب العجوز فى داره وقبوعه فى عقرها أمرا لا يستثير دهشا ، فقد كان الرجل من فرط عجزه يكاد يكون مقعدا .. ولكن ما أثار عجبنا هو انطواء الابنة وامعائها فى التباعد والاختفاء .

وظننت بادىء الأمر أن انطواءها مرجعه الى انكبابها على العناية بأبيها ومداومتها على خدمته وقضاء حاجاته .. ولكنى وجدت هذا العذر - بفرض صحته - أمرا مبالغا فيه لأن الرجل لم يكن مريضا .. وكل ما به لم يكن يعدو عجز الشيخوخة .. وما كانت حالته بالتي تستدعى منها أن تهجر الدنيا والناس لتربط نفسها بجواره . وأكثر من هذا ، لقد تبين لى .. فى الأوقات المتباعدة التى ذهبت فيها لزيارة الرجل .. أن الابنة لم تكن ملازمة له .. ولا كانت منكبة على العناية بأمه .. بل انى لم أحس لها وجودا .. أو أرى لها أثرا .. وكان الطاهى لعجوز .. وهو وحده القائم على خدمته المتولى أمره .

كانت الفتاة ولاشك مخلوقة شاذة .. نفورة .. مستوحشة .. ولكن شذوذها لم يكن يعنينا الا بقدر ذلك العطف الذى أثاره فى نفوسنا عليها .. فلقد كنا نراها فى مظهرها مخلوقة حلوة رقيقة .. لطيفة المعشر مستحبة الرفقة .

أقول ان شذوذها .. لم يكن يعنينا فى كثير ولا قليل ، اذ كان شذوذها سلبيا .. لا ضرر منه على أحد .. فقد كنا لانكاد نحس به ولا بها .. حتى حدث ذات ليلة .. وأنا أتقلب فى الفراش مستجلبا الكرى .. أن بلغ مسمعى صوت بكاء أشبه بالأنين .. يحمله نسيم الليل خافتا من الحديقة .

وأصابني الصوت برجفة .. فهو بكاء مفاجيء فى وحشة الليل
وسكونه .. والبيت كما قلت عتيق فسيح .. والحديقة متكاثفة
الشجر .. شديدة الوحشة .. كل ذلك لا يجعل النفس تتقبله بسهولة ..
وبغير فزع .

وعدت أنصت .. مرهف السمع .. حاد الأذنين .. ولكن
الصوت لم يتكرر .. حتى خلتنى واهما .. وخلته مواء قطرة .

وفى الليلة التالية .. سمعت الصوت .. ولم أكن وحدى الذى
سمعته .. بل سمعه نفر غيرى من الأهل الراقدين فى فراشهم .

وأقضى الصوت مضجعى .. فقد أحسست منه بخوف
مزدوج .. الأول خوفى منه كشىء مفزع .. والثانى خوفى من الأهل
الذين سبق أن اعترضوا على سكنى فى مثل هذه الدار الفسيحة العتيقة
الموحشة .. والذين سبق أن توجسوا خيفة من رخص ايجارها ..
ولكنهم لم يملكوا سوى القبول أمام الحاحى .

وفى الليلة الثالثة لم آو الى فراشى .. فقد كرهت أن أسمع
الصوت راقدا مستسلما وصممت على أن أعرف مبعثه .

وهبطت الى الحديقة المتسعة المتكاثفة أجول خلالها . وحمل
الى النسيم رائحة أزهار الياسمين الهندى الذى تكاثف على أشجاره
المكدسة فى الحديقة .

ولم يكن القمر قد اكتمل وكانت الحديقة تسبح من ضوءه
الباهت فى شبه ضباب أغرقها فى غموض ووحشة وروعة .. وأحببت
الحديقة فى منظرها السحرى العجيب .. وأمعنت فى السير والتجوال
بلا رهبة ولا خشية .. حتى سمعت فجأة .. صوت النحيب .

ليالى ودموع أطياف

وفى هذه المرة .. كان جلياً واضحاً محدداً .. لا لبس فيه ولا غموض .

كيف لا .. وقد كان مبعثه على قيد خطوة منى .

وأصابتنى رجفة شديدة .. رغم انعدام عامل المفاجأة فى هذه المرة .. (وعلام المفاجأة .. وأنا ما خرجت الا لأسمعه) ورغم أن مصدره لم يكن مجهولاً .. ولا غامضاً لأننى لم أكد أسمع الصوت حتى أبصرت مصدره . ومع ذلك فقد ارتجفت رجفة شديدة .. بل انى لا أكاد أستعيد الموقف الى ذهنى لأكتبه .. حتى تصيبنى نفس الرجفة .. وأنا جالس أكتب على مكتبى .. بلا ظلمة ولا وحشة .. ولا أنين ولا نحيب .

لقد أبصرت فى مصدر الصوت .. مخلوقاً لفته الظلمة فجعلت منه ما يشبه الشبح .. وكان يقبع على مقعد تحت احدى الخمائل وقد انحنى ظهره واتكأً بمرفقيه على ركبتيه ودفن وجهه فى راحتيه . وأخذ يهتز على نبرات النحيب .

أنا مخلوق عصى الدموع جاف المآقى .. لا تدرى مقلتى عبراتها بسهولة حتى وأنا واقف أرقب الموتى يهبطون بهم الى القبور .. ومع ذلك لم أكد أبصر الجسد المهتز فى الظلمة ، وأميز صاحبه .. أو على الأصح صاحبه .. حتى تجمعت الدموع فى مآقى .. وانسابت برغمى .. وبرغم أنى لم أعرف علام تبكى المخلوقة الشاذة المنطوية فى الظلمات .

لقد كنت اعطف دائماً عليها .. وكنت فى قرارة نفسى أرجع شذوذها الى شىء فى باطنها .. أو فى قلبها .. قد أغلقت عليه صدرها .. وكتبته فى خناياها .

ووقفت برهة صامتا .. أفكر بسرعة فيما يجب أن أفعل .. ولم
أجد خيرا من أن أنسحب فى هدوء .. دون أن أجعلها تشعر بى .. وبأنى
أبصرتها وهى تبكى .

وهممت بالعودة ، ولكن قدمى ارتطمت بحصاة .. جعلتها تتلفت
نحوى دهشة فزعة .

ولم أملك الا أن ألقى عليها التحية فى رقة وعطف .

ولم تجب لأول وهلة .. وبدت كأنها لاتميزنى ، وكان ذهنها
لايعى شيئا مما حوله .. ووقفت أرقب وجهها فى الضوء الباهت وهو
يحملق فى جزعا مرتابا .

وبدا وجهها عجيبا .. بخصلة الشعر المتهدلة على جبينها
وأهدابها السوداء الطويلة وعينها الخضراوين تبرقان من وراء الأهداب ،
وأنفها الأشم المستقيم وشفتيها الرقيقتين .

ولم تطل الحملقة حتى أبصرتها تنهض نافرة فزعة وتشيح بوجهها
ثم تولى هاربة منطلقة نحو الدار . ولم اكن أملك ازاء ادبارها وفرارها
أن أقول شيئا أو أفعل شيئا ، رغم أنى كنت أود لو أستطيع محادثتها
والترفيه عن نفسها وإزاحة بعض أحزانها . ولما هممت بالعودة أبصرت
على المقعد الذى كانت تجلس عليه حقيبة يد جلدية صغيرة مفتوحة
وبجوارها قد تناثرت بضعة أشياء لم أستطع تمييزها لأول وهلة .

وترددت برهة فيما أفعله بالحقيبة والحاجيات .. أتركها على
حالتها حتى تعود لأخذها .. أم أحملها وأذهب بها إليها ؟

وخشيت ان أنا تركتها أن تعبت بها يذقبل أن تعود لأخذها ،
فصممت على أن أجمعها فى الحقيبة وأسلمها لها . ومددت يدى أجمع

الأشياء من فوق المقعد فأدهشني أن أجدها خليطا عجيبا متناقضا لا يكاد يربطها رابط .

كان أول ما عثرت عليه منديل وفرشاة أسنان ، ثم قطعة قديمة من الشيكولاته ملفوفة في ورقة بيضاء .. وقلم رخيص من الجبر الجاف ، وظرف صغير به بعض زهور البنفسج الجافة ، وماكينة للحلاقة ، وجلد ساعة قديمة بالية ، واطار نظارة بلا زجاج ، ومنديل مستعمل لم تمتد اليه يد النظافة . وبجوار كل هذا مطرووف به أوراق مطوية .

ووضعت المجموعة العجيبة المتناقضة في الحقيبة وسرت الى بيت الفتاة .. ولكنى وجدته مغلق الأبواب والنوافذ ولم أجده به أثرا لضوء .

ولم أجده من الحكمة أن أطرق الباب وأثير ضجة في الليل وصممت على أن أعود بالحقيبة اليها في الصباح الباكر .

وقبل أن يستيقظ مخلوق في الدار كنت قد ارتديت ملابسى وحملت الحقيبة وسرت في الحديقة متجها الى بيت الفتاة ، ولكنى لم أكد أبلغه حتى أبصرتها تنطلق في عجلة تجاه الخيملة .

وصحت بها فتلقت الّى .. ولوّحت بيدي بالحقيبة فاندفعت نحوى وجذبت الحقيبة في لهفة كأنها قد استردت حياتها .

وقالت وهى تلهث :

- حمدا لله .. لقد كنت أخشى عليها من الضياع .

وأجبت مازحا :

- كان يجب ألا تخشى شيئاً من ذلك .. فليس بالحقيقية شيء
ثمين يغرى بسرقتها .. فلا أظن محتوياتها بما فى ذلك قطعة الشيكولاته
القديمة وفرشة الأسنان يزيد على نصف ريال .

ونظرت الى نظرة طويلة ثم انطلقت منها ضحكة قصيرة ساخرة
خافتة وأجابت :

- ان ما بها لا يقدر بشئ .. انها روحى .. أنها كل شيء فى
حياتى .

وهزرت رأسى فى عجب ثم هممت بالعودة عندما صاحت بى
فجأة :

- هل قرأت الخطاب ؟

- لم أقرأ شيئاً .. لقد جمعت بالحقيقة كل ما كان على المقعد
وأغلقتها .. وأعدتها اليك كما هى .. ولكنى أتمنى الآن لو استطعت
قراءته .

- لم ؟

- لأننى أود أن أعرف عنك شيئاً .. أود أن أعرف ما بك ..
لعلنى أستطيع أن أحمل عنك بعض حزنك .. لا بد للإنسان من انسان
آخر يتحدث معه ويفضى اليه بهومه .. ليس هناك أقتل للمرء من ذلك
الانطواء وتلك الوحدة .. قد تكونين لم تجدى من يفهمك لكى تحدثيه
عن نفسك ولكنى واثق من أنى أستطيع فهمك وتقدير مشاعرك ..
حدثينى عما بك ولا تخشى شيئاً .

وأطرقت الفتاة برأسها برهة ثم جذبتني نحو الخميلة .. ودون أن تنبس ببنت شفة مدت يدها الى الحقيبة فاخرجت الظرف الذى يحوى الرسالة ثم دفعتهالى اللى قائلة : اقرأ .

وأمسكت بالرسالة وفضضتها وقرأت ما يلى :

(عزيزتى ..

من يصدق أنى قد بت أغار من نفسى ؟

من يصدق أنى بت أكره ذلك الشىء فى نفسى الذى طالما تمنيته وتقت اليه .. والذى كنت أهداف الى الوصول اليه لأجعل منه مثلى الأعلى ؟

من يصدق أنى بت أكره فى نفسى الكاتب العبرى النابغة .. الذى يقدره الناس ويجلونه ويعجبون به ؟

انى أغار منه وأبغضه .. لأنك تحبينه ولاتحبينى أنا .
لا تقولى انى وهو واحد .. وانى أنا هو ، هو أنا .. لأنى واثق لك تحبينه هو .

كيف لا وقد أحبيتك وحاولت التقرب اليك .. كأنا ، بشخصى لكائن الحي .. المتحرك المنظور الملموس بلا نبوغ ولا عبقرية ، ولا كتابة ولا تأليف .. ولا وهم ولا خيال .. فلم تعيرينى أدنى التفات .. وأعرضت عنى اعراض المهمل المنكر .

(أنا) لم أفز منك بغير الأهمال والإعراض .

فماذا فعلت عندما قرأت لى .. وعرفت أننى كاتب كسبى وصاحب آرائى .. لقد أقبلت على فى لهفة وشوق .. وانقلب أعراضك اقبالا .. واهمالك اهتماما ما بعده اهتمام .

وفاز منك (الكاتب) فى شخصى بما لم أفز به أنا .. وبت
تقدسينى وتلهفين على .

وكان يجب على أن أرضى باقبالك ، وأن أستغل لهفتك على
(الكاتب) فى نفسى فأتمتع (أنا) بها ، ولكننى وجدتني أكره اعجابك
بكتابتي .. أكره قولك لى : (ان كتابتك رائعة) .. (انى أعبد كتابتك) ..
كرهت قولك هذا لأننى تمنيت أن يكون (انك رائع) .. (انى أعبدك) .
كرهت قولك لى .. (لا تكف عن الكتابة أرجوك . انى أريد
كتبك دائما ، أكتب .. أكتب .. انى لا أتصور كيف أستطيع أن أعيش
لحظة بغير القراءة لك) .

وكنت أود لو قلت لى : (انى أريدك دائما .. ابق معى لأننى لا
أتصور كيف أستطيع أن أعيش لحظة بغير لقائك) .

كنت أتمنى أن تحببني أنا .. كآدمى بسيط .. بتفاهاتى ..
وسخافتى .. ومادياتى .. بدل أن تحببى فى ذلك الوهم من النبوغ
والعبقريه .. والسمو .. كنت أود أن تحببني كما أحبتك .. وكما
يحب كل انسان انسانا آخر .

كنت أود أن تلهفنى على ضمى كما أتلهف على ضمك .. وأن
تتوقى الى تقيللى كما أتوق الى تقيلك .. بدل هذا التلهف منك على
كتابتي وآرائى وأفكارى .

انى بشر أولا .. ولقد وددت أن تحببني كثيرا .

وحاولت التقرب اليك كبشر .. ولكنك صممت على مبدئك ..
وعلى أن تسمى - كما قلت - بنفسينا .. وأن يظل كل ما بيننا صلة
روحية ذهنية .

فلما أصررت: على مطلبى وعلى طريقتى فى حبى هجرتينى .
ونأيت عنى .. وأرسلت الّى تودعيننى قائلة :

- أكتب .. أكتب .. ان فى كتابتك عزائى .. وثق أنك فى
ذهنى دائما سأقدسك مادامت بى قدرة على التقديس .

وحاولت عبثا أن ألقاك .. حتى يثست .. واستقر بى المقام بعد
هجرتك .. وأنا محطّم منهار ولم يك أمامى سوى شىء واحد .. هو
أنى أنفذ مطلبك .. فأكتب .. وأكتب ..

وأقبلت على الكتابة باندفاع المجنون .. لقد كنت أحس أن فى
كل كلمة أكتبها وكل سطر أخطه متعة لك .. وكتبت الكتاب تلو
الكتاب .. واندفعت أرقى سلم المجد - دون قصد منى - بخطى
حيثيات سراع .. حتى أحسست أنى قد استنفذت كل قواى .. وأنى
بلغت قمة المجد .. ونهاية العمر .

انى متعب منهك .. ولقد أمرنى الأطباء بأن أكف عن الكتابة ..
ولكننى لن أكف - من أجلك - حتى أكف عن الحياة .

لن أكف حتى أكتب قصتى الأخيرة ، فانى أكتبها لك وحدك ..
ولا بد أن أتمها .. لقد انتهيت منها أخيرا وأنا أشعر أنى بت من النهاية
قاب قوسين أو أدنى .

وليس أمامى سوى أن أكتب لك هذه الرسالة لأودعك فيها ..
ولأقول لك : انى كتبت وكتبت لا لمال .. ولا لشهرة ولا .. ولا ..
ولكن لأجلك أنت .. أنت وحدك .. عابدة كتابتى .. ومقدسة نبوغى
وعبقريتى .

ليتك تحبين فى الإنسان المتواضع .. الطيب الهادىء . كما
أحببت الكاتب النابغة العبرى .. ليتك تحبيننى .. مرة واحدة ..
كبشر .

ليتك تحبيننى (أنا) . (المخلص)

ووضعت الرسالة جانبا ونظرت الى الفتاة فى دهشة بالغة ..

- وهل ذهب حقا ؟

- أجل لقد ذهب .. ليته كان يعرف .. ليته كان يعرف أننى
أحبته كبشر .. أكثر مائة مرة منه ككاتب .. لقد كنت أتوق الى ضمه
وتقبيله والى أن أتحمس شعره بيدي .. ولكنى كنت أجد حبه كبشر ..
حبا يائسا لا أمل فيه لأننى كنت مقيدة الى مخلوق آخر .. ولم تكن
هناك فرصة للفكاك . كنت احبه كبشر .. ولكنى لم أجد هناك فائدة
من حبه .. فصممت على أن أخبه ككاتب .. فقد خيل لى أن هذا شىء
مستطاع يمكن أن يدوم العمر .. وصممت على أن أجعل الصلة بيننا
صلة روحية ذهنية ما دامت الصلة الجسدية قد استعصت وتعذرت ..
وقلت لنفسى انها ستكون صلة أبقى على الزمن وأكثر دواما .

ونأيت بنفسى عنه .. وظللت اتعزى عنه بكتبه وأخيا معه نين
السطور والكلمات .. فى دنيا من الوهم .. وعالم من الخيال .. حتى
قرأت قصته الأخيرة .. التى أفنى فيها نفسه .. ثم وصلتني رسالته ..
وعلمت بعد هذا أنه ذهب .

وهنا أحسست أن صبرى قد عيل واحتمالى قد نفذ .. وأنه لم
يعد فى طاقتى الاحتمال .. ولا فى استطاعتى أن أحيا كبشر مع رجل
غيره .

أجل .. إننى لم أحس بحاجتى إليه .. كبشر ، ألا بعد أن ذهب .
وانطويت على نفسى .. متلمسة العزاء عنه .. فى بقاياها التافهة .. فيما
كان يسميه ماديّات بشرية .. انه لم يعد يمتعنى فى الحياة شىء .. أكثر
من أن أتلّس فرشاة أسنانه .. أو أتحنس جلدة ساعته .. أو أمسك
بقطعة من الشيكولاته كان قد قضم منها بعضها وأعطانى النصف الآخر
فاحتفظت به .

لقد حرمت على نفسى أن أحيا معه .. وكنت أقنعها بالصلة
الروحية .. عندما كان حيا .. يلّس .. ويضم .. فلما ذهب ..
أحسست بعمرى قد ذهب هباء .. وضاع سدى .. ولم أعد أستطيع
أن أحرّم نفسى من أن أضم كل ما مسته يده أو لفحته أنفاسه .

★ ★ ★

مَوْعِدُ الدَّيْلِ

هذه قصة مزحة لم تعد في أول أمرها أن تكون أكذوبة قصد بها التفكه والتندر .. ولكن الظروف دفعتها أمامها ونفخت فيها فانتفخت وتضخمت وظلت تتسلل بها الحوادث حتى انتهى بها الأمر فصارت قصة هي أبعد ما تكون عن أذهان أصحاب المزحة .. عندما اختلقوها في بادئ الأمر .

رأيت الفتى - بطل المزحة أو بطل القصة - أول مرة في ذلك النادي الذي اعتدت أن أقضى به سويعات مرحة ضاحكة مع بعض الأصدقاء حيث أنقل البصر بين وجوه الحسان اللاتي تناثرن هنا وهناك .. وكان يجلس في ركن من أركان الصالة الفسيحة المزدحمة وقد دفن رأسه في كتاب بيده لايحول عنه بصره .

وكان الفتى أقرب الى الدمامة .. بوجهه الأصفر النحيل وأنفه الحاد الشبيه بمنقار البجعة ، وبذلك وبذلك الأسنان الصفراء البارزة المدببة . وذلك المنظار السميكة الذي يكاد يلمس صفحات الكتاب الذي في يده .. وتعودت أن أراه بعد ذلك في نفس المكان وفي نفس

الوضع لا يلتفت يمنية ولا يسرة ، ولا ينطق بحرف .. ولا يرفع رأسه عن صفحات الكتاب .. وكنت أحس له في نفسى شيئا من النفور .. وأغلب ظنى أن هذا هو الشعور الذى كان فى نفس كل من يراه .. ولكن حدث ذات يوم أننى وجدت نفسى مضطرا الى الجلوس اليه ومحادثته .. فقد كانت القاعة خلوا الا منه ومنى .. ووجدته يتسم لى ابتسامة خفيفة فاضطرت الى مجاذبته أطراف الحديث .. وأعجبني حديث الفتى ، فقد كان به رقة وطلاوة ، وكان صوته ذا رنة محببة بينى وبينه .. والواقع أن الفتى كان يختلف عن مظهره كل الاختلاف .. فقد كان رقيقا شاعرى النفس ، حلو الحديث ، وان كان أكثر ما يعينه هو فرط حيائه لا تكاد تتعدى تلك الصفحات من مئات الكتب التى يفرق فيها رأسه .

وبدا أصدقائى الخبثاء يتخذون من الفتى ملهاة لهم ، ومسلاة يتندرون به فيما بينهم .. وانتهى بهم الأمر أن يدبروا مؤامراتهم الماجنة .. والتى لم أعلم بحقيقتها الا فيما بعد .. والا لوضعت حدا لمزحتهم الشائكة وخاصة مع مثل هذا الفتى الحى .. والذى ما أظنه قد جلس فى حياته الى امرأة قط .. أراد الأشقياء أن يعيثوا بالفتى فاتفقوا مع فتاة من صديقاتهم أن تكتب له خطاب غرام تصف فيه مبلغ اعجابها به ولهفتها عليه .. وتقول (أن حبها قد بدأ منذ رآته جالسا فى صمته ووجدته بعيدا عن الناس ولهوهم ، ومجونهم .. وأنها لم تتمالك نفسها من الإعجاب بسيماء النبل البادية عليه) ! ثم ينتهى الخطاب بتحديد لقاء فى الساعة الثامنة من مساء يوم الجمعة فى ملتقى العشاق باحدى الضواحي النائية .. ثم تضيف الى ذلك ملحوظة جاء فيها : (يمكنك

معرفتي بعينى السوداءوين الحزيتين وبمعطفى الأحمر ووردة بيضاء
سأمسك بها فى يدى) .

ويستطيع المرء أن يدرك وقع مثل هذا الخطاب فى نفس الفتى
الذى يذوب خجلا وحياء .. والذى ما خطر له أن فتاة يمكن أن
تعشقه ، بل الذى لا يذكر أن فتاة نظرت اليه نظرتين متتاليتين .

ويمسك الفتى بالخطاب ويخلع منظاره ليمسحه جيدا .. ثم
يأخذ فى تلاوته مثنى وثلاث ورباع ، والأشقياء على مقربة منه يسترقون
النظر اليه ويضعون أكفهم على أفواههم خشية أن تفلت منها الضحكات
التي تعتمل فى صدورهم ! ثم يطبق الفتى الخطاب فى رفق وعناية
ويضعه فى جيبه ثم يروح فى شبه ذهول .. ولاشك أن الفتى قد قضى
يومه قلقا حائرا فقد لقيته وفى عينيه نظرات غريبة ثم انتحى ناحية بعيدة ،
ودفع اليّ بالخطاب ووجهه يصطبغ بلون الأرجوان .. وطلب منى قراءته
ثم راح يرمقنى فى صمت فلما انتهيت من قراءته سألتنى فى صوت
خجول :

- يخيل اليّ أنى أعرفها .. وأحس بلهفة الى الذهاب للقاءها ..
ولكنى لا أجد فى نفسى الجرأة الكافية .

فقلت :

- الأمر لا يحتاج الى جرأة أو شجاعة .. فكل ما بنفسك من
حياء سيذوب بمجرد لقاءك إياها .

ولم أكن أعلم وقتئذ أن فى الأمر مزحة مدبرة .. والا لأجته بغير
ذلك .. ولاطلعت على الحقيقة حتى لا أتركه ألوعة بين أيدي هؤلاء

الماجنين العابشين .. ولكننى كنت أظن مثله أن الأمر لا يعدو الحقيقة فقد كان الخطاب مكتوباً بأسلوب متزن معقول لا يكاد يميز المرء فيه هزلاً أو مزاحاً حتى جاء يوم الجمعة .. فعلمت من أحد الأشقياء الذين دبوا المؤامرة أن الخطاب أكذوبة أريد بها السخرية من الفتى وإخراجه من صمته ووقاره .

وشعرت بالأسى يتملكنى فأسرعت الى داره لأنبئه بحقيقة الأمر .. ولكن ما أن وقع بصرى عليه حتى وجدته قد تأنق وتزين والعطر يفوح منه ورأيت وردة حمراء تتربع على صدره .. ولمست الأمل يترقو في وجهه .. كل ذلك جعلنى أجزع من ذكر الحقيقة التى ستهدم تلك القصور الشامخة التى شادها الفتى فى رأسه فألقيت اليه ببضع كلمات تافهة وغادرته بعد ان وعدته بالعودة اليه بعد أن ينتهى من موعده .

وعدت اليه فى العاشرة .. فقد أحسست أن من واجبى أن أرفه عنه وأن أزيل ما علق بنفسه من آثار خيبة الأمل .. فقد تخيلته يحملق بمنظاره ومنقاره فى كل امرأة تمر به دون أن تعيره احداهن أدنى التفاتة .. ولم يعد الفتى الى داره حتى الحادية عشرة ، عندما رأيته قد أقبل حزينا ملتاوعا وقد بدا عليه الإعياء .. فألقى بنفسه على مقعد وقال كمن يحدث نفسه :

- انها لم تأت بعد .

- ربما قد عاقها مرض .. أو حدث لها طارئ منعها من الحضور .

ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أجيبه هذه الإجابة التى أعادت
الأملى الى نفسه .. وجعلته يتعلق مرة أخرى بخيوط الوهم .. فقد
أجاب :

- نعم .. لابد أن يكون هناك ما منعها .. ولابد أنها ستكتب
التي مرة أخرى لتشرح ما حدث .. كم أخشى أن يكون قد مسها مكروه
أو أصابها سوء .

فلاشك أنها كانت تنوى الحضور والا لما كتبت تقول ذلك .

وفى الواقع .. كان يجب على أن أفضى اليه بالحقيقة كلها فى
ذلك الوقت ، ولكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لذلك ، ولم
أرد أن أحمل الفتى خيبة فوق خيبة .. وفضلت أن أترك للظروف تدبير
أمره وللزمن أن يبرئه مما به ، وينسيه ذلك الخطاب وصاحبه .

ولشد ما أخطأت فى ظنى .. فلم تزد الأيام الفتى الا استعاراً ..
لقد استمر يذهب كل مساء فى الموعد المضروب الى مكان اللقاء فلا
يعود الا فى منتصف الليل .

وكان على أن أفعل شيئاً وقد أوشك الفتى على الجنون ، ورأيت
من العبث أن أخبره أن المسألة كلها هزل فى هزل ، فقد كان من العسير
على المرء أن ينتزع الفتاة الوهمية من رأس الفتى وأن يقنعه أنها كائن
لا وجود له الا فى مخيلته وفى سطور الخطاب الذى خدع به .. وعلى
ذلك فلم يكن أمامى الا حل واحد ، وهو أن أوجد له الفتاة فعلاً ..
وأن أحولها من الوهم لتكون حقيقة ثابتة .. فأجعلها تلقاه حتى يهدأ
بale وتطمئن نفسه .. ثم تحاول هى بعد ذلك التخلص منه بحكمه
ومهارة .. وكان خير من أستعين به فى هذه المشكلة صديق اشتهر

بوسامته وكثرة صديقاته ، ولا تكاد تخلو مائدته من عشرات الفاتنات الساحرات بين الككوس والضحكات .. فذهبت اليه وقصصت عليه القصة ، وسألته لو أمكن أن يتفق مع إحدى صاحباته على أن تلقى الفتى مرة أو مرتين فتتلف مع بعض الشيء ثم تفهمه أنها لن تستطيع لقاءه بعد ذلك لأنها سترحل بعيداً لعذر تنتحله .. وأخبرته أن من الخير ألا تكون الفتاة مفرطة في الحسن حتى يسهل على الفتى أن ينساها بعد ذلك .

وفي اليوم التالي أخبرني صاحبي أنه استطاع أن يقنع احداً من بلقاء الفتى وهي - وان كانت بارعة الحسن - الا أنها أيضاً خبيثة بالنفوس داهية مأكرة ، تستطيع أن تعيد الفتى الى نفسه من اللقاء الأول وتجعله يندم على لقائها وعلى التفكير فيها .

★ ★ ★

. وكنت جالسا مع الفتى عندما جاء الخطاب الثانى .. وأبصرت به يفرضه بيد ترتجف ويبدأ قراءته وقد تصاعد الدم الى وجهه .. ثم رأيته يمد يده الى الخطاب ويقول فى صوت هامس :

- أألم أخبرك أنها لابد أن تكون مريضة ؟

وأمسكت بالخطاب ، ولم يكن بى من حاجة الى قرائته فقد كنت أعلم ما به .

ولكنى تظاهرت بالقراءة .. لقد كان الخطاب اعتذار بالمرض وموعداً للقاء فى نفس المكان وفى نفس الساعة .. وذهب الفتى للموعد وانتظرت أن يؤوب سريعاً ، ولكن غيبته طالت حتى خشيت أن يكون

قد مسه سوء أو يكون قد ألقى بنفسه في النهر ومات متحررا .. ولقيته في اليوم التالي فأقبل عليّ باسمها متهللا .. وبدأ يحدثني عن لقاء الأمس فوصف لي كيف أقبلت عليه الفتاة بقامتها الفارغة ومعطفها الأحمر ووردتها البيضاء .. تماما كما حدثته في خطابها لاتكاد تختلف في شيء سوى أن عينيها السوداوين لم تكونا حزينتين بل كانتا تبرقان بالمرح وتشعان بالسرور .

- انها نشوة أثارته في نفسي .. ما ظننت قبل أن أراها أن من الممكن لإنسان على هذه الأرض الشقية أن يسعد مثلما سعدت .. لقد أقبلت عليّ هاشة باشة كأنا بيننا قديم صعبة .. والواقع أنني أحسست أن روحينا قد التقيتا قبل الأمس مئات المرات ! وأمسكت بيدها وانتحينا ناحية هادئة على الشاطئ وطلبت مني الفتاة أن أحدثها عن نفسي ، فرأيت لساني ينطلق في الحديث ويروى لها كل ماوعته الذاكرة من الشعر والقصص فأطربها الحديث ، ورحنا نحن الاثنين في نشوة .. وأنا أحدثها بلساني وهي تجيب بعينيها .

وصمت الفتى برهة ثم عاود الحديث :

- سالتقى اليوم مرة أخرى .. وقد تركت لي عنوانها حتى أستطيع الاتصال بها اذا أَلَمَ بها سوء .

ويستطيع المرء أن يتصور مدى ما أصابني من الدهشة والذهول عندما سمعت حديث الفتى .. وشعرت أن المشكلة تزداد تعقدا وأن الفتاة الحمقاء قد ذهبت لتزيد الفتى لهيبا بدلا من أن تطفئ لهيبه ! ترى كيف تستطيع أن تخلص نفسها منه بعد ذلك ؟ .. وذهبت الى صاحب الفتاة وأنا حانق نائر .. فلقيني بابتسامة ساخرة وقال :

- أهذا هو صاحبك الذى تخشى عليه ؟ كان خيرا لك أن تخشى منه لا عليه .. اياك أن تعود لاقتراض صاحباتى لأصدقائك فانهم محتالون لا يردون القرض .

وتملكتنى الدهشة عندما سمعت أن الفتاة التى ذهبت لتمثل دورها القصير لم تجد الفتى قبيحا كما تخيلته بل وجدته رقيقا مهذبا ، واستطاع أن يأسرها بسحر حديثه وعذب صوته .. حتى لقد أقسمت أنها تستطيع أن تستمع اليه طول العمر دون أن يدركها ملل أو سأم .

ومرت الأيام فإذا بالمزحة قد انقلبت فصارت غراما فياضا وهوى جارفا ، وكاد الأمر ينتهى بها فتصبح زواجا سعيدا لولا أن حدث مالم أكن أتوقع حدوثه قط .

فى ذات يوم جلس الفتى يتحدث مع أحد الأصدقاء الذين دبروا المزحة فى أول الأمر . ولا أدري أى شيطان دفع الخبيث الى أن يفضى الى الفتى بقصة الخطاب من أولها الى آخرها .. وأصيب الفتى بصدمة أخرى عفيفة قاسية أفقدته رشده .. فقد رأى أنه لا يعدو أن يكون فى كل هذه الأحلام العذبة العوبة وسخرية .. وسحق قلبه أن يكون كل ذلك الهوى الجارف من الفتاة محض تمثيل هازل ماجن .

ولقيني الفتى بوجه متجهم عابث ، وهيكمل محطما مهتما ، اعترفت له بكل ما حدث .. ولكنى أخبرته أن شيئا واحدا مما حدث لم يكن به أى هزل أو مجون ، وذلك هو حب الفتاة . وحاولت أن أفهمه حقيقة ما حدث ، ولكنه أشاح عنى بوجهه وانصرف كأنه شبح أو خيال ، وشعرت أن رأسى يكاد أن ينفجر .. وخشيت على الفتى أن يودى به وهم كاذب .. ولم أجد خيرا من أن أسرع الى الفتاة فأنبئها

بما حدث حتى تسرع اليه فتقنعه بأن جيبها له حقيقة لا خداع .. ولقيت الفتاة وهرعت وإياها الى دار الفتى واقتحمنا حجرته لننقذه من شر أوهامه .. ولكننا وجدنا أننا قد تأخرنا قليلا .. فقد أنقذ الفتى نفسه بنفسه .. لقد انتحر المسكين ، وتركت الفتاة ترتدى باكية أمام الفتى المسجى على فراشه وغادرت الدار .. فقد أحسست أنني أوشك على الاختناق .

يا للسخرية ! هذا الفتى الذى كنت أعالجه بالوهم الكاذب قد مات بوهم كاذب .

ترى لو كان يعرف صاحب المزحة أن مزحته ستنتهى بمثل ما انتهت اليه .. أما كان يشفق على الفتى منها ويكفى الناس شر المزاح ؟

★ ★ ★

لَيْلَتِ السَّائِرِ

سار المحراث يشق الأرض يقلب عاليها أسفلها. وأسفلها عاليها وقد دفن
حدّه اللامع فى باطنها . وتحركت البهيمتان يتبعهما جسد طويل
متين البنيان ، وقد أمسك ييساره خشبة المحراث ، وييمناه عصا طويلة
يستحث بها البهيمتين كلما بدا منهما تكاسل أو تراخ .

كان ذلك فى احدى القرى القريبة من القاهرة ، وكان الجو قد
شمله ضباب ثقيل لم تستطع شمس الصباح بأشعتها الواهنة الرقيقة أن
تبدده أو تنفذ خلاله ، فبدت ذراتها البيضاء معلقة فى الجو ساكنة راكدة
لايكاد المرء يتشاءب ويتنفس حتى يتصاعد من فمه دخان كثيف ..
وظهرت قطرات الندى تلمع على أوراق البرسيم الداكنة الخضرة ..
وتوقفت احدى البهيمتين ترعى بقايا خضرة الأرض .. فتصاعد من
ورائها صوت ينهرها : (حاح) ، وكان الصوت صوتا نسائيا على ما فيه
من غلظ وخشونة فقد كان السائر وراء المحراث امرأة .. أجل .. كان
الجسد الطويل الفارع ، المتين البنيان ، هو جسد أم بهانة .

وقد أخذت تحرث الجزء الباقي من أرضها الذى لم يتم زرع
 بعد .. لم يكن المرأة لتفترق عن الرجل فى شىء .. وأعنى بالرجل ..
 الرجل الشديد المراس ، القوى الشكيمة .. المهاب الجانب .. الموفر
 الكرامة .. وكانت تقوم على زرع أفدنتها الخمسة بنفسها لايعينها فى
 ذلك سوى ابنتها بهانة ، وعامل أو عاملان تستأجرهما فى وقت تغير
 الزرع .. واستمرت المرأة فى قلب الأرض جيئة وذهاباً بينما أخذ
 ذهنها يكبد فى التدبير .. ماذا فعلت ؟ . وماذا ستفعل ؟ . هل تبيع فدان
 البرسيم - الفجل - أم تتمهل قليلاً ؟ .. ثلاثة جنيهاً للقيراط ليست
 بالسعر الذى تطمع فيه .. ولكنها تخشى ان استمرت فى الرفض أن
 تضع الفرصة ويور البرسيم .. ثم ان السيد الساقط خير من غيره ..
 فهو مضمون فى الدفع .. سريع فى حمل البرسيم لأنه متعهد الجيش ،
 وسيخلى لها الأرض فى يوم أو يومين . فتستطيع أن تنتفع بزراعتها مرة
 أو مرتين خضروات .. ثم قفز ذهنها فقزة سريعة الى محصول الذرة ..
 لقد كان الإنتاج وفيراً فى هذا العام .. وهى تأمل أن تسدد منه المال ..
 وتبتاع الكسوة وتوقف ذهنها عن التفكير فجأة ، وبدرت منها صيحة
 غاضبة محدرة : (يا بهانة حوّلى المياه .. لقد كاد الحوض أن يفرق)
 وعلى مسافة قريبة بدت بهانة وقد انحنت تضرب الأرض بفأسها وتحول
 المياه عن حوض البرسيم القريب .. الى حوض آخر .. ثم انتصبت واقفة
 فبدا جسدها استواء وامتلاء .. وبرز صدرها بروزا طبعياً غير متكلف
 ولا مصطنع وسألتها أمها :

- هل أحضرت تفاوى اللفت لكى نبذره على الفحل ؟

- أجل .. لقد وضعتها بجوار الجميزة .

وتحوّل. بصر المرأة الى الجميزة القائمة على قارعة الطريق فرأت بجوارها رجلا يقطع بفأسه من كوم السماد القائم أسفل الشجرة ، وعاد ذهن المرأة فى الشرود مرة أخرى .. وبدا على وجهها تجهم شديد .. لشد ما كان يسوءها من ابنتها هذا التهافت منها على محمود ابن الشيخ معاطى .. ماذا حدا بالفتاة الى أن تخص هذا الفتى وحده دون سائر خلق الله بعطفها أو حبها .. هذا المخلوق الذى كانت تحب له المرأة حقدا وضغينة لم تستطع الأيام فى مرّها أن تمحوها أو تخفف من حدّتها .. لقد كانت ترى فيه ملامح أمه .. أمه الفاجرة العاهرة التى أفسدت عليها حياتها ، وسلبتها الراحة والنعيم .. وانطلق ذهنها يعدو فى ضروب الماضى البعيد .. المظلم الأرجاء .. الشبيه بذلك الضباب الذى يحيط بها .

وبدأت تستعرض صوره الباهتة ، فأبصرت بنفسها فى ربيع العمر ومستهل الحياة .. وأبصرت زوجها فى ريعان شبابه ومن حولها الأرض الطيبة .. وقد أخرجت الزرع من باطنها أخضر تجرى فى عروقه ماء الحياة .

كانت تحس وقتذاك أن أفدنتهما الثلاثة ضيعة واسعة .. وأن بيتهما الطينى قصر شامخ .. وهل يمكن أن يحس صاحب الضيعة وصاحب القصر بسعادة أكثر من تلك السعادة التى تفيض بها نفسها ؟ وتذكرت كيف وضعت بهانة وكيف ألّم بنفسها حزن .. خشية أن يحزن زوجها لأنها لم تنجب له ولدا .. ولكن زوجها لم يحزن ولم يكتب .. على النقيض ، لقد كانت فرحته بالطفلة لاتوصف .. وتذكرت بعد ذلك كيف بعثت الطفلة فى حياتها ضياء فوق ضياء .. ومنحتها هناء فوق هناء .. وكيف كان أبوها يتفاعل بها فلا يفتح عينيه

فى الصبح الا اذا أحضرتها له حتى تكون أول ما يفتح عليه بصره ..
واستمرت قاعة بحياتها راضية مرضية حتى بدأت تبصر بأول سحب
الشقاء تعكر صفو حياتها .. انها تذكر أول يوم رأت فيه تلك السحب
المعتمة حين أقبل عليها زوجها يقول لها فى غير اكتراث :

- هل سمعت ما فعله ذلك الشيخ المخرف ؟

- من ؟

- الشيخ معاطى !

- الشيخ معاطى رجل مخرف ! .. حرام عليك .. انه من أفاضل
الناس .

- لقد كان من أفاضلهم حتى أمس .. أما اليوم فقد أضحي من
مخاييلهم .

- ولم ؟ ماذا حدث منه ؟

- لقد تزوج .

وبهت المرأة بعض الشيء .. ولكن ما تعرفه عن طيبة نفس
الرجل وقوة ايمانه جعلها تدافع عنه لتلتمس له المعاذير فقالت :

- وما العيب فى أن يتزوج ؟ .. لقد مضى عامان على وفاة زوجته
والرجل ما زال - رغم بلوغه الخمسين - فى عنفوانه وفى أوج
صحته .. فلم نحرم عليه ما أحله الله ؟

- هل تدرين من تزوج ؟

وهزت رأسها بالنفى قائلة :

- وأنى لى أن أعرف !

- تزوج سنية الغازية .

وبدرت منها صيحة دهشة لم تستطع كتمانها ووجدت نفسها تكرر - وهى مبهوتة - سنية الغازية ! قل شيئاً غير هذا ! ان الشيخ معاطى رجل عاقل .

وكان من العسير عليها أن تصدق أن الرجل الطيب الرزين الحكيم .. قد أقبل على مثل هذا العمل الجنونى حتى رأت - الغازية - بعينى تحتل دار الشيخ وتجلس معه موضع السيدة .. ترى ماذا أصاب الرجل حتى دفعه الى التردى الى تلك الهاوية ؟ .. أمثله يتزوج المرأة الملوثة العاهرة ؟ .. هذه المرأة التى ليس لها مورد للرزق الا رنين الصاجات بين يديها .. وهز الردفين ، وعرض جسدها للبيع والايجار ، ولم يحاول أن يستمع لنصح ناصح .. بل ركب رأسه واتبع هواه وأعرض عن الناس وأعرضوا عنه .. وانطوى مع امراته فى عقر داره .. حتى مرّ بهما عام أو ما يقرب العام .. فوضعت له ابنة محمود .. وكانت فرحة الرجل بالطفل شديدة ، وهو الذى عاش مع امرأته الأولى دهرا طويلا .. لم ينعم الله عليه بالبنين .

وبدأ الناس يصلون ما انقطع من الصلوات بينهم وبينه ، بعد مارأوا من امرأته ذلك الانطواء والإقلاع عن الفسق والفجور وكان أول من وصله .. هى وزوجها .. أجل .. لقد عادت الصلة بين الجارين الى ما كانت عليه ، وحلت المودة محل القطيعة .. وبدأت هى تقبل على -

الغازية - وتتخذ منها صديقة لها .. ومَرَّت الأيام فاذا بها تلاحظ تغيرا ملموسا فى سلوك زوجها ومعاملته لها ، فلم تجد منم ذلك الحنان والإقبال .. وساء خلقه .. ولاحث لها فى الجو بواذر عاصفة تكاد تودى بحياتها .

لم يكن من العسير عليها أن تدرك أن الحية قد بدأت تلعب بذيلها ، وتنصب الحبال حول زوجها .. فقد أخذت الألسن تتناقل الإشاعات بأن هناك صلة بين زوجها وبين الغازية .. وأنهما قد اتخذا من الجميزة محلا مختارا لعلاقتهم الآثمة .. ولم تكتف الغازية بصيد واحد .. وبدأت تمد شباكها لتوقع ما تستطيع من الرجال .. فاذا بها تسمع عن علاقات أخرى بينها وبين ابراهيم شيخ الخفراء ، وبين عبد الصبور ابن العمده . وكبت المرأة أحزانها بين الضلوع وقالت لنفسها : نوبة طارئة من الهوى والطيش سرعان ما تزول وفترة جموح سرعان ما يعود بعدها الى سابق هدوئه وسكितته ، وحاولت جهدها أن تخفى يرتها وأن تعالجه باللين حتى يعود الى حظيرتها .. وأخيرا عاد الى حظيرتها ، ولكن عودته كانت بشكل لم يخطر لها قط على بال .. ذلك لقد كانت عودته فى حلقة الليل محمولا على الأعناق .. مضرجا بدمائه لانفس فيه ولاحراك .

تذكرت كيف دوى فى سكون الليل صوت الرصاص .. وهى جالسة تنتظر عودته كما تعودت دائما أن تنتظره ، وقد وضعت ابنتها فى حجرها .. وكانت ترفع أكفها من آن لآخر الى السماء تدعو الله أن ينقذه من تلك الحية الآثمة .. وقد عصفت بنفسها الغيرة والحزن وقد أفرعها دوى الرصاص .. ولكن فزعها لم يكن أكثر من فزع البهيمنتين المستلقتين أمامها عندما فتحتا عينيهما لحظة .. ثم عادتا الى

سباتهما .. كما عادت هى الى الاستغراق فى التفكير حتى أحست بعد لحظات بوقع أقدام تقترب فى الخارج .. وأصوات مختلفة تتصايح وتتهامس .. ثم دفع الباب وأبصرت على ضوء الذبالة التى تتراقص جسد زوجها والدماء تقطر منه .. ودوّت منها صيحة ذعر وارتمت على الجسد مولولة نائحة .

وكان الرجل مازال فيه بقية رفق ففتح عينيه واستغفرها ثم اسلم الروح ، وأجرى التحقيق بعد ذلك .. فلم يكشف القاتل .. اذا لم يعرف سوى أن الرجل كان يجلس تحت الجميزة عندما أصابته الرصاصة وقيدت الجريمة ضد مجهول ، ومع ذلك فقد كانت هى تعرف القاتل .. وتعرف يقينا أنه لم يكن سوى ابراهيم شيخ الخفراء .. وأحد المتنافسين على الغازية ، وأنه قد قتله عندما أبصره يجلس واياها تحت الجميزة .. فاختمى بين عيدان الذرة وأفرغ رصاصته فى صدره فأرداه قتيلا .. ولكن أى فائدة من أن تدلهم على القاتل .. وهى لاتعرف فيما بينها وبين نفسها أن هناك قاتلا سوى المرأة الفاجرة ؟ . أى فائدة تعود عليها وهى لن تفعل أكثر من أن تضيف الى ضحايا المرأة ضحية أخرى.. ثم تظل هى بعد ذلك بمنجاة عن العقاب ؟ لا .. لا .. ان ابراهيم شيخ الخفراء - رغم أنه قاتل - فانه فى نظرها لا يعدو أن يكون ضحية بريئة .. أما القاتل يجب أن تثأر لنفسها منه فهى المرأة ، ولكن الغازية لم تعطها فرصة الانتقام .. وقد فرّت من القرية تاركة زوجها محطما مهتما .. لايعزى فى الحياة سوى ابنه الطفل .. ومّرت السنوات بها بعد ذلك وجمرة الثأر تتأرجح فى نفسها .. وسوس الانتقام ينخر فى صدرها فيقض مضجعها .. ويثقل كاهلها ويقوض ظهرها .. وقاومت الزمن والأحداث .. فضاعفت فدادينها الثلاث .. وأطلق عليها أهل القرية اسم

(المرأة الرجل) .. وكبرت ابنتها وأضحى فتاة مكتملة ناضجة .. ونما ابن الغازية وأضحى شابا فارح الطول .

ودفع القدر كلا منهما في طريق الآخر فإذا بكل منهما يقع في هوى صاحبه ، وكانت تجس للفتى الحقد الذى كانت تضمه لأمه .. وكانت رغبتها المكبوتة فى الانتقام من الأم تدفعها الى أن تحوّل انتقامها اليه .. فكانت تحاول دائما أن تبعد بينه وبين ابنتها .. وبدأت تقرب اليها الفتى الوحيد الذى يستطيع أن يقف ندا له ويتزعمها منه .. وهو عليوة ابن ابراهيم شيخ الخفراء .. لقد بدأت تضرب أحدهما بالآخر .. ابن القاتل فى عرف القانون .. وابن القاتلة فى عرفها .. فهذه خير وسيلة للثأر لزوجها .

وسطعت الشمس دافئة فبددت الضباب وبدأت الخضرة ممتدة على مدى البصر .. وانتهت المرأة من حرث قطعة الأرض .. وانتهت الابنة من رى البرسيم المسقاوى بعد أن حذرتهما أمها من أن تمتد المياه الى البرسيم الفحل لأنها قد نوت بيعه .. ورفعت بهانة بصرها فوق على محمود وقد وقف فى نهاية الطريق وأخذ يشير لها خفية فأجست بقلبها يهفو .. وودّت لو تطير اليه ولكنها كانت تعلم ما تضمه أمها نحوه .. وتعلم كيف حذرتهما من لقائه أو الحديث معه . وتعلم أن عقابا يمكن أن توقعه بها لو علمت بأنها تخالف أمرها ولم تكن الفتاة تدرك بعد سر بغض أمها للفتى ، ولا كانت تعلم شيئا عن الماضى الدفين فى صدرها .. بل كل ما كانت تعلمه هو أن أباهما قد مات وهى طفلة لانعى فى الحياة شيئا .. وأن أمها هى كل ما لها فى هذه الدنيا .. وانصرف محمود دون أن تجسر الفتاة على الذهاب اليه .. ومرّت الساعات والأم وابنتها منهنمكتان فى زراعة الأرض .. وقيل العصر بدأت الأم تفك

البهائم وأنبأت ابنتها أن تستعد للعودة الى الدار .. ودهشت الفتاة فقد كان الوقت ما زال مبكرا .. واستفسرت من أمها عن السبب فى هذه العودة المبكرة فأنبأتها ببساطة أن عليه وأباه سيحضران لقراءة الفاتحة ولإتمام الخطوبة .. وأحست الفتاة بغصة فى حلقها وبرغبة شديدة فى البكاء .. ولكنها كتمت ما بها ، فقد كانت تعلم أنه لا فائدة من الاعتراض .. وتبعت أمها الى الدار ، ولم تمض فترة قصيرة حتى حضر الشيخ ابراهيم وابنه وقرأت الفاتحة وانتهى الأمر .. وخرج الفتى والفتاة يتنزهان على شاطئ الترع .. وكانت الفتاة لاتكاد تتماسك .. اذ كانت تحس أنها لاتبصر ما أمامها وأنها على وشك الانهيار بين لحظة وأخرى .. ووصلت الى الجميزة وهى مطأطئة الرأس واجمة حزينة .. ورنّت ببصرها فاذا بها تبصر أمامها محمود .. وأحست بقلبها يكاد يقفز بين جوانحها .. وتمنت لو استطاعت أن ترتدى بين أحضانه .. ولكنها لم تجسر .. ووقفت متسمة فى مكانها وكان محمود أول من تكلم فقد سألها فى دهشة واستياء :

- الى أين ؟

واجابه عليه فى غضب مكتوم :

- ليس من شأنك تسأل !

- وقال محمود فى سخرية واحتقار :

- خير لك أن تتركها وتعود من حيث أتيت .

- أنا أتركها ؟ ! أترك خطيبتى ؟

- خطيبتك ؟ !

ثم نظر الى الفتاة يستوضحها جليلة الأمر فأطرقت وقد سالت من عينيها دمعان صامتان ، وعلم محمود الحقيقة وأدرك أن أمها قد فعلتها .. وأن الفتاة قد أجبرت على ما حدث .. وانتابته ثورة غضب جامحة .. وأدرك أنه لن يستطيع الحياة بدون الفتاة ، وأن من العبث أن يحاول التفاهم مع أمها .. فهجم على عليوه .. واشتبك الإثنان .. ولم تمض لحظة حتى كان عليوه طريح الأرض والدماء تسيل من جرح فى جبهته وقد فقد وعيه .. ونهض محمود وهو يلهث وقال للفتاة :

- هيا ..

وسأله وأنفاسها تتلاحق من فرط الذعر :

- الى أين ؟

- نهرب من القرية .

ونظرت الى الفتى الراقد بلا حراك ثم قالت هامسة :

- عليوه .. أتركه هكذا ؟

ولكنه لم يجبها بل جرّها من يدها وابتعد بها وسط الظلمة ولم تقاوم الفتاة فقد كانت تحس بالحنين اليه فأخذت تهوّل بجواره وهى مشدوهة حيرى .

وسأله فى الطريق :

- ألا نذهب الى بيتكم فقد يستطيع أبوك أن يدبر أمرنا ؟

- أبى ! هذا العاجز المريض الواهن المشلول الذى لا يستطيع حتى أن يدبر أمر نفسه .. تنتظرين منه أن يدبر أمرنا ؟

ان بيتنا هو أول مكان سيخطر على بالهم أن يبحثوا عنا فيه ..
خير لنا أن ننطلق الى القاهرة فلن نعدم وسيلة للرزق والمدينة واسعة
تستطيع ابتلاعنا فى جوفها فلا يعثر علينا أحد .

ومع ذلك فقد استوقفهما أول شرطى صادفهما فى نقطة المرور
الكائنة عند مدخل المدينة .. فقد أبلغ المركز عنهما ، وأعيدا الى القرية
مرة أخرى وأودعا مركز الشرطة وهناك وجدت الفتاة أمها والشيخ
ابراهيم . فأحست بخيبة أليمة وحزن مرير .. وكانت الأم تشعر بنشوة
ولذة الانتقام لقد سقط ابن ابراهيم الشيخ صريعا بين الحياة والموت ..
وهاهو ابن (الغازية) سيوضع فى السجن بتهمة الشروع فى قتل . وفى
تلك اللحظة أقبل شيخ واهن العظم يجر ساقيه ويتوكأ على عصاه ..
ووقف بين القوم يلهث وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه .. وتبين فيه القوم
الشيخ معاطى فأخذوا لمرآه وعجب ابنه كيف استطاع أبوه أن يصل
الى المخفر وهو الذى لا يكاد يغادر فراشه .. وتحدث الشيخ موجها
القول الى المرأة المنتصبة أمامه فى عناد وتحدا والتى بدت فى عينيها
ومضة الفوز :

- أنا أعرف ما برأسك .. أعرف مالا يعرفه أحد من هؤلاء
كلهم .. أعرف طريقتك الصبورة فى الانتقام ، ولكنى أكره أن تحمل
أبنائنا أوزارنا .. انى وحدى المسئول عن كل ما حدث . أنا الذى
أدخلت الجرثومة الفاسدة فى معشرنا الطيب .. وأنا الذى كان يجب
على أن أتحمّل وزر ما فعلت .. كان يجب أن أقتل أنا زوجك دفاعا
عن شرفى المهين بدلا من أن أترك الشيخ ابراهيم يقتله وأتركك تتأرين
منه ومنها فى ولديهما .. كان يجب أن أقوم أنا بالتأربدلا من أن أدع
الغير يتحمل عنى وزره .. ومع ذلك فانى لا أجد الوقت قد فات فأنا

أشعر أنى قادر على أن أثار لنفسى ولك .. وأن أحمل العبء عنكم جميعا .

وانتفض الشيخ العاجز ، وفى لمح البرق ، وقبل أن يدرك أحد من الجمع ما ينوى أن يفعل .. اختطف بندقية من يد أحد الخفراء ثم أفرغها فى صدر ابراهيم شيخ الخفراء .. وخر الرجل صريعا ، وألقى الشيخ سلاحه وهو يقول :

- هكذا يجب أن يكون الثأر .

ثم حاول أن يتلمس عصاه ليتوكأ عليها .. ولكن قواه التى حشدها فى لحظة الثأر كانت قد خارت .. لقد استنفدت فعلته كل مابقى من زيت فى سراج حياته .. فكانت ثورته أشبه بومضة برق خبت بعد اشتعال .

وهوى الشيخ فى مكانه وتكأ كأ عليه الخفراء .. ولكنه كان قد أفلت من بين أيديهم .. لقد أطلقوا على جسده ، أما روحه فكانت قد صعدت هاربة .

وجر الحراس جسد الشيخين الى الخارج ، وأحست أم بهانة أن جذوة الثأر فى نفسها قد انطفأت .. وعجبت لنفسها كيف أمضت السنين الطوال تذكى لهيبها وتشعل أوارها .. وأحست أنه لم يعد هناك موجب للانتقام من محمود .. وغادرت المخفر مطأطئة الرأس منحنية الهامة .

ومدت بهانة يدها الى محمود فضغطت عليها معزية وهمست قائلة :
- لقد ظننته عاجزا .. ولكنه استطاع أن يدبر أمرنا قبل أن يرحل .. لن أتركك بعد هذا أبدا .

دُمُوعُ الشَّاعِرَةِ

موجة الحب قد غمرت الشاعرة .. وتيار الهوى قد جرفها فيما جرف ،
وهي التي كانت تجلس على الشاطئ مطمئنة آمنة .. تدفع بالناس
الى خضمه الصاخب وتناى بنفسها عنه .

كانت الشاعرة لا تباشر الحب الا بالألفاظ والقوافي .. وكانت
تلهب نفوس العشاق بأشعارها الحالمة ، ولا تتأثر هي الا بقدر ما يتأثر
حانوتى فى ماتم .

لم تدر من علّمها نظم القصيد .. فقد كانت شاعرة بالفطرة ..
وكانت تقوله لأنها لا يمكن أن تقول سواه .. ولم تكن هي نفسها لشعر
بسحره وقوته .. الا من انعكاسه على نفوس الناس .. ومن تأثيره فى
مشاعرهم .. كانت تعلّم الناس الهوى .. وهي اجهلهم به .. وكان
شعرها يفيض بالحب .. وهي أشد الناس خلوا منه .. كانت كساقى
الخمير يشمل الناس ولا يشمل .. ويملاً بالنشوة رؤوسهم وهو أبعد مايكون
عن النشوة .. كانت ساقية الهوى فى كؤوس الشعر .

وفى ذات مرة ذاقَت الشاعرة طعم الهوى .. وذاقته من يد ساحر
لم تقو على مقاومة سحره لحظة واحدة .. واستسلمت فى لين ورفق ..
ووضعت شفتيها على حافة الكأس وأقسمت ألا تكف عن الارتشاف ..
لقد أحبت الشاعرة !

أولئك الذين سلقهم بلسانه .. اذ كان انسانا ذا شخصيتين .. فهو
يبدو فى حياته رقيقا هادئا .. جم الحياء . أما على صفحات الصحف
التي يكتب بها فصول نقده .. فهو هجاء نقاد ، سلط اللسان لا يرق
ولا يلين .

ولم تك قد مضت أيام على سر ذلك النقد اللاذع الذى كبه
عن مسرحية (الخطايا) التى كانت تقوم فيها صاحبتنا بدور البطولة ..
فصب عليها جام سخطة ، أو كما قال كل من قرأ النقد : مرمط بها
الأرض .

ونفض بدوره ومدّ يده مصافحا .. وقام الأستاذ شاكر بواجب
التعريف .

- الأستاذ ابراهيم الكاتب العبرى والناقد المعروف .. أمينة هانم
فكرى الممثلة القديرة والنجمة اللامعة . هذا تعريف صورى لا محل
له .. فلا أظن كلاهما الا يعرف الآخر خير معرفة .

وصمتت برهة وهى تفحصه بعينها ثم أردفت قائلة :

- الأستاذ ابراهيم : تشرفنا يا أفندم .. طبعاً أعرفه .. ومن الذى
لا يعرفه ؟

وأحسن ابراهيم ببعض الارتباك وتمتم قائلاً :

- العفو يا افندم .

وصمتت برهة وهي تفصحه بعينها ثم أردفت قائلة :

- من الذي لا يعرفه ؟ ومن الذي لم يسلم من لسانه ؟ وهو أشبه بالفتوات داير يبطح في خلق الله .

وضحك ابراهيم وقال وهو يحنى رأسه في رقة وأدب :

- العفو يا افندم .

وتدخل شاكر قائلاً :

- تفضلى يا أمينة هانم .

ومد يده فجر كرسيه .. وجلس الثلاثة حول المائدة .. وصفق شاكر بيديه ينادى الساقى . وقالت أمينة موجهة القول الى ابراهيم .

- أريد أن أعرف يا أستاذ .. هل بيننا ثأر قديم وعداوة مبيتة ؟ ونظر اليها ابراهيم فاحصا .. فوجد بها نضارة عجيبة .. يندر أن توجد في الممثلات ، وصمتت برهة وأجابها ضاحكا :

- أتقصدين مثلاً أن أبى قد قتل أباك ؟

- سل نفسك .. ما سر تلك الحملات الشعواء التى تشنها على ؟

- ان واجبى النقد .. وأنا أحاول أن أقول الحق قدر ما أستطيع .

- لا .. لا يا أستاذ .. أنت هدام .. هذا ليس نقداً .. هذا ضرب بالسياط .. هل تدري .. أننى فكرت فى أن أزورك لأطلب منك الرف والرحمة ؟

- يا افندم العفو .. هذا كثير .. هذا تقدير لا أستحقه . فلا أظن تلك الكلمات التي أكتبها لها تلك القيمة .

- أشد ما يؤسف له أنها كذلك .. هل تدري أية خسارة سببتها لى حملاتك تلك ؟ أربعة عقود مع أربع شركات سينمائية مختلفة قد أضعتها من يدي .. ألم تقل عني في نقدك لفيلم (الهاربة) أني أتلفت الفيلم ؟ .. ان أسوأ ما في الأمر أن لكتابتك قيمة .

- هذا شيء لو كان قد حدث حقاً فاني عليه جداً آسف . أنا لم أقصد قط أن أسيء اليك .. ولكنني قصدت بنقدي اصلاحك .. فاني أرى فيك معدناً طيباً .. لديك ما يجعل منك ممثلة عالمية .. لديك مواهب كامنة لم تستغل قط .. ان عيبك - كما قلت من قبل - هو أنك لاتحيين في دورك . انك تؤدينه بطريقة سطحية ، لا حرارة فيها ولا عمق ولا ايمان .. يجب أن تكوني أنت نفسك تلك المخلوقة التي تقومين بدورك .

- اني أحاول ذلك فعلاً .

- المحاولة شيء والنجاح شيء آخر ، فالنجاح في التمثيل ليس مجرد النية والمحاولة ، ولكنه موهبة وجهد .. ان لديك الموهبة ولكنك لاتبذلين الجهد . فالجهد هو كما قلت لك أن تحيي في دورك ، فلا يبدو قط أنك تبذلين جهداً .. ان أقصى الجهد هو الذي لا يبدو جهداً .

- وماذا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك ؟

- عيشي في الدور الذي تؤدينه .. انسي نفسك .. ان لدى فكرة لأشك ، لو حاولت تنفيذها ، في أنها سترفعك الى القمة ، وتجعل منك شيئاً آخر .

- تنوى بيعها لى ؟

- لا .. بل سأهبها لك مجانا .. لقد قلت لك انه يجب أن تتلاشى شخصيتك فى دورك .. ويبدو لى أنك لاتستطيعين أن تفعلى ذلك بمجرد محاولتك أن تحيى فى دورك فى فترات التمثيل على خشبة المسرح .. أو أمام الكاميرا .. فلم لاتجربى أن تحيى دورك فى حياتك كلها .. سواء على المسرح أم فى الحقيقة ؟ .. ألبسى دورك فلا تخلعيه بمجرد مغادرتك المسرح .. بل ابقى كما أنت .. وأحيى دورك فى الطريق .. وفى الدار .. وفى كل مكان .. ولا تخلعيه حتى تنتهى منه تماما .

- ولكن هذا كلام خيالى يسهل قوله ويستحيل تنفيذه . هناك أدوار لا أستطيع أن أقمصها خارج المسرح . أدوار أكرهها لأنها قد لا تلائم طبيعتى .

- لاتقبلى قط أدوارا لا تحبينها ، أو لا تلائم طبيعتك .. لاتقبلى سوى الأدوار التى تتوقين الى الحياة فيها ، وتحسين بمتعة خلال القيام بها .

- لا تدعنا نحلق فى سماء الأوهام فلو فعلت ما تشير به ولم أقبل الا الأدوار التى أرغب فيها ما استطعت أن أكون ما أنا عليه ..

- بل لأضحيت خيرا مائة مرة مما أنت عليه .. لم لاتجربى ؟ وضحكت أمينة ، وتدخل شاكر بعد طول انصات ، وقال لها ضاحكا :

- لاتصغى اليه ، فلن تأخذى منه غير هذه الأوهام .. هو لايحسن سوى الكتابة .. المهم هو أن تعطيه الآن انذارا نهائيا لكى لايعاود الحملة عليك . ما رأيك ؟

وهز ابراهيم رأسه وهو ينظر اليها نظرات عميقة وقال :
- لو لقيتها قبل الآن لما استطعت أن أحمل عليها قط .

★ ★ ★

مضى على اللقاء عامان .. ونحن الآن فى حديقة احدى الفيلات
بمصر الجديدة وقد اضطجع ابراهيم على أحد المقاعد الطويلة ، وبدأ
شارد الفكر مغمض العينين . وقد أخذ يستعرض فى ذهنه ذلك اللقاء ،
وأخذ يذكر كل ما جرى بينها وبينه .. من كان يظن هذا ؟ من كان
يظن أنه أول من سيكتوى بنيران تلك الفكرة العريضة التى أوحى بها
اليها وقتذاك ؟ تحيا فى دورها ؟ لافى المسرح فقط بل فى الطريق وفى
الدار وفى كل مكان ؟ وتتقمص الشخصية التى تقوم بتمثيلها .. فلا
تخلعها حتى تنتهى تماما من أداء الدور وتفض يدها منه ؟

أى جنون هذا الذى دفعه الى أن يفضى اليها بذلك القول ؟ فض
فوه قبل أن ينطق بتلك السخافة التى تثقل اليوم كاهله وتذيقه الأمرين ..
ولكنه معذور ، فما كان يتخيل وقتذاك أن النصيحة ستقلب بمثل هذه
الطريقة ، وما كان يخطر له على بال قط .. أن ما حدث بينهما شىء
يمكن حدوثه .

لقد التقى بها بعد اللقاء الأول مرة ثانية وثالثة ورابعة .. وفى كل
سرة يلقاها يرى فيها شيئا جديدا . أجل لقد تكشفت له عن مخلوقة
عجيبة .. ليس بها من ذلك النوع الذى كان يظنه منها أى شبه أو
صلة .. مخلوقة مرهفة الحس ، طيبة القلب ، نقية السريرة ، شديدة
الذكاء ، حلوة المعشر ، يطغى جمال باطنها على جمال ظاهرها .

ومرت به الأيام وهو يحس أن قيذا يشد وثاقه اليها وأنه قد باتت ضرورة من ضرورات حياته ، لا يستطيع عنها حولا .. وأخذت هي الأخرى تنساب في تيار الهوى .. وبدأت تجد فيه نوعا من الآلهة ، وتجد في أحاديثه ونصائحه حكما سماوية يجب أن ترضخ لها ، وودت لو استطاعت أن تنفذ نصيحته الذهبية التي كان لا يفتأ يكررها لها .. (أحبي في دورك .. على المسرح وفي خارج المسرح .. ولا تخلعيه حتى تنتهي منه .. انسى نفسك وكوني دائما المخلوقة التي يود المؤلف إبرازها) .

وزادت رابطة الحب بينهما توثقا على مر الأيام ، ولم يكن يخطر بباله في يوم من الأيام قبل أن يلقاها أنه يمكن أن يتزوج ممثلة .. فقد كان يعتقد أن الممثلة لا يمكن أن تصلح زوجة وربة دار .

ولكنها بددت من رأسه تلك الأفكار .. فقد وجد فيها خير من تصلح لأن تكون زوجته وأم بنيه .. وجد فيها نفسا قوية أية حنونة ، وجد فيها بعدا عن التفاهة .. وجد فيها عمقا وحساسية .. فأقدم على الزواج منها .. وهكذا أضحي الناقد زوجا .. وأحست هي أن الله وهبها من نعمائه ما أعجزها عن الشكر .

وبدأ في ذلك الوقت عرض المسرحية الكبرى (الظلال المدلّهة) التي تقوم هي فيها بدور البطولة ، وسبق العرض بوفات عديدة ، بذلت فيها جهدا جبارا فقد كانت ترجو أن تبلغ الكمال ، حتى اذا ما ترفق بها في نقده ، ترفق بها غير مرغم ، كانت تريد الإجادة ، حتى اذا امتدحها كان أمينا في نقده . كانت تريد أن تثبت له أنها تحيا في دورها حقا وأن نفسها تلاشت في الشخصية الجديدة التي تقمصتها .. وبدأ هو يحس مبلغ ما في نصيحته من السخف والجنون عندما وجد أن

المخلوقة التي تدله في حبها قد أخذت تتسرب من يده ، المخلوقة العميقة الذكية الهادئة المتزنة الحس .. وأنه قد استبدل بها مخلوقة أخرى تافهة رعاء مخبولة تكره الدار وتبغض الأطفال .

وأسقط في يده ولم يدر كيف يقنعه أن تنسى نصيحته ، وأن من الجنون أن تستمر مرتدية تلك الشخصية التي تقوم بدورها على المسرح في حياتها الخاصة ، وأنه يجب أن تنسى كل شيء عن دورها بمجرد أن تترك المسرح ، والا أضحت الحياة بجوارها جحيما لا يطاق . وبدأ يذوق الأمرين في الاعتذار عن هفواتها وسخافاتهما وحماقاتها مع المعارف والأصدقاء ، ولم يكن يعزيه شيء الا أن المسألة ليست الا مسألة طارئة وأن دوامها لن يزيد على عرض الرواية ، وحمد الله على أن دورها على ما سببه له من متاعب خير بكثير مما كان يمكن أن يكون .

ونجحت هي في دورها الجديد أيما نجاح وبلغت في تمثيلها الذروة ، وقال عنها النقاد أنها امرأة عبقرية ، وأن المسرح لم ير مثلها منذ عدة أجيال ، وانتهى أخيرا عرض الرواية ، وأحس هو بعبء ينزاح عن كاهله ، وتنفس الصعداء عندما شعر أخيرا أن المخلوقة المثالية التي أحبها قد عادت اليه وأنها قد خلعت ثوب التفاهة الذي ترتديه .

ومرت عدة أسابيع وهو ينعم بحياة هادئة .. حتى كان ذات يوم وقد عاد الى داره ، فسمع صراخا شديدا ، وأسرع الى مصدر الصراخ فوجدها تقف أمام المرأة وقد تمزق ثوبها من فوق كتفها وتهدل شعرها على وجهها وبدت في عينيها نظرات فزع مجنونة ، ووقف أمام الباب يلهث ويسألها عما بها ، وفجأة انطلقت منها ضحكة عالية وقالت له :

٠٠ رأيت ؟

- فيم ؟

- في هذا الدور الجديد .

ثم مدت يدها اليه بمجموعة أوراق مخطوطة .. وأمسك هو بالرواية وأحس أن رأسه يدور به ، واتخذ مجلسه فوق أحد المقاعد ، ووقفت هي وراءه وقد أحاطته بذراعيها ، ومن الصفحة الأولى أدرك الرداء الذى تنوى زوجته ارتدائه ، أو على الأصح تبين أى زوجه جديدة يوشك أن يعيش معها .. لقد كان دور البطلة فى الرواية الجديدة (عاهرة مجنونة) ياساتر يارب .. عاهرة ومجنونة ؟

- لا .. لا .. الا هذا .

ولم يعد فى قوس الصبر منزع ، ونظرت اليه بعد أن أطبق الرواية وقالت له :

- طبعاً .. ستقول كعادتك دائماً ، أنها بايخة .

- لا .. لا .. ان عندى فكرة جديدة أود أن أعرضها عليك .

- أريد أولاً أن أعرف رأيك فى الرواية ؟

- لا أستطيع أن أبدى رأى فيها قبل أن أتم قراءتها ، ولكنى سأعرض عليك فكرة هائلة .

وسادت فترة صمت طويلة بدا خلالها كأنه قد استغرق فى تفكير عميق ثم قال لها :

- ما رأيك فى أن أكتب مسرحية خصصتها لك ؟

- أنت ؟ ولكنك لم تكتب مسرحيات من قبل .
- وهل هذا معناه أنى لا أعرف الكتابة ؟ سأكتب لك الدور
الذى خلقى من أجلك ، و خلقت من أجله .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وهو لا يفعل شيئا سوى كتابة المسرحية
الجديدة وقد سجن نفسه فى حجرته لا يزور أحدا ولا يكلم أحدا ..
وانتهى أخيرا من كتابة المسرحية ورسم بطلتها كما يشتهى .. زهرة
ناضرة .. يفوح منها الشذى ، ويتضوع منها العبير ، امرأة مثالية ..
سديلة الرأى ، صافية الذهن ، عاقلة مدبرة ، وفيه مخلصه .. ربة دار
وأم أطفال ، تعين زوجها على الحياة ولا تعينها عليه .. هادئة طيبة ،
حمالة للأسى ، صبورة على المكاره .. لقد رسم بها ذلك الشيء الذى
عشقه فى صاحبه وسلط عليها من أضواء قلبه وأوهام ذهنه ما وضعها
مصاف الملائكة .

وأعطاها الرواية لكى تقرأها وتبدى له رأيها فيها ، وجلس فى
الحديقة ينتظر فى قلق وخشية ، كيف ستقع الرواية من نفسها .
ومر الوقت بطيئا مملا حتى أحس بوقع أقدامها على رمال الحديقة
ثم أحس يديها تحيطانه من عنقه . وسألها هامسا :

- كيف وجدتيها ؟

فأجابت :

- مذهشة .

ثم أدارت وجهها فأبصر فى عينها دمعة تترقق وسألها فى
دهشة :

- ما بالك ؟

فقلت :

- لقد رسمتني كما تريد .. وسأكون كما رسمتني .

ثم مدت يديها اليه بالرواية وقالت :

- خذها لا حاجة بي اليها .. اني أستطيع أن أحيا في دوري
الذي رسمته بدون حاجة اليها .. اني سأحيا في دوري هنا في الدار
فقط .. سأنجب أطفالا في الحديقة لا على المسرح .. هذا هو دوري
الأخير .

★ ★ ★

المرأة الأولى

لم يكن يخطر على باله قط أنه سيلتقى بها .. عندما جلس والأستاذ على شاكر صاحب جريدة (المساء) في تراس شبرد يرشف قدحا من القهوة فاذا به يلمحها مقبلة تصعد درجات السلم في خفة .

ولقد تملكه من رؤيتها شعور بالدهشة والإعجاب فقد كانت في حقيقتها أكثر روعة مما تبدو على الشاشة أو على المسرح .. وشعر بالخيال والخشية من ذلك النقد الذي سلخها به منذ بضعة أيام .. وان كان قد أحس ببعض الطمأنينة لأنه توقع أن تمر به مر الكرام .. فلا شك في أنها لاتعرف عنه سوى اسمه .

وتشاغل بتصفح جريدة أمامه .. ولكنه لم يشعر الا وصاحبه قد نهض محبيا مرحبا .. ورفع بصره فاذا بها تقف وقد علت وجهها ابتسامة ساحرة .

كانت المرأة الأولى التي التقيا فيها وجهها لوجه .. فما رآها من قبل الا على الشاشة البيضاء أو على خشبة المسرح ومع ذلك كتب عنها

كما كتب عن سواها الشيء الكثير .. وكال لها من لاذع النقد ومرير الكلام ما هوى بها الى أسفل سافلين ، ولقد فاجأه اللقاء فما كان به شديد لهفة عليه .. فقد كان أكثر ما يخشاه هو لقاء .

فى ليلة عجيبة .. اقتطعها الله من لىالى الجنة .. وأسقطها لأهل لارض فاندست فى لىاليهم .. ليلة ظلمها من سماها ليلة .. فهى ليست من الليل فى شىء .. ففى سحرها نور أبهر البصر من نور النهار .. ليلة .. لاينام فيها الا الحمقى والمجانين ..

فى هذه الليلة جلست الشاعرة وحولها جمع من الخلان ، أسكرهم سحر الليل والخمر والهوى .. فانطلقوا فى الرقص والضحك .. ولم يكن بينهم انسان الا غمر النعيم ، وملأته النشوة .. وبدأ الغناء فصمت القوم وأنصتوا .. وراحوا من الطرب فى شبه غيوبة .. وانتهى الغناء فضج القوم بالتصفيق والهتاف .

ووقف بين القوم فجأة فتى أسمر الوجه ، دقيق التقاطع ، حلو الملامح .. وقد أمسك بقيثاره فى يده .. وأشار باليد الأخرى للقوم أن ينصتوا .. وأنكر القوم الفتى .. فقد كان غريبا مغمورا .. لم يسمع به من قبل فى عالم الغناء .. ولكن الفتى يأبه ، وأصر على أن يغنى .. وبدأ غناء بالفعل .. فاذا بالقوم تملكهم هزة ، ويتفضون ، كما انتفض العصفور بلله القطر .

هذا الفتى لايمكن أن يكون آدميا .. اذا ليس بانسان قط من كان مثله .. وان كان انسانا .. فلاشك أنه ساحر من السحرة .. والا لما ترك القوم هكذا جاحظى الأعين فاغرى الأفواه ، لا حراك بهم ، كأنهم أجساد بلا أرواح أو كأنهم أهل الكهف !

وانتهى من الغناء ، فردّت الروح الى القوم ، وجاشت فيهم
الحياة .. فانطلقت حناجرهم بصيحات الإعجاب ، وتكاكأوا على الفتى
يوسعونه تقديرا واعجابا .

وهذا القوم وسكتت ثائرتهم ، فصاح أحدهم يطالب الفتى أن
يغنيهم بعضا من شعر الشاعرة .. وظهرت الحيرة على الفتى .: وبدا
عليه أنه لم يسمع لا عن الشاعرة ولا عن شعر الشاعرة .

وأصر القوم على طلبهم ، فلقنوا الفتى من نظم الشاعرة أبياتا تسيل
رقة وعذوبة .. وسرعان ما ارتجل الفتى لها لحنا وبدأ فى غنائه .

وخيل الى الشاعرة أنها لاتبصر من حولها .. وأحست لحن الفتى
قد حملها بعيدا الى عالم ملئ بالفتنة والسحر .. عالم لا يحوى من
الكائنات سواهما .. وخيل اليها أنها تسمع همسات تقول :

(هنا لاتقع العين على غيرى ولاغيرك) .

أى عذوبة أضفاها اللحن على الشعر ؟ وأى جمال ، ورونق كساه
إياه ؟ .. أهذا هو حقا ما قالتة هى ؟ لاتظن .. فوالله ما أصاب الشعر
من نفسها عندما قالتة مثقال ذرة مما أصابه عندما غناه الفتى .. لقد
كانت التمثال .. وكان كنافخ الروح فيه .

وانتهى الفتى من الغناء .. وكم ودت لو لم يكن لغنائه من
نهاية .. بل يستمر يغنى ويغنى فلا ينتهى الا وقد انتهى العمر ونضب
معين الحياة .

ومنذ تلك الليلة ، والشاعرة قد غمرتها نشوة لاتكاد تفيق منها ..
لقد وقعت الشاعرة فيما أوقعت الناس فيه .. وذقت الكأس التى كانت
تكتفى بحملها الى العشاق .. فأسكرتها خمرها .

وأحست الشاعرة لذة الهوى ، وأدركت أن ما نظمته فى الحب
كان بالنسبة لحقيقته قشورا زائفة ، واندفع الفتى الموسيقى الناشئ فى
حبها حبا جنونيا .

ورحل العاشقان الى كوخ الفتى على شاطئ البحر .. ليمرحا
فيه فترة من الوقت بعد أن اتفقا على الزواج .

وروقت الشاعرة تطل من نافذة الكوخ وقد امتد البحر أمامها فى
زرقة عجيبة ، وصافح نسيمه الرطب وجهها فأحست أن بالحياة حقائق
قد تفوق فى متعتها أجمل الأحلام .. وعجبت لنفسها كيف استطاعت
أن تحيا فيما مضى دون حب .. وكيف كانت تحتل تلك الحياة
الجوفاء الخالية !

وأحست الفتاة بوقع أقدام تدب خلفها متسللة .. وكانت أذناها
لأنه لخطئان قط صوت أقدام الفتى .. ولكنها لم تتحرك كأنها ما شعرت
بقدمه .. لقد كانت تعرف ماذا سيفعل ، وكانت تتمنى أن يفعله فى
كل أونة .. كان كثيرا ما يتسلل اليها .. فلا تشعر الا وشفته قد مستا
عنقها فى لهفة وشغف فتسرى فى جسدها رعدة لذيدة ، وتتسلل
الشفتان الملهبتان من العنق الى الذقن الى الفم الى العينين .. فلا تتركها
الا ووجهها قد ألهبته القبل ، وكانت تحس به فى كل مرة عندما يتسلل
خلفها ولكنها كانت دائما تدعى أنها لا تشعر !

وكان كوخ الفتى - على صغره وبساطته - جميلا أنيقا .. وكان
المكان خاليا ألا من بضعة أكواخ صغيرة متشابهة .. وكان الفتى يعيش
مع أمه العجوز الطيبة التى رحبت بقدم الشاعرة أيما ترحيب ..
فقد كانت الفتاة رقيقة لطيفة المعشر .. حلوة الحديث .. فسرعان ما
جذبت اليها قلب العجوز .

وفى ذات يوم نزلت الى حديقة الكوخ فاذا بفتاة شقراء قد
جلست فى زكن الحديقة .. وعندما اقتربت منها الشاعرة وقفت الفتاة
فى احترام شديد وقد بدا عليها الخجل ثم قالت بصوت خفيض :
- لقد كنت انتظر خروجك فى لهفة .. أأست سيدتى
الشاعرة ؟

وفوجئت الشاعرة وبدا عليها الارتباك فقد انغمرت فى حياة
الهوى الجديدة ونسيت كل ما عداها .. حتى أنها شاعرة .. فقد خلا
رأسها من كل شىء الا الحب .. وصمتت لحظة ثم أجابت بهدوء :
- نعم .. انى هى .

وملأ السرور نفس الفتاة الصغيرة الشقراء، وافتر ثغرها عن ابتسامة
ساحرة جذابة ، وقالت فى فرح شديد :

- لقد سمعت اسمك يتردد على فم الخادمة ، ولم يخطر لى
على بال أنك الشاعرة التى أحفظ لها كل بيت قالته .. بل كل كلمة ..
بل كل حرف ، ولم تكن لى أمنية الا لقاءك .. أو حتى رؤيتك عن
بعد .. فتخيلى ياسيدتى أننى أسمع أنك تقطنين بجوارنا .. أى صدفة
عجيبة تلك التى ألفت بى الى هذه الناحية ؟ ! اننا لم نقطن هنا الا منذ
يومين ، وكنت لا أرغب فى السكنى فى هذا المكان ، ولكننا لم نجد
سواه .. فنزلنا فيه مكرهين .. فتصوّرى ياسيدتى أننى أسمع بعد ذلك
أنك تنزلين بجوارنا .. أى فرصة سعيدة ..

وكان الحديث يتدفق من فم الفتاة فلم يسع الشاعرة الا أن
تستمع . ولو قيل لها هذا الكلام فى غير ذلك الوقت لما أحست بأن
هناك من يعادلها غبطة وسعادة .. اذ لم يكن يسرها شىء قدر أن تسمع

ثناء المعجبين بشعرها .. ولكنها الآن .. لم تجد معنى لكلمات الفتاة فلم تسرها .. ولم تحرك مشاعرها .. لقد كانت زاهدة فى كل شىء غدا الحب .. لم تكن ترغب فى رؤية الفتاة أو غيرها .. لأنها كانت تود ألا يشغلها شىء عن فتاها المحبوب .

ولم تدر الشاعرة بم تجيب الفتاة وبدأت عليها الحيرة والضيق .. ولكن الفتاة لم تترك لها فرصة للحيرة فقد عاودت الحديث قائلة :

- الواقع ياسيدتى أنه لاشىء يبعث على الغبطة قدر أن يقابل المرء عظماء الناس .. ويجلس اليهم ويحدثهم .

وقطعت الفتاة حديثها ، فقد بدا الفتى فى باب الكوخ ، بقوامه الفارغ ، وملامحه الجذابة .. وأبصرت الشاعرة عيني الفتاة تبرقان بالإعجاب ، فأحست بشعور قلق مبهم ، وسألتها الفتاة بسذاجة :

- ترى من يكون؟

- أنه صاحب الكوخ ، وزوجى فى المستقبل .

واقترب الفتى .. فقدمت اليه الفتاة قائلة :

- جارتكم الجديدة .

وسلم عليها الفتى باسمها مرحبا . وقالت الفتاة :

- انه مما يشرف الناحية ياسيدى أن تنزل بها الشاعرة ، وسيسجل لها التاريخ ذلك .

وعلا صوت الفتى مقهقهها وأجاب :

- لم أكن أظن أنك على هذا القدر من الشهرة .. أو ترين أن أهل هذه الناحية مصابون بداء الشعر ؟

وضاقت الشاعرة ذرعا بمديح الفتاة .. وساءلت نفسها اذا كانت
الفتاة تنوى أن تضع عليها يومها بالاستمرار فى كليل ألفاظ المديح
والإعجاب .. وأحسّت بشدة بغضها للشعر .. والشعراء .. ووجدت
نفسها تقول للفتاة معذرة :

— كنا ننوى التنزه على الشاطئ .. فلعل مغادرتنا لك
لاتضايقك .

وحاولت الشاعرة أن تكون رقيقة فى اعتذارها .. ولكن جملتها
بدت جافة .. حتى دهش الفتى لها بعض الدهشة وبدا على وجه الفتاة
احمرار خجل طفيف .. وأجابت متلعثمة :

— بالعكس يا سيدتى .. انا التى أخشى أن أكون قد ضايقتك
بتطفلى .. ولكن عذرى فى ذلك هو شدة لهفتى الى رؤيتك .

وشدّت الفتاة على يديهما ، ورغبت الشاعرة فى أن تعتذر عن
خشونتها فقالت للفتاة :

— أرجو ألا تكفى عن زيارتنا بين آن وآخر .. فان زيارتك
تسعدنا .

وبرقت أسارير الفتاة وغادرتهما مغتبطة .

وانطلق العاشقان الى البحر وبنفس الشاعرة بعض القلق والخوف
والحقد ، والغير .. ولكن عند عودتهما كان كل ما بنفسها قد ذهب
وحل محله الثقة والاطمئنان .

وفى المساء جلس العاشقان ينعمان بأحلام الحب وأمانيه العذبة .
الى أن قال الفتى :

- لقد نشغلنا الحب عن الحديث عن شعرك .. لقد أدهشتني الفتاة بما قالت ، فاني لم أسمع منك غير تلك الأبيات التي غنيتها في أول لقاء .

- لاتصدق حديثها .. فأغلب ظني أنها طفلة حمقاء .. ودعنا من حديث الشعر .. فلا أريد أن يشغلنا الآن شيء عن حديث الحب .

وفى اليوم التالي عادت الفتاة في الصباح المبكر وهي تحمل معها رزمة من الورق ، واستقبلها الفتى مرحبا ، فسألته عن الشاعرة .. وأخبرته أنها تود لو تستطيع الفوز بتوقيعها على مجموعة الشعر التي سجلتها في هذه الأوراق .. وبعد هنيئة قدمت الشاعرة فما أن رأت الفتاة حتى عاودها القلق .. وسألته الفتاة في رفق وأدب أن تسمح لها بامضائها .

ودهش الفتى عندما وقع بصره على مجموعة الأوراق المليئة بالشعر .. وأخذ يقلب صفحاتها بين يديه وسأل الشاعرة :

كل هذا من نظمك أنت ؟

- نعم .

وسألته الفتاة في دهشة :

- ألم تقرأ لها شيئا ؟ انى لم أشغف بشيء في الحياة قدر شغفى بشعرها .

وأحست الشاعرة أنها لن تستطيع أن تحتل المزيد من مدح الفتاة .. وكان الجو ييشر بيوم شديد القىظ فاقترحت الشاعرة أن يذهبا للسباحة في البحر .. ولكن الفتاة صاحت دهشة متعجبة :

- أنت تسبحين ؟

ونظرت اليها الشاعرة نظرتها الى بلهاء أو منجنونة وسألتها في هدوء :

- وأى غرابة فى ذلك؟.

- شاعرة .. تسبح ! لم أكن أظن أن العظماء يستطيعون السباحة ، اذ يخيل الـى أنه ليس لديهم وقت لذلك .. وانهم لا يغادرون صومعاتهم. التى يتلقون فيها الوحى .

ولاحظ الفتى تبرم الشاعرة بالفتاة وأراد أن ينقذ الموقف فعرض أن يذهبوا جميعا للسباحة . فبدأ على الفتاة الفرح لهذا الاقتراح وانطلقت معهما الى البحر .

وكانت الفتاة ماهرة فى السباحة فاندفعت فى البحر .. واندفع مجها الفتى .. وحاولت الشاعرة أن تندفع .. ولكنها شعرت بالعجز والوهن .. وأحست أنها - كما قالت الفتاة - لاتعدو أن تكون شاعرة لا قبل لها بالسباحة .. وعادت الشاعرة الى الشاطئ .. وغاب الفتى والفتاة عن بصرها فى جوف الماء .. ولم تستطع أن تمنع لوعة تسربت الى نفسها .. ووجدت قدميها تسوقانها الى الكوخ فعادت من حيث أتت .

وجلست فى حجرتها حزينة واجمة .. لقد أحست بخوف من الفتاة منذ أن وقع عليها بصرها .. لم تدر ما سبب الخوف . ولكنها لم تستطع أن تمنعه وأحست بأنها مجهدة منهكة ، وغلبها الإعياء فراحت فى اغفاءة .

وعندما أفاقت كان الفتى والفتاة قد عادا .. وسمعت صوت الفتاة تتحدث .. فأنصت قليلا .. فاذا بالفتاة تقرأ للفتى أشعارها .

وقامت الشاعرة وأصلحت نفسها فى المرأة .. وكانت تحس
شعور البتأهب لقتال .. القدام على معركة .
وعندما أبصر الفتى الشاعرة نظر إليها نظرة بها بعض الغرابة
وقال :

- لقد حدثتني عنك بما كنت أجهل .. وقرأت لى الكثير من
شعرك .

ورغبت الشاعرة فى أن تنحو بالكلام ناحية أخرى فقالت :
- لقد أصابنى الإجهاد فى البحر .. لأننى فى حاجة الى كثرة
المران .
وردت الفتاة فى رفق ولين :

- لا أظن العظماء فى حاجة الى أن يجيدوا السباحة .
فهتفت الشاعرة فى خشونة :
- لا أظن هناك علاقة بين العظمة والسباحة .. ثم شيئاً آخر ..
أرجوك أن تكفى عن الزج بى فى معشر العظماء فما كنت منهم فى
يوم من الأيام .

وانصرفت الفتاة بعد قليل ، وجلست الشاعرة والفتى وحيدين ،
وأحست الأولى أن بالجو شيئاً لم تعتده .. كأن ستارا قد قام بينهما
وبين الفتى .

قالت : لم لا تتكلم .. انى أجس أن بنفسك شيئاً .. قل له أيا
كان .. فهو خير من الصمت .

- انى أسألك نفسى .. ترى هل أصلح لك .. لقد أخفيت عني
حقيقتك .. كنت أعلم أنك تقولين الشعر .. ولكنى لم أعلم قط أن لك

دواوينا يحفظها الناس عن ظهر قلب .. ما ظننت أنك عظيمة بهذا
القدر .. ولكنى أتساءل الآن .. يصلح هذا الفتى الموسيقى الناشئ
الذى لم يشق طريقه فى الحياة بعد لهذه الشاعرة العظيمة المتربعة على
قمة المجد .. انى لا أكره شيئا فى الحياة قدر أن أكون الشريك
الأضعف أو الأقل قدرا .. خير لنا أن ننتظر قليلا حتى أسير فى الطريق ..
ثم أصبح نذا لك .

وأحست الشاعرة أن قلبها يعصره الألم ، وأحست بالدموع
تترقرق فى عينيها وقالت :

— اذا كان الشعر هو كل مافى الأمر .. فأعدك ألا أقول الشعر
أبدا .

— هذا أسوأ ما فى الأمر .. فانى سأكون بذلك حجر عثرة فى
سبيلك .

ومرّت الأيام بعد ذلك ثقيلة مملة .. لم يحدث بينهما شيء ..
سوى أن تغير كل شيء ، ولم يفعل الفتى ما يحزنها ولكن لم يك يفعل
كذلك أى شيء .. لقد خبا الشوق وذهبت اللفتة .. لقد انطفأت ثورة
الحب التى كانت تتأجج بينهما .

وأخيرا أدركت الشاعرة أنه لم يعد هناك أمل فى نعيم أو رجاء
فى هناء ، وأن الأيام تباعد بينهما رويدا رويدا .. فقررت الرحيل ..
وذات صباح أنبأته بعزمها . وفهم الفتى فأطرق برأسه برهة . ولم يجب
بشيء .

وأعدت الشاعرة حقائبها .

وهمت بمغادرة الدار .. فاذا بالفتاة تجلس فى الحديقة كما رأتها
أول مرة ، ورفعت الفتاة رأسها وبدأت عليها أمارات الدهشة والحزن
وقالت :

- أبهذه السرعة ستغادريننا ؟ كم أود لو تبقين بيننا مدة أطول ،
ولكن هكذا العظماء دائما سريعو الملل والسأم .

وحدثتها الشاعرة بنظرة فاحصة .. فبدأ لها فى الفتاة شىء لم
تتنبه اليه من قبل .. شىء جعل الدم يغلى فى عروقها .. لقد لمحت
فى عيني الفتاة نظرات تهكم وسخرية وانتصار .. وبدأت لها الحقيقة
لأول مرة جليلة واضحة .. لقد كانت لعبة فى يد الفتاة التى ظنتها ساذجة
حمقاء .. سلبتها فتاها بطريقة عجيبة لم تخطر لها على بال قط .. لقد
أحبت الفتى ووجدت أن الشاعرة لاعيب فيها ولا نقص تستطيع استغلاله
لإبعاد الفتى عنها .. فلم تجد خيرا من الطريقة التى اتبعتها .. يا لها من
شيطانة ماهرة .
صاحت الفتاة :

- أيتها الماكرة الخبيثة كفى هزلا وسخرية .. لقد حاولت أن
تفهميه أن الفرق بيننا شاسع بعيد ، وأن أحدا فى القمة والآخر فى
الحضيض ، وغرست فى نفسه أن أحدا لا يصلح للآخر كى تأخذه
لنفسك .. لقد ظننتك حمقاء ، ولكن كنت أنا الحمقاء .

وبدا الفتى فى تلك اللحظة على الباب فصاحت الشاعرة باكية :
- انى أمقتكما !

وانطلقت تعدو الى الشاطئ هاربة من الكوخ .. وهناك استقرت
لحظة على احدى صخور الشاطئ وقد تلاحقت أنفاسها ، وبعد برهة

قصيرة خيل اليها أنها تسمع وقع أقدام خلفها فأدركت أنه صدى الذكرى
الماضية .. ولكنها أحست فجأة بشفتين على عنقها وانتقلت الشفتان
الى العينين المبللتين بالدموع واستقرتا أخيرا على الشفتين ، ولو خيرت
الشاعرة بين لذة هذه اللحظة ، وبين العمر كله ، لاختارت تلك
اللحظة .. لقد فهم الفتى كل شيء ولم يعد يخشى شيئا ، وصمم أن
يلغ الى قمة المجد حتى يتساويا وطلب منها أن تنشده بعضا من
شعرها .. فغناه لها .. وراحا فى نشوة من الهوى والشعر والغناء .

★ ★ ★

ليلى الطفولة

لم تكن لى أمنية فى ذلك الوقت الا السكنى فى ذلك ، البيت (المسكون) .. ولم يكن ذلك حبا منى فى الجن والأرواح التى كانوا يدعون أنها تسكنه .. ولا كان عن رغبة فى مشاكتها ومعاكستها .. بل كان كل ما يستهوئنى فيه ، هو شجرة التوت العالية التى تطل بفروعها المورقة من الحديقة الصامتة المتوحشة .

كنت وقتئذ فى الثانية عشرة .. وكنا نمر على الدار المسكونة كل صباح عند ذهابنا الى المدرسة .. ولم يكن يلذ لنا شىء قدر أن نمد أعناقنا الصغيرة من خلال قضبان السور الحديدى لنستطيع ما وراءه من أشجار متكاثفة متعانقة .

وكانت الحديقة تبدو لنا أنها بحر خضم لاتكاد تبلغ العين مداه .. وكانت عقولنا الصغيرة تتخيلها مليئة بالسحر والأسرار .

وما زلت أذكر تلك الأيام التى كنا نستيقظ فيها وضوء الشمس لم يظهر بعد . فنتسلل من دورنا خفية لنذهب الى الدار المسكونة قبل

أن يستيقظ حارسها الأسود العجوز .. فتسلق السور ونقطف أوراق التوت الذى كنا نحتاج اليه لتغذية دود القز الذى كانت تستهويننا تربته . وكان بيننا وبين الحارس عم محمد ، وهرأوته ، ما صنع الحداد ، وانى لأعجب الآن ماذا كان يود ذلك الأبله العجوز أن يصنع بورق التوت ، ولأى أمر كان يحرمه علينا ويجرى وراءنا بهرأوته صاخبا مهددا عندما يضبطنا متلبسين بجريمة الشعلقة على السور .

وتطوّر الأمر من رغبتنا فى قطف ورق التوت الى رغبتنا فى معاكسة عم محمد واستثارة غضبه .. والعبث به ، والسخرية منه . والواقع أننا قد برعنا فى هذا الأمر وتفننا فيه . وانى لأذكر ذلك اليوم الذى وطلدنا فيه النية على أن نقتحم الحديقة .. ونرتع فيها كما نشاء .. ونستكشف خباياها ونستطلع أسرارها .. وذهبنا الى الدار ومع كل منا هراوة وقد صممنا على ألا نفر من عم محمد .. بل نواجهه مواجهة التند للند .. ونطلب اليه أن يسمح لنا بالدخول ، فان رضى كان بها ، وان أبى فهو الجانى على نفسه .. وهو المسعول عما سيحدث له نتيجة العلقه الساخنة التى صممنا على أن نعطيها له .

وعندما وصلنا الى الدار لم نجد صاحبتنا على بابها .. ووجدنا الباب غير مغلق .. ونادينا فلم يجبنا أحد .. وخشنا أن تسللنا أن يكون الرجل قد وضع لنا كمينا ، فترددنا برهة ، ولكن أحدنا وهو محمود .. (أدى بولو) (هكذا كان يسمى نفسه تشبيها بأحد أبطال السينما) كان أكثرنا جرأة وأشدنا عفرتة .. فاقتحم الباب بخطوات ثابتة .. واختفى داخل الحديقة .

وبعد برهة قصيرة سمعنا منه صفارة طويلة ورأيناه قد أقبل فى توده وقد وضع يديه فى جيوبه كأنه يسير فى حديقة الخاصة .. ثم أشار إلينا بكبرياء أنه يمكننا الدخول .

ولكننا ترددنا وسألناه فى أصوات هامة :

- وعم محمد ؟

- لقد سجنته .: وكفى الله المؤمنين القتال .

ثم علمنا منه أنه وجدته منهمكا فى الصلاة فى حجرته .. فما كان منه الا أن أغلق الباب عليه بالمفتاح ووضع المفتاح فى جيبه ، وترك الرجل يصلى فى هدوء ما شاء له أن يصلى .

وكان يوما مشهودا من الأيام التى لايجود بمثلها الدهر ، أو هكذا هو على الأقل ما كنا نظن وقتئذ .

هذه الحديقة الساحرة العجيبة التى كنا نتشى لمجرد أن نمد فيها رؤوسنا من بين قضبان السور الحديدى .. قد أضحت اليوم ملكا خاصا لنا لا يشاركنا فيها أحد .. وعم محمد عدونا اللدود .. قد أضحى حبيسا مع هراوته .. لا يملك كلاهما لنا ضرا ولا أذى .

وكان الوقت ربيعا ، وكل ما فى الحديقة ملون مزدهر وأشجار المشمش قد رصعت بالزهور البيضاء كأنها فصوص الماس ، وأزهار البرتقال قد تفتحت وفاح منها العبير وانتشر الشذى ، والنباتات كلها تكاد تتفجر من فرط الحياة .

وانطلقنا فى أنحاء الحديقة .. وتسلقنا أشجارها ، وقطفنا الزهور والثمار ، وأغرقنا الحديقة بالمياه ، وعشنا ما شأنا لنا طفولتنا أن نعبث ونمرح ، ومثلنا كل أدوار البطولة التى رأيناها على الشاشة البيضاء من (طرزان) و (توم ميكس) .

وأخيرا .. وبعد أن أعيانا التعب .. وبعد أن استنفدنا كل ما نملك من قوى فى الجرى والقفز .. وبعد أن انتهت كل ما لدينا من وسائل

اللعب .. وبعد أن قلبنا أعلى الحديقة أسفلها ، وأسفلها عاليها ، وشققنا
في أرضها (حوض البحر الأبيض) و (نهر النيل) .. ورفعنا فيها (جبالا
الهملايا) ، و (هضبة التبت) ، وصنعنا من أفرع الشجر سفنا ومعابر
وأكواخا وقصورا .. ولم نترك زهرة واحدة باقية على فروعها ، ولا طيرا
واحدا هادئا في وكره .. أخيرا .. وبعد كل هذا فكرنا في العودة الى
دورتنا .

وهنا وجدنا أنفسنا في مأذق حرج . ماذا نصنع بعم محمد ؟ لم
يكن أمامنا الا أحد أمرين : اما أن نتركه في سجنه فيموت جوعا ..
واما أن نفتح له فيميتنا ضربا .

وفيما نحن حيارى .. رأينا (ادى بولو) يتركنا ويعود الى آخر
الحديقة ثم يعود معه حبل طويل ورأيناه يخرج المفتاح من جيبه فيربطه
في طرف الحبل ، ويعطيه لأحدنا ويأمره بأن يمسك به جيدا .. ثم يسير
هو بالطرف الآخر فيذهب الى حجرة الرجل .

وطرق الباب بيده طريقة خفيفة ونادى :

- عم محمد .

وهنا سمعنا صياحا وضجيجا كأن في الحجرة ثورا هائجا وعلت
من الحجرة ألفاظ السباب .. ووصلت الى آذاننا كلمات التهديد
والوعيد ، فشعرنا بالفرع والخوف .. وانهز (ادى بولو) لحظة صمت
من الرجل فصاح به :

- اسمع يا عم محمد .. اذا كنت تنوى أن تستمر على هذا
الهيجان والحمق فلن نكون مسئولين اذا تركناك تموت جوعا في
حجرتك كالكلب الغيبى .. واذا كنت تريد الحياة فاسمع الّى .

وسكن الرجل وأصغى .. فاستمر صاحبا في الحديث :

- سأعطيك المفتاح من أسفل الباب .. ولكن ليس مباشرة حتى لا تفتح الباب المفتاح وتلاحقنا بهراوتك ، بل سأعطيك طرف حبل ربط المفتاح في آخره .. فما عليك لكي تأخذ المفتاح إلا أن تستمر في جذب الحبل .. حتى يصل اليك المفتاح .

ثم مدّ يده فأدخل طرف الحبل من أسفل الباب واتجهنا إلى باب الحديقة ومعنا الحبل الذي ربط به المفتاح وأخذ الرجل يجذب الحبل من ناحية ، ونحن من ناحية فما وصلنا إلى الباب حتى كان الحبل قد امتد بطوله بين الحجرة وباب الحديقة ، فألقينا المفتاح ، وولينا القرار . وعدنا إلى دورنا .. كأننا لم نرتكب أمرا إذا ، ولا فعلا نكرا ، وتسللت من الباب واتجهت رأسا إلى الحمام حتى أزيل ما علق بي من طين وأوساخ .

وذهبت إلى حجرة الأكل ، ودار الحديث بين أبي وأمي عن أن البيت الذي نقطنه لم يعد صالحا لنا ، وأنه يفكر في الانتقال إلى بيت أوسع ، وأنه لا يدرى ماذا يمنعنا من أن نستأجر البيت الذي يدعى الناس أنه (مسكون) فليس هناك في الناحية بيت في مثل فخامته ولا ضآنة أجره .

وكدت أقفز من مكاني لفطر الفرح وصحت بأبي :

- أقسم لك أنه ليس مسكونا ، وأن الأمر لا يزيد على إشاعة كاذبة .

وشعرت بيد أمي تمتد من خلف المنضدة ، فتقرضني قرصة لاذعة في اللبايب ، وتنهاني زاجرة ناثرة :

- لقد قلت لك ألا تتدخل فيما لايعنيك .. كل وانت ساكت .
ثم وجهت الحديث الى أبى ، وشرر الغضب يتطاير من عينيها :
- ليم أر فى حياتى قط من هو أسخف منك الا ولدك ولا من
ولدك الا أباه .. أتريد منى أن أقطن فى هذا البيت الموحش المخيف ،
ان السكنى فى المقابر خير عندى وأفضل !
ولكنى أبى - بارك الله فيه - استطاع أن يقنع المرأة العنيدة بأن
تذهب لترى البيت ، فقد يتغير رأيها عندما تراه .

ولو أنجبرونى وقتئذ أننى قد صرت امبراطورا للعالم لما كانت
فرحتى بأشد منها عند ما عادت أمى وأخبرتنا أنها قد وافقت على
الانتقال الى البيت (المسكون) .

وكان فرحى فى الواقع قد بلغ حد الجنون ، حتى لقد رحى
أرقص فى الحجرات من فرط الطرب .. من كان يظن هذا ؟

هذه الحديقة الواسعة ستصبح حديقتنا وشجرة التوت ستصبح
كلها ملكا لى .. وسأدخل صبية الناحية ، يأخذون من ورقها ما
شاءوا .. وهم آمنون مطمئنون من شر عم محمد .

ولم يكذب يخطر على بالى عم محمد حتى قفزت من مكانى كأن
بى مسا من جنون ، وصحت أناطب نفسى :

- عم محمد ! (وقعت والا الهوى رماك) ، من كان يتخيل أن
هذا الحيوان الأسود العجوز ، الذى طالما نالنى من هراوته الشيء
الكثير .. سيصبح تحت رحمتى .. لقد أصبحت من الآن سيده ، سأأثر
منه لكل أطفال الناحية .

وانتقلنا الى دارنا الجديد ، وكان فرحنا بها لا يقدر ، فقد كانت الدار فاخرة حقا .. وكانت بها كل وسائل الراحة والرفاهية .. وكان من السخف أن نترك مثل هذه الدار طوال تلك المدة الطويلة . لا لشيء الا لمجرد اشاعات كاذبة أنها مسكونة بالجن والأرواح .

وكان يبدو على عم محمد أنه لم يكن مرتاحا لسكنانا فقد أخرجناه من مكمنه وأزعجناه في مأمنه ، وحرمانه من هدوئه الذي اعتاده وسط الدار الفسيحة ، الخاوية على عروشها .

وأزعجه أكثر من ذلك وحز في نفسه أن هؤلاء الصبية الذين كانوا يخشون جانبه ، ويفزعون من رؤيته .. قد باتوا يأمرونه فيذعن للأمر ، ويزجرونه فيزدجر ... وفقد سلطانه عليهم وعلى الدار .. فاستباحوا حماها .. وانتهكوا حرمتها .

ومرت الأيام ونحن نرتع في الدار ونمرح ، حتى حدث ذات ليلة ما روّعنا وملأ نفوسنا فزعنا .

سمعنا صوت أنين بدأ خافتا ، ثم أخذ يعلو رويدا .. رويدا ، ثم انقطع فجأة .. وفي الصباح نقب أبي في أنحاء الدار عله يعثر على مصدر الأنين ، فقد يكون قطعة مريضة أو كلبا جريحا ، ولكنه لم يعثر على شيء .

وفي الليلة التالية سمعنا الأنين نفسه ، وزاد عليه بعض الصراخ الذي جعلنا نكمش في أعطينا ، وجعلت أمي تقسم أن تترك الدار عندما تشرق الشمس .

وفي الصباح أرسل أبي في طلب عم محمد وسأله عن سر ذلك الأنين والصراخ ، فأطرق الرجل برهة ثم أجاب :

- انه صوت الفتاة السجينة .

وسأله فى دهشة :

- الفتاة السجينة ؟ هنا فى الدار فتاة سجينة ؟

وهزَّ الرجل رأسه ببساطة علامة الموافقة ، فصاح به أبى فى

سخرية :

- ومن الذى أجبرها على أن تظل سجينة حتى الآن ؟ ولم
لانتطلق الى حيث نشاء ؟ وفى أى حجرة تنزل هذه السجينة الحمقاء ؟

- انها فى البدروم يا سيدى .. وقد سمعت قصتها من أبى الذى
سمعها من جدى .. لقد قال لى هذه الدار كان يملكها فى غابر الزمان
أمير كريم المحدث .. عريق المنبت وسيم الطلعة ، متين البنيان ، وكان
يعيش فى الدار مع أمه وأخته .. وكانت أمه تود أن تزوج ابنها باحدى
الأميرات ولم يكن لدى الأمير اعتراض على ذلك . فقد كان خالى
القلب ، وسارت الأمور على خير حال .. حتى حدث ذات مرة أن
صدمت عربة الأمير فتاة فقيرة فى عرض الطريق ، فجرحت الفتاة ورق
الأمير لحالها فحملها الى بيتها وأحضر لها طبيباً ودأوم على زيارتها
والعناية بها .

وبرأت الفتاة من جرحها .. ولكنها وجدت نفسها قد أصيبت
بجرح آخر أعمق أثراً ، كان من العسير عليها شفاؤه اذ كان جرحاً فى
القلب لا فى الجسد ، فقد أحبت الفتاة الأمير حباً يائساً ووجدت نفسها
تتخبط فى هوى لا أمل فيه .

ووجدت الفتاة أن الأمير لم يكف عن زيارتها حتى بعد برئها ،
وأن عطفه قد ازداد عن ذى قبل .. وأخيراً اتضح للفتاة ان الأمير قد
بات هو الآخر صبا مولعا .

واندفع الأمير في تيار الهوى فتزوج الفتاة وحملها الى الدار ..
وقدمها الى أختيه . فأصابهما الذهول ، ولكنهما تمالكتا نفسيهما ،
وتصنعتا الترحيب بها .

وأحقق الأم أن يتزوج ابنها مثل هذه الفتاة الفقيرة .. ولم تطق
الفتاتان وأمهما أن تصبح الفتاة الوضيعة الأصل ربة الدار .. ففقدن النية
على التخلص منها بأي حال .

وفي ذات يوم غاب الأمير عن الدار في رحلة تستغرق بضعة أيام ،
فاستدرجن الفتاة الى القبور بالبدروم ودفعن بها الى داخله وتركنها
حبيسة فيه .

وظلت الفتاة في القبو مذهولة مشدوهة ، ثم بدأ الجوع يمزق
أحشاءها ، فأخذت تستنجد وتستغيث ، وعلا أنينها وصياحها حتى يح
منها الصوت وارتمت جثة هامدة .

وعاد الأمير من رحلته فأنبأوه أنها فرت هاربة .. فجن الرجل ..
وترك البيت هائما .. هذه هي القصة يا سيدي .. ومن يومها والأين
والصياح لا ينقطعان أبدا من القبو .

وانتهى حديث عم محمد وبدا علينا التأثر واستقر الرأي على أن
نغادر الدار بمجرد العثور على دار أخرى .

واجتمعت بأصدقائي من الصبية ، فقصصت عليهم النبأ ،
فأحزنهم أن يحرموا مرة ثانية من الحديقة .. وأن يعود (عم محمد) الى
مطاردتهم بهراوته .

وانصرف الجميع .. ولكن محمود أو (ادى بولو) لم ينصرف ..
ورأيته يقترب مني ويهمس في أذني أنه يخشى أن يكون في الأمر دسيسة

من عم محمد يراد بها اخراجنا من البيت .. ثم اتفق معى على أن تنسل
ليلا لمراقبة عم محمد والتقينا فى الليل واختبأنا خلف شجرة أمام حجرة
عم محمد وأخذنا ننتظر .

ولم تمض برهة قصيرة .. حتى رأينا الرجل قد خرج من حجرتة
يمينه ويساره .. ثم بدأ يخرج ذلك الأنين والصراخ الذى كان يملؤنا
فزعاً وهلعاً .

وعاد الرجل الى الحجرة ، وطلب منى صاحبي ألا أخبر أحدا
بما يفعله عجوز النحس .. وأن أقابله فى الليلة التالية ، واتفق معى على
الدور الذى سنقوم به .

وفى الليلة التالية سبقنا الرجل الى القبو ، وانتظرناه هناك قابعين
فى الظلمة ، وعندما سمعنا وقع أقدامه تقترب بدأ صاحبي يصدر من
فمه أنينا يشبه ذلك الذى يصدره العجوز ، فوقف مكانه متسمرا لا حراك
به وقد عقد الفزع لسانه ، وبدأت أنا أتكلم فى صوت خشن مقلدا
صوت الرجال :

- ماذا ييكيك يافاتتى ؟

ورد صاحبي مقلدا صوت الفتاة :

- لقد سجنونى فى القبو ، وتركونى بلا طعام ، وأشعر بالجوع
يلهب أحشائى .

- اطمئنى يا حبيبتى .. فانى سأحضر لك طعاما شهيا ..
سأحضر لك لحمة رأس أسود عجوز ، ولكنها بلا مخ .. لأن صاحبها
أحمق شرير .

ولم يكمل صاحبي حديثه ، فقد سمعنا عم محمد يصرخ صرخة
مدوية ، ورأيناه يولى الأدبار كأن به مسأ من شيطان رجيم .

وفى الصباح لم نر لعم محمد أثرا فى حجرتة .. فقد فر من
البيت .. ولم نعد بعد ذلك نسمع أئين الليل وعويله ، ولم يعد أحد
يدعى بعد ذلك أن البيت مسكون .. اللهم إلا رجلا واحدا .. كان يؤمن
فى قرارة نفسه أن البيت مسكون حقا .. ولم يك يجسر أن يقترب منه
قط . وذلك هو عم محمد .

★ ★ ★

عقبة بشر الليل

كان الوقت ابان الظهيرة .. وقد أظلتني من وهج الشمس شجرة عتيقة كأنها والزمن صنوان .. وجلس العجوز أمامي يسبح بمسبحة في يده ويتمتم بألفاظ لعله يستغفر ربه .. وبدا البيت أمامي كأنه قلعة ضخمة من قلاع العصور الوسطى .. فرددت لو استطعت أن أخترق ببصرى تلك السحب المسدلة من الجدران الضخمة حتى أبصر ما بداخلها من الأحاجي والأسرار .. وقلت للعجوز أستحثه على الكلام :

- تقول ان هذه الدار لم يقطنها انسى قط ؟ أتقصد بذلك أنه قد يكون بها سكان من نوع آخر ؟

- نعم يابني .. لقد استبدلت الدار سكانا بسكان .. لقد كانت الدار تعج بالحياة .. فأصبحت تضج بالصمت والعدم ، ولو أني لم أرها قط الا في هذا الصمت والعدم .. فمنذ أن وعيت على هذه الدنيا ، وأنا أبصرها كما تبصرها الآن .. موحشة كثية .. مقفرة مظلمة .. ولكن أبي قد أنبأني بقصتها التي سمعها عن أبيه عن جده .. فقد توارثت

عائلتنا الحراسة فى هذه الدار جيلا بعد جيل .. حتى أصبحنا لازمة من
لوازمها كهذه الشجرة التى تظلنا الآن ..

تبدأ قصة هذه الدار فى غابر الزمن عندما كانت قصرا لحاكم
المدينة وكان رجلا حكيما عادلا .. وكانت قلوب الرعية تفيض بحبه
والولاء له .. ولكن البلاد كانت ترزح فى ذلك الوقت تحت نير سلطان
أجبنى .. وكان على حاكم البلدة أن يؤدى له جزية سنوية فادحة ..
ففى احدى السنين طلب منه السلطان أن يضاعف الجزية ، ووجد
الحاكم أن ذلك افراط فى الحيف والظلم .. فرفض أن يعجب السلطان
الى مطلبه وأعلن العصيان .

وكان السلطان فتى طائشا أحرق فتملكه الغضب وأمر بأن يجهز
جيشا لتأديب ذلك الحاكم العاصى .

وبدأ الحاكم يكوّن جيشا من أهل المدينة لصعد الجيش الغازى ..
وسرعان ما احتشد أهل المدينة وقد تناولوا كل ما استطاعت أن تصل
اليه أيديهم من أسلحة وهراوات ، وفؤوس .. واصطدم جيش الطغاة
بأهل المدينة البواسل ففتك بهم فتكا شديدا .. وتحصن الحاكم وبعض
من جنوده فى هذه الدار .. فلم تطل مقاومتهم الا فترة وجيزة .. استطاع
الغزاة أن يقتحموا بعدها الدار فسقوا الحاكم ورجاله كأسا دهاقا ومزقوا
جثثهم اربا اربا .

وسيقت النساء سبايا .. وبدأ السلطان الأحرق يستعرضهن واحدة
واحدة .. وكانت أولاهن ابنة الحاكم ، فأخذ الفتى بجمالها .. ولم
يستطيع أن يقاوم بريق عينيها أو سحر شفيتها ، ولم يحاول أن يرى غيرها
من السبايا .. بل أمر حاشيته وقواده بأن ينصرفوا عنه ويتركوه مع الفتاة .

وقع السلطان فى شرك هواها وحاول أن يستميلها اليه . ولكن قلبها كان يفيض بالبغض والكراهية له .. ولم يجد اغراؤه اياها بالزواج .. وبأن تكون ملكة متوجة ، فقد استمرت تلقاه فى جمود كأنها جسد بلا روح .. وأخيرا نفذ صبره .. فصمم على أن ينتزع منها الحب انتزاعا .. فأمر بأن توضع قبة فى أسفل الدار .. وأحضرت أحد البنائين وأمره بأن يقيم جدارا يسد به باب القبو ، فلا يترك منه الا فتحة ضيقة .. وأنبأ الفتاة أنه سيدفنها حية فى هذا القبو أن استمرت على ازدرائها اياه واحتقارها له .. وأخبرها أنه سيرك لها فرصة يوم لتنبئه بما استقر عليه رأيها .. وأن عليها الآن أن تختار بين حبه وبين هذه الميته المخيفة .

وفى اليوم التالى نزل الفتى الى القبو وسألها : اما زلت مصرة على نفورك ؟ .. ولكن الفتاة استنكفت أن تجيبه .. فما كان من الطاغية الا أن سد الفتحة الباقية من الجدار .. وترك الفتاة حية فى قبرها .

وفى نفس اليوم اشتعلت بين جنود الفتى فتنة فثاروا عليه وهاجموا القصر ، فحاول تهدئتهم ، ولكن أحد الجنود طعنه فى صدره فخر الى الأرض صريعا ، وأحس أن نهايته قد أخذت تدنو وشعر بالندم يخزّه على حبسه الفتاة حية فى ذلك القبو .. وبدأ يتحامل على نفسه فأمسك بفأس وأخذ يزحف بها نحو القبو حتى وصل الى ذلك الجدار الذى أقامه ، وهم برفع الفأس ليثقب الجدار ، ولكن قواه خاتته فهوى الى الأرض جثة هامدة .. وبقيت الفتاة حبيسة فى قبرها .. وبعد بضعة أيام ثار أهل المدينة فطردوا جيش الغزاة . واستردوا دار الحاكم ولكن أحدا لم يجسر أن يقطنها أو يزاحم هذين الروحين اللذين يأبيان أن يفارقاها .. فاحداهما حبيسة فى القبو الأخرى حائرة اما الجدار تحاول اخراجها .

وصمت العجوز فكدت أنفجر من فرط الضحك .. يا للأقصوبة
المتعة ! أهذا هو ما يخيف الناس من سكنى الدار ؛ روح سجيّة في
القبو وروح تحاول هدم الجدار .. أمن أجل هذه الخرافة المضحكة التي
يروّنها العجوز الأحمق تبقى الدار مهجورة مقفرة طوال تلك السنين ؟ ..
وإذا كانت تلك العقول الضيقة قد صدقت هذه الأسطورة الركيكة ..
فلم لا يحاول أحدهم أن يدخل الدار فيهدم بنفسه ذلك الجدار ويطلق
الروحين الحائرين الى حال سيّلهما ؟

ونظر الّى العجوز نظرتة الى طفل أبله .. ثم هز رأسه وقال في
هدوء :

- يا بني . كف عن السخرية فما رويت لك الا ما سمعت .
وما أظن أن أبى قد روى لى الكذب .. وعلى أية حال ، فهب أن القصة
كلها محض خرافة .. فماذا ترى فى أولئك الذين سخروا منها كم
سخرت أنت ، وحاولوا أن يقطنوها ، فلم تمض بضعة أيام الا وقد رزئوا
بموت واحد منهم ، فعجلوا بالقرار منها وتركوا الدار بتحفها الثمينة
ورياشها الفخمة .. دون أن يجسروا على العودة اليها قط .

- أما انهم رزئوا بموت واحد منهم .. فلا أظن الدار لها دخل
فى ذلك الأمر .. الا اذا كنت تظن أنهم مخلصون فى الحياة .. وأما
أنه مات بعد بضعة أيام من سكنهم الدار فالمسألة لاتعدو أن تكون
مصادفة .

وتشعب بى الحديث مع العجوز فى نواح مختلفة حتى أحسست
بقصرّة الجوع تلذع أحشائى ، فعدت أدراجى الى الفندق الذى أنزل
فيه والذى يبعد كثيراً عن الدار .

ولم يكذب الظلام يسدل ستوره حتى وجدتني أعود أدراجي الى الدار .. لقد كنت فى لهفة الى التسلل اليها والتجول فى حجراتها ورؤية ما بها من تحف مهجورة معطلة ، ولم يكن يلوح لى أى أثر قريب أو بعيد لتلك الأرواح التى حدثنى عنها العجوز فما كانت أو من قط فى أية لحظة من لحظات حياتى أن هناك عفاريت أو شياطين أو ما يشابههما ، وما كنت لأشغل ذهنى بالتفكير فيما هو ليس بكائن الا فى الأوهام والأحلام .

ولم تكن هناك أية صعوبة فى التسلل الى الدار ، فالعجوز كثير النوم بطيء الحس .. وهو لا يخطر لباله قط أن هناك من يجروء على الاقتراب من الدار .. بل اقتحامها والتهجم على سكانها من الأرواح والأشباح .

وقفزت على السور .. ثم عالجت احدى النوافذ بفأس عثرت عليها فى أرض الحديقة فلم أجد صعوبة فى فتحها .. وبعد هنيهة وجدت نفسى فى حجرة موحشة ، شديدة الظلمة ، فأشعلت عود ثقاب تبينت على ضوءه بضع شموع فى ركن الغرفة فأسرعت باشعالها .. وسرت أتجول فى الدار .. فاذا بها دار رحبة فسيحة مليئة بالتحف القيمة والتماثيل والصور .. ولم أجد بها قط ما يخيف أو يثير الذعر .. وأخذت أفكر فى سخف الإنسان الذى يهجر مثل هذه الدار خوفا من أرواح مزعومة .. واستعدت فى رأسى تلك القصة التى سمعتها من العجوز . فوجدتني أضحك مرة أخرى . ولكنى توقفت عن الضحك فجأة .. ا سمعت حركة خفيفة .. وخيل لى أن هناك وقع أقدام تقترب . فخشيت أن يكون الحارس قد تنبه من غفلته وأبصر بضوء الشموع يد من خلال النوافذ فدخل الدار يستجلي الأمر .. وخشيت أن يظن

العجوز لصا قد اقتحم الدار يغني السرقة .. فبصيح مستنجدا بأهل
الناحية .. وأقع أنا في مأزق الله أعلم بنهايته .

ولم أدر كيف أجيب اذا ما سئلت عن سبب وجودى فى ذلك
الوقت من الليل فى هذه الدار الخاوية .

وتخيلت نفسى أعدو وخلفى كل من هب ودب من صبية
ورجال .. ثم رأيتنى قد وقعت فى أيديهم ، فتهافتوا على ضربى ولكمى
كأنهم كانوا ينتظروننى بفارغ الصبر .

ولم يأخذ منى التفكير فى هذا المنظر البغيض الا ثوانى معدودات
برق لى على أثرها خاطر وجدت فيه خير منقذ من هذا المأزق الحرج ..
بل وجدت فيه تسلية وحورا .

هذا العجوز الأحمق الذى أسمع وقع أقدامه تقترب والذى
سيضبطنى بعد لحظات متلبسا بجريمة السرقة .. ليس هناك أسهل من
خداعه .. فلا شك أنه يؤمن ايمانا قويا بوجود أرواح فى الدار .. فلم
لا أكون أنا أحد هذه الأرواح فأجعله يفر أمامى مرتعدا ويعود أدراجه
من حيث أتى .

وفى لمحة عين قعدت مكانى وأمسكت بالفأس التى فتحت بها
النافذة ، وجذبت غطاء أبيض فلففت به جسدى من قمة رأسى الى
أخمص قدمى وأطفأت الشموع ووقفت أنتظر ..

وساد السكون .. فلم أعد أسمع بعد ذلك وقع الأقدام التى كانت
تقترب .. وخيل لى أن العجوز قد عاد أدراجه وكفى الله المؤمنين
القتال .. فأحسست بالضيق .. وتحولت رغبتى من الفرار والنجاة ..
الى رغبة فى الهزل والمزاح .. ووجدت أن هذه الفرصة - فرصة أن

يكون المرء عفريتاً أو جنياً أو روحاً - قد لاتسبح لى مرة أخرى فى هذه الحياة .. فخطوت بضع خطوات فى الظلام ، ودلفت الى الحجرة التى تخيلت أنى سمعت صوت الأقدام يصدر من ناحيتها .. وقا. أمسكت بالفأس وجمعت أطراف الملاء البيضاء حول جسدى فلم يبد منها الا عيناى .. وانتظرت أن أرى العجوز وقد تسمر فى مكانه من فرط الفزع .

ولكنى بدلا من أن أرى العجوز .. رأيت عفريتاً قد اتشح بالبياض وملكتنى الحيرة فلم أدر كيف أبدا الحديث .

وأخيرا تحدثت العفريت ليسألنى من أكون .. فاذا بصوته ملئ بنعومة ورقة ، من النوع اللطيف .. فأدركت أنها عفريتة .. واطمان قلبى قليلا .. ورأيتنى أعود بذهنى دون أن أدري فأستعيد قصة العجوز .. وقلت لنفسى ان صاحبتنا لابد وأن تكون الفتاة سجينة القبو .. وأحسست برجفة تسرى فى بدنى فقد خشيت أن تظننى الفتى الذى سجنها فيكون نصيبى منها عداوة لا أستحقها .. فأسرت لنفى الشبهات عن نفسى ولأبين لها حسن نيتى .

قلت : الظاهر أنى تأخرت قليلا .. فقد كنت فى طريقى الى القبو لأطلق سراح سيدتى ..

وسادت فترة صمت قبل أن تقول :

- أبعد هذه القرون التى مضت .. جئت الآن تفكر فى اطلاق

سراحى ؟

يا للسخرية ! إذن فهذه العفريتة البلهاء تظننى عفريتاً ! وماظننت قط أن العفاريت بمثل هذه السذاجة !

واقتربت من الشبح الأبيض وجثوث على ركبتى وقلت هاتفا :
هذه القرون التى ولت .. لم تزدنى الا لهيبا .

وخيل الى أن أبصر ابتسامه سخرية تلمع فى عيني العفريتة .. ثم
سمعتها تقاطعنى بصوت يغلبه الضحك : - ضم الملاءة قليلا الى
جسدك .. فالعفاريت لا يلبسون البنطلون .

ونظرت الى أسفل فاذا بالملاءة قد انحسرت عن ركبتى فظهر
البنطلون .

يا للكارثة .. لقد اكتشفت الخبيثة كذبتى .. وشعرت بالحيرة
تتملكنى ولم أستطع الا الاستمرار فى الكذب فسألتها : ومن حرم على
العفاريت لبس البنطلون .. أليس فيه ستر من العرى ؟ .. ان كان
البنطلون يعتبر لديك مانعا من أن أكون فى زمرة العفاريت .. فأظن أن
المسألة بسيطة جدا .

ثم مددت يدي الى الحزام وهممت بخلع البنطلون .. وبدأت من
العفريتة صرخة خجل ورأيتها ترفع يدها فتحجب بها عينيها .. بينما
انحسرت ملائحتها قليلا . فأبصرت منها ما جعلنى أشك كثيرا فى سلامة
عقلي !!

يا للذكاء الذى خبا .. العقل الذى ضل .. هذه العفريتة لا بد وأن
تكون آدمية من لحم ودم ، فأغلب ظنى أنها قد سمعت من الحارس
العجوز القصة كما سمعتها وساقها حب الاستطلاع كما ساقنى .. ثم
أحست بضجتي كما أحسست بضجتها .. ففعلت كما فعلت والتقينا
نحن الاثنين .. ولكنها كانت أكثر منى ذكاء فكشفت أمرى قبل أن
أكشف تديرها .

ولم أر خيرا من أن أقوم فأحتضن الفتاة وأوسعها لثما وتقييلا ..
وحاولت التخلص من ذراعى صائحة : (انى أمقتك .. اننى أفضل العودة
الى سجنى فى القبر المظلم) .

يا للفتاة الحمقاء .. أما زالت مصرة على أنها عفريتة !! .. اذاً
ليكن لها ما تشاء .. ورفعت الملاعة من الأرض فلففت بها نفسى
وأمسكت بالفأس .. وسألتها التكرم بلقاء آخر .

وفى اليوم التالى تسلت الى الدار وارترديت ملابس العفاريت ..
وبعد لحظات أحسست بوقع أقدام العفريتة متشحة بملاءتها البيضاء ..
وكان بيننا حديث ذو شجون .. وعندما افترقنا كانت العلاقات بيننا
علاقة ود وصداقة . وتكرر اللقاء بيننا .. فى نفس الموعد ونفس
الطريقة .. وبدا الحب ينشب مخالبه فى قلبينا رويدا رويدا .

وأخيرا أبصرت العفريتة للمرة الأولى فى وضح النهار .. ورأيتنى
هى الأخرى .. وليتها ما رأيتنى .. فقد كنت أسير مع احدى صاحباتى .

وفى المساء ذهبت الى الدار .. وانتظرتها فلم تحضر .. ومضت
بضعة أيام وهى ممعنة فى هجرتها .. وأخيرا التقيت بها فى ضبيحة ذات
يوم .. وأبصرت فيها آدمية فاتنة ساحرة .. فانتحيت بها جانبا وهمست
فى أذنها :

- ما ظننت قط أن العفاريت تغير من الآدميين !

- كفى عبثا .. لا أحب الخديعة .

ونظرت الى الفتاة فأدركت أن نصفى الآخر لايمكن أن يكون
الا هى .. فعزمت على الزواج منها وأن نقطن الدار التى التقينا بها اول

مرة .. وأقمنا العرس فى الدار وملأناها بهنجة وحبورا .. ومضت بضعة
أيام ونحن ننعـم بالحب والهنا .

وذا ت يوم أخبرتنى الفتاة المحبوبة أنها تحس بوعكة .. ولزمت
الفراش وأخذت فى الذبول كأنها زهرة تذوى . حتى حلت نهايتها
أخيرا .

وتركت الدار المخيفة ورأيت حارسها ينظر الى باشفاق وسمعته
يهمس : لقد حذرتك فأخبرتني أن المسألة لاتعدو الصدقة .. ليتك
صـدقتنى !

★ ★ ★

وَتُومَ الرَّجُلِ الرَّحِيمِ

كانت رؤية الرجل تثير الرعب في قلوبنا .. وكان منظره يبعث في أبداننا
قشعريرة ويملاً نفوسنا هلعاً .

وكان أول ما أذكره عنه هو تلك الصورة التي طبعت له في رأسي
منذ عشرات السنين ونحن ما زلنا أطفالاً نلهو ونعبث .. ومازلت أذكر
حتى الآن تلك الحجرة المترامية الأطراف في منزلنا العتيق وقد أويت
وأخوى الى مضاجعنا ومعنا الخادمة التي كانت تقوم بمهمة تنويمنا ..
ولم يكن هناك أثقل علينا في ذلك الوقت من أن نأوى الى مضاجعنا ..
فقد كنا نكره النوم لأنه يحرمنا من لذة اللعب واللهو وكنا نتمنى لو
جعل الله الليل والنهار معاشاً ، حتى نستطيع أن نواصل اللعب ليل نهار .

وكانت الخادمة تضيق ذرعاً بنا .. وبإصرارنا على عدم النوم ..
ففكرت في أن تخيفنا حتى نضطر الى الانكماش في الفراش فيغلبنا النوم
ونروح في سبات عميق .. وبدأت عملية التخويف فأخبرتنا أننا اذا
استمررنا على هذه العفرتة والشقاوة وأبينا أن ننام ، فستضطر الى أن

تشكونا الى الشيخ (شيبون شيبير) وهو كفيل بأن يأكل من كل منا ذراعاً أو ساقه .

وقفزنا من الفراش وأمسكنا بتلابيب الخادمة وسألناها عمن يكون هذا الشيخ الشيبون وما قصته وما شكله ، وبدأت الخادمة تصفه لنا فأنبأتنا أنه جنى يبدو فى صورة رجل ضخم الجثة عريض المنكبين .. ذو وجه قبيح مخيف ونظرات شريرة قاسية يتطاير منها شرر ينير له الطريق عندما يسير فى الليل وأن أسنانه حادة كالسكاكين وأظافره قاطعة مدببة كالمخالب وأن أقدامه ليست كأقدام الإنسان بل هى أشبه بحوافر الخيل .. وأنه مولع بأكل الأطفال وخاصة الأشقياء منهم والذين يرفضون النوم .

وتشككنا أول الأمر فى حديث الخادمة .. ولكنها أرتنا أثر جرح فى ساقها وأكدت لنا أنه عضه من الشيخ (شيبون) عندما رفضت النوم ذات ليلة وهى طفلة صغيرة .. فبدأت عقولنا الصغيرة تؤمن أن الأمر ليس به خدعة .. وزادنا يقينا من صحة كلامها تلك الأصوات الصادرة عن حوافر الخيل التى تجر عربات الحنطور والتى تقرع أرض الطريق قرعاً منتظمة .. فقد أكدت لنا الخادمة أنها وقع أقدام الشيخ (شيبون) وهو يبحث عن الأطفال الأشقياء .

وهكذا رسمت الخادمة فى أذهاننا صورة مروعة لذلك الشخص مخيف الذى ابتكره ذهنها وأوحى به خيالها .. حتى تستطيع اربابنا نت الحاجة .. ولتسوسنا به اذا استعصى عليها أمرنا .

والى هنا ليس فى الأمر غرابة أو عجب ، فما من طفل الا وله بعبع يخيفونه به حتى يرتدع ويزدجر ، وما أظن الشيخ شيبون يختلف فى شىء عن (أبو رجل مسلوخة) أو (عفريت الليل ، بسبع رجلين) الى

آخر هذه الشخصيات الخيالية التي ابتكرت لإرهاب الأطفال .. ولكن العجيب حقا هو أن ينقلب شيون فيصبح حقيقة لا وهما .. وأن نراه أمامنا جسدا متحركا .. لا طيفا ولا شبعا ، وانسانا من دم ولحم لا خرافة ابتكرتها رأس خادمة .

ففى ذات يوم وقد أخذنا نلهو بالكرة أمام المنزل قذف أحدها بها فأصابت ظهر أحد المارة .. وعدوت لآخذها .. فاستدار الرجل التى بوجه غاضب ، وتسمرت قدمى فى الأرض ولم أستطع أن أكنم صرخة فزع انطلقت من صدرى .. فلقد كان الرجل هو (الشيخ شيون شير) . نعم أقسم أنه هو !! فهذا الجسد الطويل الضخم كأنه المارد وهذا الوجه القبيح الدميم ، وتلك النظرات القاسية الشريرة الصارمة .. وهذا الشر الذى يكاد يتطاير من عينيه .. والأظافر التى تبدو كأنها مخالب طير كاسر ، وتلك الملابس العجيبة الفضفاضة . كل هذا لا يكون الا له .. نعم انه هو بعينه بلا أدنى ريب ولاشك .

ووجدت الرجل يمسك بالكرة فينشب بها أظافره ، ويمزقها اربا اربا ، ثم يقذف بها فى وجهى ويمضى فى سبيله ووجدتني أقف فى مكانى مذهولا مشدوها .. وقد أخذت عيناي تتبعان الرجل .. وتبحثان عن قدميه .. حتى يتأكدان أنهما حوافر خيل .. ولكن الرجل اختفى .. دون أن أستطيع تمييز قدميه فقد أخفتها ملابس الفضفاضة الجرارة .. وان كان وقعهما على أرض الطريق يشبه الى حد كبير تلك الطرقات التى كنا نسمعها فى بهمة الليل .

وعدت أدراجى أحمل أشلاء الكرة التى فتك بها الرجل وأنا أرتجف من الفزع فاذا ببقية الأطفال قد ولوا الى دورهم مذعورين .

وفى الليل أنبأت الخادمة هامسا : اننى رأيت شيون ، فبدت
منها ضحكة عالية ولكنها سرعان ما كست وجهها ملامح الجذ وأنباتنى
هامسة :

- ألم أحذرك منه ؟ اياك بعد ذلك والعفرتة .. لقد اكتفى هذه
المرة بتمزيق الكرة .. ولكن لا أظنه سيكتفى فى المرة القادمة.
الا بتمزيق جللك وسحق عظامك .

وشجع هذا الحادث على أن تمنع الخادمة فى اخافتنا بالشيخ
شيون ما دام قد دخل فى روعنا أنه حقيقة لا خرافة .. حتى حدث
ذات يوم أن رأيت بعينها ذلك الرجل الذى رأيته .. ومن ذلك الحين
وهى لم تحترأ على ذكر اسمه قط .. فلقد صدمتها رؤيته صدمة كادت
تذيب قلبها .

كان ذلك قبيل الغسق وقد خرجت والفتاة لقضاء حاجة من
السوق .. ولم نكد نبتعد عن الدار حتى وقع بصرنا على منظر بعث
الرعب فى نفوسنا .. فقد سمعنا فى البدء صراخ طفل .. فلما اقتربنا
من مكان الصراخ تسمرت قدماى فى الأرض فقد أبصرت شبح عملاق
تبينت فيه ذلك الرجل الذى مزق لنا الكرة والذى استطعت أن أجزم
أنه هو نفسه الشيخ شيون ذو الحوافر والمخالب .. وقد قبض باحدى
يديه على عنق الطفل .. وبالأخرى على هراوة أخذ ينهال بها على جسده
بقسوة ووحشية .

وأمسكت بالخادمة بكلتا يدي كما يتشبث الغريق بلوح من
الخشب .. وخبأت وجهى فى ثيابها وصحت بصوت مبجوح مرتعد :

- شيون !!

ويستطيع المرء أن يتخيل ما أصاب الفتاة من ذعر وفزع وهي ترى تلك الصورة التي ابتكرها ذهنها وحشدت فيها كل ما طاف برأسها من أصناف مرعبة مخيفة .. قد تجسدت وصارت كائنات حيا هو ذلك المخلوق المرعب الذي لايفصله عنها الا خطوات معدودات .

وأسلمت الفتاة ساقها للريح وقد أمسكت بي من يدي .. وأخذنا نعدو كمن به مس من شيطان رجيم .. وقد كاد يقتلنا الرعب .. ومن ذلك اليوم وذكر الرجل لايأتى على لسان الفتاة .. فقد كان ذكره يخيفها أكثر مما يخيفنا .

وذاع أمر الرجل وانتشر صيته .. وكان غريبا قد نزع الى الناحية وقطن احدى الدور القديمة المتواضعة وأنشأ به حانوتا لبيع وشراء الأشياء القديمة ، وعرف بين أهل الناحية باسم (الشيخ شيون شير) رغم أن اسمه الحقيقي لايمت الى هذا الاسم بصلة ولا شبه .. وكان أبرز ما في الرجل ذلك الذعر الذي يتركه في نفس كل من يراه مهما كان عمره أو كانت شجاعته .. وكان كذلك شديد الكراهية للأطفال والقسوة عليهم حتى بدأ الناس يتهامسون أن الرجل يخطف الأطفال ليضعهم في قبو يقع في أسفل حانوته ثم يلجأ الى تعذيبهم حتى يموتوا من فرط الألم .

ومرّت السنون وشبنا عن طوق الطقولة ، وقد بقيت منها ذكريات بعيدة باهتة .. وتغير كل شيء فينا الا شيئا واحدا ظل كما هو .. ذلك هو بغضنا للشيخ شيون وخوفنا منه .

فقد استمر الرجل غامضا كما هو .. ورغما عما فعلته به السنون من أجدوداب في الظهر واضمحلال في الجسد .. فقد ظل على ماهو

عليه من قسوة وصرامة ، واستمرت نظراته الى الناس مليئة بالبغض والكراهية .. ولم يكن لكبر سنه أى أثر فى تخفيف ذلك الذعر الذى كان يعترى كل من رآه ، والرعب الذى يملأ قلب كل من صادقه .

واستمرت السنون فى السير فاذا بى وقد أضحيت زوجا ، ثم أبا لطفل كأنه الدمية ، وأعاد للتاريخ نفسه ، فاذا بابنى يخيفونه بالشيخ شيون عندما يستعصى عليهم تنويمه تماما كما فعلوا مع أبيه من قبل .. وسألنى الطفل ذات يوم عما اذا كنت رأيت الشيخ شيون ، وعما اذا كنت قد رأيت حوافره .. فأفهمته أنه آدمى مثلنا .. فلا حوافر له ولا مخالب .. فبدا الشك على وجه الطفل وأنبأنى أنه يريد أن يراه .

ولم يكن يخطر ببالي قط أن الظروف ستضطرني الى الذهاب الى الرجل فى حانوته وأن يرافقني طفلى الصغير المحبوب عند زيارتي لذلك الرجل المخيف ، ولكن الأقدار أحيانا تجبر الإنسان على أن يفعل ما لم يكن يتصور فعله .. ففى ذات يوم خرجت مع طفلى أجول جولة فى الطرقات وأخذنا نسير الهويناء وأنا أجيبه على أسئلته التافهة التى لم يكف عنها لحظة واحدة منذ بدأنا السير .. ورأيتنى أقرب من حانوت انشيخ شيون ، ولم أدر أى شيطان دفعنى الى أن أسأل الطفل ضاحكا :

- ألا تريد أن ترى الشيخ شيون ؟ هذا هو حانوته !

ورأيت بالطفل لهفة الى رؤيته ، فقد كان يريد أن يتأكد أنه كائن حقيقى .. وأنه مخيف كما يصفونه .. وأحسست بنفسى رغبة الى أن أجلس معه وأحادثه .. وأن أرى من قرب الرجل الذى استمرت ذكره أو رؤيته حتى من بعيد تثير فى نفسى الذعر ما يقرب من خمسة وعشرين عاما .

ودخلت الحانوت ولقيت الرجل وجها لوجه فلم أستطع أن أمنع موجة من الذعر سرت في جسدى .. وأحسست بالطفل يتشبث بثيابه ويخبىء رأسه فيها .

وطلبت الى الرجل أن يرينى بعضا من التحف القديمة .. فذهب ينقب ثم عاد الى بيعض من التماثيل والأواني القديمة ، وأخذ يشرح لى قيمة كل منها .. وبدأ الخوف يذهب من نفسى رويدا رويدا .. وحل محله الاطمئنان .. وكان حديث الرجل طليفا لطيفا .. فبدأت انساق معه فى الحديث حتى كدت أنسى أنه (الشيخ شيون) .. ووجدت الفزع قد ذهب أيضا من نفس الطفل .

لقد رأيته يقترب من الرجل فى سكون .. ثم ينحنى ببطء ويمسك بثوبه الذى يكاد يمس الأرض فيرفعه مرة واحدة ويكشف عن قدمى الرجل وساقيه !

لقد كان الطفل يريد أن يتأكد هل هو ذو أقدام مثلنا أم أنه يسير على حوافر !

ورأيتنى أنا الآخر أثبت نظرى فى أقدامه حتى أتأكد مما يريد أن يتأكد منه الطفل .

وجدت أن قدمي الرجل طبعاً لا تكاد تختلفان عن أقدامنا فى شىء .. فمددت يدى لأجذب الطفل ولأؤنبه على سوء فعلته .. ولكن الرجل المخيف لم يترك لى الفرصة كى أفعل ما أردت .. فقد رفع كفه الثقيلة التى تشبه مخالب الوحش ثم أهوى بها على وجه الطفل فى صفة لم تبصر عيناي أشد منها وصاح بغضب :

- كان خيرا لك أن تحسن تربيته .

وأبصرت الدماء تسيل من أنف ابني المحبوب .. ولا أظن أى
إنسان يستطيع أن يتصور وقع ذلك فى نفسى وأنا أبصره والدماء تسيل
من أنفه بعد أن صفعه ذلك الوحش القذر الكريه .

لقد اندفعت من مكاني أريد أن أحطم رأس الرجل .. ولكنى
وجدت الطفل قد وقف يعترض طريقى وأخذ يصيح بى :

- اتركه يا بابا فهو آدمى مثلنا .. وليس شيطانا أو جنيا .

ونظرت الى الرجل .. فاذا بالتجهم قد زال عنه .. وحلت محله
علامات آلام تعتمل فى جوفه كأن أحشائه تتمزق ، ورأيته ينهار على
أحد المقاعد .. وأبصرت الدموع تنهمر من عينيه بشدة .

ومد الرجل يديه فاحتضن الطفل بحتان ورفق وأخرج مندبلا من
حيه يجفف به الدماء التى سالت من أنفه وسمعته يهمس التى بصوت
محبوح :

- خمسة وعشرون عاما استطعت أن أكبت فيها ذلك الحنان
الذى يصطخب فى صدرى .. وأن أسدل على وجهى ذلك القناع
اليعيض من القشوة ، لقد نجحت فى أن أقسو على الأطفال وأن أتجهم
نهم ، ولولا ذلك لما استطعت أن أعيش لحظة .. ولقنتلى الحزن ..
لقد كان كل طفل أراه يثير فى نفسى الذكرى الأليمة .. ويقطع نياط
قلبى ويمزق أحشائى .. وكان يخيل لى أحيانا أن أبنى كل طفل أراه ..
أو أن أجمع أطفال العالم كلهم فأحتويهم فى صدرى .. فقد كنت أرى
فى كل طفل ولدى الغائب المحبوب .. وكما كنت أعدو خلفهم فى
الطرق أظنه بينهم .. حتى ظننى الناس مجنوننا .. وخشوا على أطفالهم
منى وأصبح الأطفال يتجنبوننى ويفزعون منى ، وكما انتظرت أوبته حتى
طال بى الانتظار وفاض بى اليأس فصمت على النسيان وعزمت على
أن أقتل ذلك العطف الذى فى قلبى .. وأن أتجهم وأقسو .. ومرت على

السنون ، فأصبحت كما ترى رجلاً مخيفاً .. وظننت أنني سلوت
ونسيت حتى دخلت الى حانوت بطفلك فتوجست منه خيفة .. فقد
أحسست بعض الحنين .. لشدة الشبه بينه وبين طفلي المحبوب ..
فصنمت على أن أقسو عليه .

وثار غضبي عندما حاول أن يكشف عن ساقى ليرى «خوافرى»
فلطمته هذه اللطمة العنيفة التي أسالت الدم من أنفه .. ثم شعرت بطعنة
في صميم قلبي عندما منعك من الاعتداء علىّ لأنني آدمى مثلكم وليس
بشيطان كما تزعمون . آه لو كانت الأرواح تعود الى الأرض مرة أخرى
لأقسمت أن هذا هو طفلي .. فهو أول من أراه يحنو علىّ بعد أن ذهب
ولدى .. اني لأتخيله الآن وقد امتطى حماره ، ووضع عليه السلال
الفارغة .. فقد كان ذلك هو خير ما يلهيه ويطربه .. يجول الطرقات
مقلدا صوت الباعة حتى يذهب الى شاطئ النهر .. فيعبث بحماره في
الماء ثم يعود الى الدار .

وفي ذات يوم خرج كعادته ، وقد علا غناؤه ورنّت ضحكاته ..
وكنت أشعر بتشاؤم يملأ قلبي .. فقد فقدت أمه المحبوبة في مثل ذلك
اليوم منذ بضع سنين خلت .

وخيل لي أن الطفل تأخر .. ولكنني ظننت أن ذلك مرجعه ما
بقلبي من تشاؤم .. فتماسكت بأطراف الصبر حتى حل الظلام ..
وقفزت من مكاني وأخذت أعدو في الطريق كالمجانين ، وكان أول
ما صادفتني .. الحمار بلا شيء على ظهره سوى السلال الفارغة .

وخيل لي أن قلبي على وشك أن يقفز من مكانه .. وأمسكت
برأس الحمار من فرط ما بي من جنة أسأله عن الطفل .. واستمر الحمار
مطأطئ الرأس في صمت عميق .. ثم استدار بعد برهة وسار في طريقه
وأنا أتبعه .. حتى انتهى بي الى شاطئ النهر .

ولم أجد هناك آدميا أستطيع أن أستدل منه على الطفل .
ولجنوني .. أخذت أجرى هنا وهناك .. حتى أنهكنى التعب ، والحمار
واقف أمام بقعة على الشاطئ لا يتحرك ، وأخيرا لم أستطع الا أن أجلس
بجوار الحمار أرقب وأنتظر .

وجلس في مكاني وعيناي مثبتة بالماء .. أربعة أيام بلا طعام
ولاشرب ، والحمار واقف بجواري وعلى ظهره السلال الفارغة .. حتى
حملني الناس الى الدار كأنني جثة هامدة ..

وهنا رأيت طفلي يقفز من على ركبتى ثم يشير بأصبعه الى نهاية
الطريق ويصيح قائلا :
- أنظر يا أبته .. هذا الطفل الذى امتطى حماره وامامه السلال
الفارغة .

ومدّ كل منا رأسه فأبصرنا فى نهاية الطريق طفلا شديد الشبه
بذلك الطفل الذى مازال الرجل ينتظر أوبته . وندت من الرجل صرخة
خافتة وحاول القيام ولكنه لم يستطع كأنما أصيب بشلل فأشار الى أن
أعدو وراء الطفل فأحضره .. وقفزت من مكاني وعدوت وراء الطفل
لأحضره اليه حتى أخفف ما بنفسه من لوعة .. ولكنى لم أكد أصل
الى نهاية الطريق حتى كان الطفل قد اختفى .. وعدت أدراجى وبى
حنق على طفلي لأنه حرّك فجيرة الرجل ونكأ جرحه بإشارته الى ذلك
الطفل ، وصممت أن أبذل كل ما فى وسعى حتى أرفه عن نفسه وأزيل
ما بها من حزن ولوعة .. ولكنى لم أكد أصل الى الحانوت ، وأحدث
الرجل حتى وجدت أنه لم يعد فى حاجة الى ترفيه أو تسلية فقد كان
أبعد من أن يصل اليه حديثي .. لقد فاضت روحه وذهب الى حيث
يستطيع أن يلقي طفله المحبوب .



رُؤْيَا الرُّومِ

كان اليوم من أيام شهر يوليه الشديد القَيْظ .. وكنت أجلس متبرماً في إحدى شرفات البيت ، وقد حرمتنا والدتنا من مبارحة الدار ، خوفاً علينا من ذلك السعير الذي يتأجج أواره .

وكان مجرد التفكير في شاطئ التربة المجاورة ، وفي ذلك الركن الظليل الذي تعودت أن أذهب للصيد فيه ، يجعلني أضيق ذرعاً بتلك الأوامر المتعددة التي ما فتئت أمي تصدرها ، فتحرمنا كل ما نحب ونشتهى .. عجيبة هذه الأم !! إنها تضيع نصف وقتها في توهم أخطار تحقيق بنا .. والنصف الآخر في محاولة درء هذه الأخطار حتى أضحي كل شيء لدينا ممنوعاً محظوراً .. فلعب الكرة ، محرّم ، لأنه يعرضنا لضربة الشمس .. والذهاب للصيد أو السباحة قد يؤدي بنا إلى الغرق ، وركوب الدراجات سيدفع بنا حتماً تحت عجلات الترام . ويخيل أنّي أن الأمر سيفضي بها إلى أن تغلق علينا إحدى غرف الدار فلا نبرحها حتى نبليغ أرذل العمر ! ..

ولم يكن أخى ليسوءه ذلك أو يضايقه .. إذ كان من ذلك النوع الذى سبق عقله عمره .. فلم يكن ما يبدو عليه من الهدوء والاتزان وكثرة التفكير ليتناسب قط مع الأثنى عشر عاماً التى بلغها .. ورغم أننى كنت أكبره بعامين ، فقد كنت أحس دائماً أننى أصغر منه ، ولعل ذلك يرجع إلى نمو إدراكه نمواً منقطع النظير .

ولقد ساءنى من أخى فى ذلك اليوم إخلاذه إلى الصمت ، وقد استغرق فى قراءة كتاب ، لا يكاد يرفع عنه بصره .. وكان جلده على القراءة يثير دهشتى .. أنا الذى لا يطيق أن يثبت بصره لحظة واحدة فى كتاب إلا إذا أكره على ذلك !

وأخيراً ضربت الأرض بقدمى فى ضيق وقلق وصحت به قائلاً :
 - هذا أمر لا يطاق .. لا يمكن أن أظل سجيناً يوماً بأكمله فى هذه الدار ! .. مارأيك فى الهرب .. وليحدث بعد ذلك ما يحدث ؟ .
 فرفع إلّى عينيه الزرقاوين العميقتين ، ووجهه الأصفر النحيل ، ثم رفع بيده خصلة من الشعر الذهبى المدلاة على جبينه وأجاب فى هدوء :
 - أنا أفضل القراءة .

ثم أكب مرة أخرى على تلاوة كتابه فى صمت عميق ، وعدت أسأله فى سخرية :

- وماذا تقرأ ؟ .
- رباعيات عمر الخيام .
- وما تكون رباعيات الخيام هذه ؟
- كتاب شعر .. قديم ..

ولم يكن يدهشنى أن يقرأ أخى الشعر .. فقد كان يقرضه ..
وأذكر أنه نشر بعضه فى مجلتنا المدرسية .

وسمعت على الباب طرْقاً ، فذهبت لأرى الطارق ، فإذا به كهل
رث الملابس ، وخيل إليّ أنه أفاق من الأفاقين ، وكنت أعرف أن أمى
تكره هذا النوع من الرجال ، ففضلت ألا أشجعه على المضى فى
حديثه . ولكننى دهشت عندما تبين أنه يعرفنا جيداً .. مع أننى لم أكن
قد رأيته من قبل ! وزادت دهشتى عندما أخبرنى الرجل أنه عمنا .. أو
على الأصح عم أمنا !

وذهبت إلى أمى أسوق إليها النبأ - وكانت منهمكة فى
المطبخ - فما كادت تلمح وجهى حتى نظرت إليّ شزراً وابتدرتنى
ناهرة :

- لافائدة .. لن أدعك تخرج ..
- لم آت لأطلب الخروج يأماء .. إنما جئت لأخبرك أن بالباب .
زائراً ..
- زائراً .. ومن يكون ؟
- عمك ..
- عمى !! .. عمى أنا ؟
- وبدت عليها الدهشة ، كأنها لم تسمع بهذا العم من قبل ،
وسرعان ما علا وجهها الغضب ، وغمغمت فى حق :
- أو قد جرؤ على المجيء .. إلى هنا ! ؟

ثم تبعثني إلى الشرفة ، وهي ترتجف من الغضب .. وكان العم قد جلس هناك .. فما كاد يراها حتى نهض واقفاً يحييها ، ولكنها لم ترد التحية ، وصاحت به .:

- ماذا جاء بك إلى هنا ؟

- إنني أقطن في بيت لا يبعد عنكم كثيراً .. وقد سرّني أن أراكم .

- ولكننا لا يسرنا أن نراك ! .

- لا داعي لهذا الغضب يا بني . فما جئت مستجدياً أطلب منك إحساناً .. فأنت تعلمين أنني ما مددت يدي لك ولا لغيرك .. وأؤكد لك أنني لن أكرر الزيارة إذا كنت لاترغبين فيها .

- ما من أحد هنا يرغب في زيارتك ، فأرجوك أن تنصرف بسرعة كما أرجو منك ألا تحضر إلى هنا مرة أخرى .

- لك ماتريدين .

وتحرك الرجل تاركاً الدار في صمت ، وقد بدا الحزن العميق على أساريه .

وبعد الغداء جلست أمي على انفراد مع أبي ، وسمعتها تقص عليه ما حدث .. وتقول في نبرات يائسة :

- هذا الرجل سيجلب علينا وعلى أولادنا العار ، فسيلقي به يوماً في السجن ، وهو ثمل لايعي من فرط الشراب ، وسيخبر الجميع أنه عمي ، ولن أجسر بعد ذلك على أن أرفع رأسي أمام القوم في هذه البلدة .. إنني لا أطيق أن أراه في مكان واحد مع أولادي .

ويبدو أنني لم أكن وحدي أنصت لذلك الحديث فقد سمعت صوت أخي وهو يدخل الغرفة ويقول لأمي مهدئاً من روعها :

- ولكنه رجل فنان ، لقد قال لي : إنه يشتغل بالرسم .

وتشجعت أنا الآخر ، فدخلت الحجرة بدوزي ، ورأيت أبي يتطاير من عينيها الشرر .. ثم ما لبثت أن وجهت الحديث إلينا قائلة :

- إياكما أن تذكرنا هذا الرجل .. أريد منكما أن تنسيا أنكما

رأيتماه ..

واستمر أخي في حديثه كأن أمي لاتعنيه بالتهديد :

- ولكني لم أسمع قبل اليوم أن في أسرتنا فنانين .

وكان في حديثه رنة إعجاب ، فصرخت به أمي :

- ألم تسمع ما قلت ؟

- نعم سمعت .

وكنت واثقاً من أنه لم يسمع من حديثها شيئاً ، وكأنما يبدو في عالم آخر ، فلشد ما كان يتمنى أن يقابل واحداً من الفنانين وجهاً لوجه ، فما بالك وقد تبين له أن هذا الفنان عمه ؟ !

وعندما غادرنا الحجرة ، سمعنا أبي يوجه الحديث إلى أمي

قائلاً :

- لا معنى لهذه الحملة الشعواء على الرجل !! إنه لا يستحق كل هذا وخاصة أنك تعلمين أن أساس ما به من سوء ، هو أن الناس قد حطموا آماله ، فلم يقبلوا على شراء صوره وتخلي عنه الجميع حتى أهله وزوجته .

- أتدافع عنه ؟ أنك لاتندرى أى حياة يعيشها هذا الرجل .. لا شىء غير الشراب .. والجري وراء النساء .. رغم أنه كهل متزوج !!
أؤكد لك أنه مجلبة للعار .

★ ★ ★

مضت عدة أيام .. ونسى أمر العم الفنان .. ولكننا لاحظنا أن أخى بدأ يقلع عن أطواره الشاذة ، وعن الصمت وكثرة التفكير .
وبدأ يكثر من الخروج ، مدعياً أنه يتنزه عند شاطئ التربة ..
وسر أسمى ذلك الانقلاب ، ولم تشك لحظة فى صدق قوله ، ولكنى وحدى لم أصدق ، فقبته ذات يوم ، وعرفت ما خفى من أمره .
وفى الليل حينما ذهبنا إلى الفراش ، فاجأته بسؤالى :

- كيف حال عمنا العزيز ؟

وأصابه الدهول فلم يستطع الإنكار ، وقال مستعظفاً :

لا أظنك ستشئى بى .. فإنى ما وشيت بك قط !

وكانت هذه أول مرة أراه فى موقف المذنب .. فربت على ذراعه فى رقة وقلت له باسماء :

- لاتخش شيئاً .. ولكن خبرنى ماذا يستهويك عند هذا العم ؟

- كل شىء .. عطفه .. ورقته .. وحديثه .. ثم صورته .. إنه فنان عظيم .. ثم إنه ليس كما تصوّره أمتنا .. فما هو بشرير كما تصفه ، أو كما يتخيله الناس ، وما فيه من عيب سوى أنه فقير ، ويعيش فى بيت متواضع ، وأنه يلجأ إلى الشراب أحياناً حينما يفشل فى بيع صورته التى يخرجها ويتملكه اليأس والقنوط .

- لكن .. لم يرسم إذن ؟ !
- لقد قال لى إن الفنان لا يملك إلا أن يرضى نفسه وهويته ،
وعمى يرسم لكى يشبع رغبته .
- وصمت لحظة ثم قال هامساً :
- سأذكر لك سرأ .. عدنى ألا تبوح به لأحد ! .
- أعدك بذلك .
- إن عمى يرسم لى صورة .
- حقاً !! .. ولكن ألا تخشى أن تعرف أمى فى يوم ما ؟ .
- كلا .. لن تعرف شيئاً .. مادمت قد وعدتني بالكتمان ! .

ومع ذلك عرفت الأم !! فقد كنت فى ذلك اليوم فى نزهة خارج الدار ، فلما عدت فى المساء وجدت أبى وأمى جالسين فى وجوم وإطراق وسألت عن أخى فقيل إنه نائم ، وصعدت إلى غرفة النوم ، وسرت على أطراف أصابعى حتى لا أزعجه .. ولكنى لم أكد أقرب منه حتى سمعته يهمس باسمى ، فأضأت النور ثم اقتربت منه ، فإذا به شاحب الوجه ، منتفخ العينين من أثر البكاء !! وأخبرنى فى صوت هامس مرتجف أن أمنا قد عرفت كل شئ ، وأنها ذهبت إلى بيت العم فى أثناء غيابه ، فمزقت الصورة التى رسمها إرباً إرباً .. وهنا اختنق صوته وقال :

- لو كان واحد منا هناك .. أنا أو العم .. لما أمكنها أن تصنع ما صنعت .. ولكننا كنا فى الخارج ، فلما عدنا وجدنا الأم وقد وقفت شاحبة الوجه ، لاتزال تمسك بيديها السكين التى مزقت بها الصورة ..

ونظر العم إلى الصورة .. وخيل إلي أنه قد صعق .. فقد كانت الصورة قطعة منه ، انتهى منها اليوم فقط وأخبرني أنه يشعر ، بأنها ستكون إحدى المعجزات .

وخنقته العبرات ، فصمت لحظة ، ثم عاد يقول :

- لن يمكنك أن تتصور مقدار يأسه وقتذاك .. لقد نظر إلى الصورة ، ثم إلى أمي ، وهز رأسه في ببطء .. ثم قال بصوت كأنه صادر من جوف بئر عميقة .. «لقد انتهى الأمر وتم الاغتيال .. لقد قتل الصبي الوحيد الذي أنجبته ، ولاحيلة لي بعد أن نفذ القضاء ... تفضلي ياسيديتي» . وأشار إلى أمي بالانصراف .. فسحبتي من يدي ثم عدنا إلى البيت .

واختنق صوت أخي مرة أخرى . وصاح في صوت متهدج :

- لِمَ فعلت أمي ذلك ؟ ولِمَ طعننتي هذه الطعنة ؟ !

★ ★ ★

وبعد أربعة أيام وصلت إلى أخي رسالة من العم ، حملها إليه أحد أصدقائه ، وكان مضمونها :

«لقد كتبت إليك .. خشية أن تحاول رؤيتي مرة أخرى .. وكم يؤلمني ويحز في نفسي أن أرجوك ألا تحاول ذلك .. فأنت لاتزال غلاماً يافعاً ، وعليك إطاعة والديك .. حتى ولو كنت تعتقد أنهما قد أساءا إليك .

ولشد ما كانت صحبتك لي ذات أثر عميق في نفسي ، بل في حياتي كلها .. فأني لم أعتبرك طفلاً ، بل صديقاً ونداً . وكم ملأني

إعجابك بصورى وتلهفك عليها .. قوة وأملا .. وما كان ينقصنى فى حياتى اليائسة سوى القوة والأمل» .

وأخفى أخى الرسالة فلم يشعر بها أحد منا إلا بعد أن انقضت مدة طويلة ، ولكن فى اليوم التالى لوصولها إليه ، أخبرنى أنه يشعر بتوعك فى صحته .. وأنه سيستمر بعض الوقت فى فراشه حتى يزول ما ألم به .

وأصاب أُمى القلق عندما حان وقت الغداء ، ومازال أخى فى فراشه ، فاستدعيت طبيب الأسرة الذى طمأننا إلى أن المسألة لا تستدعى القلق .. ولكن فى اليوم التالى اشتدت به وطأة المرض ، وبدأ الطبيب نفسه يقلق ، وراح الحزن يعلو وجوه من فى الدار . ومضت ثلاثة أيام انقطع أبى فيها عن الذهاب إلى عمله واشتد وجومه .. وكانت أُمى أشبه ماتكون بامرأة ضلت طريقها فى صحراء مقفرة ، فكانت ذاهلة تائهة لاتكاد تعي شيئاً مما يقال حولها .

وفى اليوم الرابع سمعت فى المنزل بعض الضجيج ، ثم علمت أنهم أحضروا أحد مشاهير الأطباء من القاهرة ، فأحسست أن كارثة توشك أن تحل بنا .. وأن أخى فى خطر شديد ، وإلا لما استدعوا ذلك الطبيب .

وخرج الطبيب من الحجرة أخى .. ورأيته ينسحب ليتسلل إلى حجرتى ، وجلس الرجل بجوارى ، ثم ربت على كفى ، وقال فى صوت خافت :

- إنا فى حاجة إلى معونتك .. لقد ذهب أخوك .. لم يحصل شئ وإنما أصابه نوع من الذهاب والغيوبة الذى يحدث للمرء عندما يكون فى حلم .. ولاشك أنك قد جربت الأحلام فى نومك .

- نعم ياسيدى .
 - حسناً . إن أخاك قد استغرق فى أحد هذه الأحلام .. ولكن
 غيبته قد طالت .. فأصبح من العسير إعادته إلى وعيه .. وقد حاولنا
 جميعاً أن نعيد إليه رشده فبؤنا بالخيبة والفشل ، لأننا لانعرف سبب
 ما يعاينه .. ويخيل إلّى أنه قد يمكنك أن تصل إلى روحه الشاردة ،
 فتعيدها إليه مرة أخرى .. أتظن ذلك فى استطاعتك ؟ !

وكنت لا أفهم معنى لما يقول . فأجبتة فى تردد :
 - لا .. لا أدرى .

- حسناً .. لا بأس من أن تحاول .. والمسألة غاية فى
 البساطة .. فكل ما هو مطلوب منك أن تجلس بالقرب من فراش أخيك ،
 ثم تهتف باسمه فى همس كأنك تود أن تسر إليه حديثاً تخشى أن
 يسمعه غيركما .. هذا هو كل مافى الأمر .

ودخلت الحجرة ، وكان أبى وأمى يجلسان فى أحد أطرافها ،
 وقد بدأ عليهما الوجوم والقنوط .. ورأيت أختى مستلقياً فى فراشه ،
 وقد أغمض عينيه .. وبدأ كأن قد ذهب حقاً ! . وأصابتنى رجفة جعلت
 الأرض تميد تحت قدمى .. وجّر الطبيب مقعداً بجوار الفراش ، ثم
 أجلسنى عليه وأشار إلّى أن أبتدىء ..

وبدأت أهتف باسم أختى .. ومرت فترة طويلة خيل إلّى أنى
 هتفت بالاسم مئات المرات .. ثم شعرت بأن عنقى قد تصلب وأن
 حلقي قد جف .. وأحسست لسانى كأنه قطعة من الجلد المقدد ..
 ونظر إلّى الطبيب ورجانى أن أستمّر .

وفى كثير من الجهد والمشقة عاودت الهتاف ، حتى بلغ بى
 التعب مبلغاً أعجزنى عن النطق . ولكن عندما وجدت أخيراً أن أختى
 قد بدأ يحرك جفنيه ، فعل بى ذلك فعل السحر ، فعدت أهتف بكل

ما فى نفسى من قوة . وفتح أخى عينيه .. ونظر إالى نظرة تائهة .. ثم بدأ يفيق شيئاً فشيئاً .. ووجدت أنه قد استطاع أن يميزنى .. وتحركت شفتاه ، ثم همس فى صوت كأنه فحيح الأفاعى :

- لقد مات .. لقد مات الصبى الأشقر . لقد قتلته أمى .. !!
وأغلق عينيه .. ثم عاد إلى غيبوبته مرة أخرى .
ورأيت أبى يجبر أمى خارج الغرفة .. وهى تبكى فى تشنج يفتت الأكباد .

ثم رأيته يغادر الدار إلى كوخ العم الفنان .. وجلست والطيبين تنتظر خارج الغرفة ، وسمعت طبيب الأسرة يسأل الطبيب الآخر :

- ولكن هل تظن هذه الطريقة ستجدى نفعاً ؟

- لو صحت نظريتى ، وكان الصبى قد أدخل فى روعه أن تلك الصورة هى شخصه .. ولو كانت الصورة لم تحطم تماماً فإن هذه الطريقة قد تكون مجدية .

وبعد لحظات سمعنا وقع أقدام ، ثم رأينا أبى يدخل ووراء العم يحمل الصورة وقد أخذ يزيل عنها الورق الذى لفت به .

ونظرنا إلى الصورة وقد وضعت على أحد المقاعد . وصحنا جميعاً فى دهشة وعجب .. إذ لايمكن أن تكون هذه مجرد صورة لأنها ليست إلا أخى نفسه ، بدمه ولحمه ، وقد جلس تحت شجرة على شاطئ التربة !

- لقد رسم العم صورة أخرى غير تلك الصورة التى مزقت .
وأجاب العم :

- لقد كان من الصعب أن أعيش بدونها .. فقد كانت قطعة منى .. ولم أجد بداً من أن أرسم صورة أخرى عن الأصل الممزق .

وهمّ أبى بمناذاة أمى ، ولكن الطبيب أخبره أن من الأفضل تركها
الآن حتى تتم المعجزة .. إذا قدر لها أن تتم .

ودخلنا غرفة أخى ، وكان مستغرقاً فى منامه العميق .. وبدأت
أهمس باسمه .. وخيل إليّ أننى استطعت إيقاظه بسهولة .. قد يكون
ذلك لأنه قد أحس بأن الصورة قريبة منه .

وفتح عينيه ، فأمسكت بيده ، وأخذت أكرر عليه فى لهجة مليئة
بالثقة :

- لقد عاد الصبى الأشقر .. إن الصبى الأشقر موجود
بجوارك .. انظر إليه .. إنه مازال على قيد الحياة .. ولم يمسه أذى
ولا سوء .

وأعانه أبى على النهوض فى فراشه .. وبدأت أشير بأصبعى إلى
الصورة .. وأنا أصبح بقولى : «انظر هاهو ..» .
وأحسست أنه يرتجف .. ورأيت عينيه تلمعان ببريق الحياة ..
وسمعتة يغمغم فى فرح :

- الصبى الأشقر ! .. الصبى الأشقر !

وصنحت فى فرحة جنونية :

- وعمنا كذلك هنا .

وتلفت أخى ، فوقعت عيناه على العم ، فبرقت أساريره فى جدل
وابتهاج ، وقال له فى صوت ضعيف خافت :
- احذر من أن تراك أمى .

وسمعت الطبيب من ورائى يضحك ضحكة الفائز المنتصر ،
فعلمت أن أخى قد عاد إلينا .. وأن المعجزة تمت .. فقد ردت الروح .

لفاء .. على خير وبر

ظلمة ووحشة .. وسكون ، لا كسكون المقابر ، لأنه هو نفسه
سكون المقابر .. ذلك السكون الرهيب الذى ينبىء الإنسان أن مصيره
إلى رفات بالية .. وعظام نخرة خاوية .. وأنه مهما بلغ فى حياته الضئيلة
التافهة .. فسيتتهى إلى لاشئ .. ويصبح كأن لم يكن .

ذلك السكون الذى يرتجف منه الإنسان ويهلع .. فهو يريه حقيقة
الأشياء دون زيف ولا تمويه ، وليس هناك أبغض إلى الإنسان من رؤية
الحقيقة .. وليس أحب إليه من التعلل بالباطل ، والتعلق بالترهات .. لأنه
هو نفسه خدعة باطلة لا يكشفها إلا الموت .

‘ ذلك السكون الذى لا يسمع فيه نفس يتردد ، أو صوت يهمس ..
اللهم إلا همسات ريح تكاد تقول :

«خفف. الوطاء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد» .

فى تلك الظلمة والوحشة .. ووسط ذلك السكون المخيف ..
بدأ الفتى يستنشق أول نسمات الحب ، وبدأ يمس بشفتيه أول قطرات

الهوى فإذا بالمقابر قد أضحت رياضاً فيحاء ، وإذا بالوحشة أنس ،
والظلمة ضياء .

لقد تبدّل كل شيء وتغير .. لقد سرى الحب من نفس الفتى
فمس الأرض سحره .. وكسا كل ما عليها خضرة ونضرة .. وإذا
بالسكون المخيف قد أضحى سكونا جميلا محبباً ، وإذا بهمسات الريح
تردد :

هل سرت أنفاس عيسى في الفلاة فنفخن الروح في أرض موات
ونشرون النبت يشكو من رفات ويعشن الطير يشدو هادلا
في أريك الأيك مثنى ورباع

كان الفتى في غمرة من الهوى ، فقد أحب لأول مرة ، وإذا به
ييصّر الحياة بمنظار الحب الساحر الملون ، فبدا بكل شيء أمامه
جميلاً ، فالقبور قد أضحت قصوراً ، والرفات قد جاشت فيها الحياة .
رآها الفتى أول مرة على شاطئ البحر .. وكان ذلك في ليلة
من ليالي الصيف ، وقد اتكأ بذراعه على «الكورنيش» ووقف يرقب تلك
الجموع الرائحة الغادية .

ولم يكن هناك أحب إلى الفتى من «الفرجة» على الناس .. فقد
كانوا في نظره من أمتع وسائل التسلية .. وكان يشعر في مشاهدتهم
شعور الواقف خارج أحد أقفاص القروود في حديقة الحيوان .

وأبصر الفتى في وقفته أول مجموعة من القروود في هيئة ثلة من
الطلبة وقد ملأوا الدنيا ضجيجاً ، وعلت ضحكاتهم بسبب وبلا سبب ،
وأبصر بأحدهم وقد فك أزرار قميصه حتى تظهر منه بضعة شعيرات
نبتت في صدره وأبصر الآخر وقد وضع السجارة في طرف فمه ،

وبثالث قد أخذ يتحسس عضلاته بين لحظة وأخرى ، ورابع قد برم شعيرات شاربه وكأنما خشى أن يطير الشارب فأمسكه بأصابعه .. والجميع قد أخذوا يسترقون النظر إلى الناس حتى يبصر كل منهم مدى إعجاب الناس به ، وتأثرهم بمنظره ، بقوته أو بخفة دمه .

ثم أبصر الفتى بعد ذلك قردة أخرى .. قد صنع «الأوكسجين» بشعرها ما صنع .. فبدأ في صفرة مصطنعة ممقوتة .. وامتلاً وجهها بالأصباغ والألوان كأنها مهرج على خشبة مسرح .. وارتدت «بيجامة» أظهرت غلظ خصرها ، وضخامة ردفها .. ولم يثر عجب الفتى من كل هذا قدر ما أثار عجبه تلك الطريقة التي تسير بها . فقد كانت تكاد تصيح : «يا أرض انهدى ما عليكى قدى» .

وهذا قرود ثالث بدا عليه شروع في مغازلة ، فقد أخذ يتحسس شعره ويصلح «الكرافة» ثم يضع يده اليسرى في جيب «البنتلون» ، ويقترب من صاحبتنا ويميل عليها هامساً في صوت كأنه الرعد : «وحشتنا ياسى محمد» .

وهذه أسرة عبارة عن مجموعة قبح متحرك تتكون من ثلاثة ذكور وثلاث إناث ، ولايكاد المرء يميز الإناث من الذكور إلا بالفساتين والأحذية ذات «الفيونكة» .. وقد انهمكوا في نحت أكواز الذرة المشوية .

وألقي الفتى نظرة إلى الساعة في يده ثم قفز من مكانه مرتاعاً .. واندفع بين صفوف الناس يعدو كأن به مساً .

ياله من أحقق .. لقد سرقه الوقت وهو في وقفته مستغرق في مشاهدة الناس .. لعنة الله عليه .. كأنه ما رأى أناساً في حياته من قبل ..

لابد وأن تكون الفتاة قد انصرفت مغيظة حائقة .. فلقد مضى على الموعد مايقرب من عشر الدقائق .

واستمر الفتى يعدو من الشاطبي إلى محطة «سوتر» فوصل إليها وقد تلاحقت أنفاسه ، وتساقطت من وجهه قطرات العرق .. ودار حول المظلة الخشبية ، وتلفت هنا وهناك ، ولكنه وجد المكان خالياً إلا من متسوّل كفيف ، وقطة تشاءب .

وحاول أن يعلل نفسه بأن الفتاة لما تأت بعد ، فقد يكون ثمة عائق أخرها عن الموعد وقد تأتى بين آونة وأخرى .. فوقف ينتظر ، وتتابع عربات الترام الواحدة بعد الأخرى ، وهو فى كل مرة يأخذ فى فحص النازلين منها علّ الفتاة تكون بينهم .. ولكن دون جدوى . وأخيراً أصابه اليأس فعاد أدراجه إلى موقفه من الشاطبيء وهو يحس بالندم والخجل ، والضيق والحزن .

لم يكن الفتى قد أبصر الفتاة قط .. فقد كانت إحدى صاحبات أخيه وكانا قد تواعدا على اللقاء فى ذلك اليوم ، ولكن أخاه طراً عليه ما عطله عن الذهاب ، فسأله الذهاب بدله ، والاعتذار إليها ، وعلى ذلك فقد كان دوره معها لايزيد على مقابلتها لبضع دقائق يعتذر لها فيها عن عدم حضور أخيه الذى شغلته أعمال طارئة ثم يودعها وينصرف . هذا هو كل ما طلب منه .. ومع ذلك فلم يستطع أن يؤديه .

لعنة الله عليه .. ترى ماذا يقول لأخيه الذى اعتمد عليه فى الاعتذار للفتاة أيقول له إنه كان مشغولاً بمشاهدة الناس وأنه ذهب بعد الموعد فلم يجد الفتاة ؟

وترى ماذا قالت الفتاة عن أخيه .. أغلب الظن أنها قد انصرفت حانقة .. بعد أن قررت ألا تقابله بعد ذلك .

واتكأ الفتى على «الكورنيش» ، وعاد مرة أخرى يستعرض موجات الأجساد المتلاطمة على الرصيف .. وقد أخذ يفكر في عذر يسوقه إلى أخيه كي يرر تقصيره المشين .

وبدأ الفتى يشعر بالملل .. فقد خلا الشاطئ من الجمال ، واقفر إلا من وجوه خشنة أو شبيهة بالخشنة ، وشعر بضيق من الناس ، ورغبة في أن يخلو إلى نفسه .. فهمم بالعودة إلى الدار ، ولكنه لمح وجهاً قد أقبل بين الوجوه الخشنة جعله يتسمر في مكانه .. فقد كان الوجه «نسيجاً وحده» .

واقتربت صاحبة الوجه .. وبدت أمامه بجسدها العجيب كأنها نموذج للجمال والفتنة .

وأحس الفتى بعينه حائرتين بين ساقها وعينيها .. وتمنى لو تمهلت قليلاً أو وقفت مكانها حتى يستطيع أن يروى من عينيها ظمأ عينيه ، ويطعم من جسدها جوع جسده .

ولأول مرة في حياته شعر الفتى أن الله قد استجاب أمنية من أمانيه . فقد تأنت الفتاة في مشيتها .. ثم توقفت .. واستدارت ببطء ، واتجهت إلى السور الحديدى ، واتكأت عليه مولية وجهها شطر البحر ، ووقف الفتى على قيد خطوات منها .. وكأنه على أبواب «الجنة» . ثم دار على عقبيه ، وملاً صدره بنسيم البحر كأنه يستعين ببرودته على إطفاء ذلك اللهب الذى بعثته الفتاة ليستعر في صدره .. ويتأهب لخوض معركة .

وأخذ الفتى ينساب بخطوات جانبية نحو الفتاة .. فلم تمض فترة وجيزة إلا وكان كتفه على وشك أن يمس كتفها .. وفى خلال ذلك الانسياب الذى بدا منه أنه غير مقصود .. كان ذهنه قد أخذ يبحث بسرعة عن أنسب الكلمات التى يبدأ بها حديثه معها .. وأخذ يستعيد لنفسه جميع وسائل المغازلة «والبصبة» .. المؤلف منها وغير المؤلف .

ترى.أبدأ بصب كلمات الإعجاب فى أذنيها .. والغوانى — كما يقولون — يغرهن الثناء .. ولكن هذه طريقة «عتيقة» بالية .. وقد يكون نصيبه من الفتاة لاي زيد عن : «ياسم» أو «يادم» .. أو قد تكون الفتاة أكثر كرمًا ، فتجيبه بصفعة ترن وسط الجماهير .. إذن فليبدأ حديثه عن الجو ، ولكن الحديث سيكون بارداً وتافهاً .. وأخيراً بدأ يتخيل أن الفتاة قد اختل توازنها فهوت إلى الماء .. وأنه ألقى بنفسه خلفها فأنقذها من بين الأمواج .. وخرج من الماء يحمل جسدها الغض بين إعجاب الجماهير المحتشدة .. وتخيل الفتاة بعد أن تفيق وقد نظرت إليه نظرات ساحرة مليئة بالحمد والشكر .. ولكنه تذكر فجأة أنه لايجيد العوم وأنه قد يغرق مع الفتاة .. فاستبعد من ذهنه هذه الوسيلة الخطرة .

ومضت فترة والفتى يحملق فى الماء دون أن يهتدى إلى الكلمات التى يستطيع أن يستدرج الفتاة بها إلى الحديث .

وشعر الفتى بمدى خيئته فى ميادين الغرام .. وجبته فى معارك الهوى ، وأنه لايملك إلا النظر من بعد ، والإعجاب فيما بينه وبين نفسه . وأنه لاي زيد عن كونه «أسد على وفى الحروب نعام» .

وخشى الفتى أن يضع الفرصة السانحة بذلك التردد والإحجام ، وعزم على أن يقول للفتاة أى شىء ، وليحدث بعد ذلك مايحدث .. وفجأة أدار لها وجهه ، ثم سألها .

- كم الساعة من فضلك ؟
ونظرت إليه الفتاة برهة قبل أن تجيب ، ثم قالت فى تهكم
وسخرية :

- خير لك أن تسأل نفسك !
وأشارت بأصبعها إلى الساعة التى بدت واضحة فى معصمه .
وبدا على الفتى الارتباك وأجاب متلعثما :
- إن بها خللاً من أثر الرطوبة .
- لا آظن أن «هى» التى بها خلل ، فإننى أراها الثامنة النصف
ونحن فعلا فى الثامنة والنصف .

وازداد ارتباك الفتى ، فضحكت الفتاة وأردفت :

- هذه طريقة «عتيقة» فى «جر الشكل» ، وكان من الواجب
عليك ما «مت قد قررت استخدامها أن تنبه إلى إخفاء الساعة ، وعلى
أية حال لم يكن هناك داع لهذا التمهيد ، فلتحدث كما تشاء ، لأننى
لا أرى ضرراً من الحديث ، مادام لن يكون أكثر من حديث نفترق
بعده إلى غير لقاء .

ولم يسع الفتى إلا أن يستغرق فى الضحك ، وأحس أن الفتاة
تسلل إلى قلبه بسرعة البرق ، فقد استطاعت أن تبدد ماعراه من مظاهر
التكلف ، ووجد نفسه قد أخذ يتحدث إليها كأن بينهما قديم صعبة ،
وأحس الاثنان بكثير من التآلف والانسجام فلم يشعرا بذلك الوقت الذى
مرّ كالبرق حتى سأله الفتاة عن الساعة ، ونظر الفتى إلى الساعة فى
يده فإذا بها التاسعة والنصف ، فبدت الدهشة على وجه الفتاة وهتفت :

- هكذا سريعاً ! يالك من لص ماهر ! لقد سرقت منى حديث ساعة دون أن أحس ، لقد آن لى أن أنصرف .

- على أن نلتقى مرة أخرى ؟

- لا تكن طماعاً ، لقد وعدتك بحديث لا لقاء بعده ، إنها ساعة قضيناها فى أحاديث رَوّحت عن نفسيّنا ، بدل الحملقة فى أمواج البحر ، أو أمواج البشر ، فلا تحاول أن تجعل من المسألة قصة غرام .
وافترق الاثنان إلى غير لقاء ، ولم يستطع حزن الفتى على فشله فى الظفر بقاء آخر أن يمحو تلك النشوة التى تركتها الفتاة فى نفسه خلال هذه الساعة ، فسار فى طريقه وقد بدت الحياة لذيدة ممتعة ، وشعر أنه يحب كل ما عليها ، حتى هؤلاء السخفاء الأغبياء الذين كان يزدرهم قبل أن يلقى الفتاة ، وتمنى لو استطاع أن يقص على كل مخلوق ما حدث بينه وبينها .

وأخيراً وصل إلى البيت ، فعاد إلى ذاكرته ذلك الموعد الذى أخلفه مع صاحبة أخيه ، وتركه إياها تنتظر فى محطة الترام وهو مشغول بمشاهدة الناس ، وبدأ يلفق فى رأسه قصة يعتذر بها له .

ودخل على أخيه فإذا به قد استلقى يقرأ فى إحدى المجلات ، فكسا وجهه سيماء التجهم والضيق . وخلع حذاءه ففقد به فى نهاية الحجرة حتى يلفت نظر أخيه الذى رفع إليه بصره فى دهشة قائلاً :
- ما بالك ؟ !

- كان يجب عليك قبل أن ترسلنى لأعتذر عنك أن تعلم صاحباتك أولاً أن يحترمن المواعيد .

- أتأخرت عن الموعد ؟

- تأخرت ؟ إنها لم تأت بالمرة ، وتركتني «ملطوعاً» في المحطة لمدة ساعة دون أن تأتي ، حتى لقد صادقت خفير المزلقان من فرط الوحدة والشعور بالضيق والملل .

ولم يسع أخاه إلا أن يبدى دهشته من تخلف الفتاة ، فما تخلفت قط عن ميعاد لها قبل الآن ، واعتذر له وأخبره أنه سيعزف كيف يؤدبها .

وسر الفتى أن المسألة قد انتهت - ولو مؤقتاً - إلى هذا الحد ، وانبسطت أسارير وجهه ، وبدأ يحس باللهفة إلى أن يقص على أخيه مغامرته مع فتاة «الكورنيش» . فلم تمض بضعة دقائق حتى كان منهمكا في سرد تفاصيل القصة .

ولم يكد ينتهي منها حتى كان أخوه يحدجه بنظرة اتهام سائلا إياه :

- قل الحق ، لقد أنستك الفتاة أن تذهب إلى الموعد !
- الحق أنى لم أذهب فعلا ، ولكنها ليست هي التي أنستني إياه ، لأننى لم ألقها إلا بعد فواته ، وكل ما حدث هو أنني وقفت أقرب الناس فأصابنى سهو ونسيان ، ولم أذهب إلا بعد الموعد بعشر دقائق .
- هذا ألعن وأضل سيلا .. على أية حال لاتحمل لها هما فأنى أعرف كيف أستعيد رضائها .. عد بنا إلى صاحبك ، متى ستلقاها مرة أخرى ؟

- لقد أخبرتنى أنه لا لقاء بعد ذلك .
- يالللخية ! تتحدث معها ساعة ثم تتركك إلى غير لقاء ! وماذا أفدت من حديثها ؟ كأنى بك قد تحدثت إلى سيدنا الخضر ، أو الى برناردشو .. هل قبلتها ؟

- أقبّلها على الكورنيش ؟

- ولم لا ؟ .. لعلك قد اكتفيت بمس يدها ؟

- ولا هذا .

- خبرني إذن ! لِمَ كل هذه النشوة والفرحة ! ليخيل، إلّى وأنا أراك تتحدّث عنها أنكما سبحتما سوياً عاريين فى بحر من الخمر .. لاتكن أبله ، اذهب فى الغد إلى مكان الليلة ، فلا بد أنك ستجدها تنتظر ، ولا يغرنك منها صد ولا تمنع ، وكن أكثر جرأة تجدها قد لانت .

وبدأ الفتى يأخذ من أخيه درساً فى الغزل ، ولم يكن أخوه يكبره إلا بعام واحد ، ولكنه كان يكبره فى أمور الحب وشؤون النساء بمائة عام ، فبقدر ما كانت خيبة الفتى وتهيبه كانت جرأة أخيه ومهارته ، فكان الأول يكفى بالنظر والإعجاب والحب عن بعد ، وكان الثانى لا يكفى بأقل من خمس فتيات يصاحبهن فى وقت واحد .

ولم يكن الفتى وأخوه مجرد أخوين ، بل كان بينهما تآلف شديد نتج عن تقاربهما فى السن واشتراكهما معاً فى جميع مراحل حياتهما ، فقد كانا شريكين فى البيت والمدرسة واللهو واللعب .. كانا شريكين فى الأفراح والأحزان ، وما سقطا فى الامتحان أو نجحا إلا سوياً ، وما هربا من المدرسة وسارا فى المظاهرات يهتفان «يحيا سعد» إلا سوياً ، وما تأخرا عن المنزل ولقيا جزاءهما من الضرب والقرص «فى اللبالب» من أمهما «المخضوضة» التى ظنتهما ماتا دهساً أو غرقاً .. إلا سوياً .

- وما زال إلى الآن يذكران عودتهما إلى الدار بعد لعب الكرة - وكانت من الأشياء المحرمة عليهما - وقد بدت على وجهيهما حمرة

«مزرودة» وتلك أكبر دليل لأمهما على ارتكابهما جريمة لعب الكرة ،
فيسأل كلاهما الآخر : هل وجهه أحمر ؟ فيطمئنان بعضهما بالنفى ،
ثم يذهبان إلى البيت . فتكون «علقة» لايجدى معها أى إنكار .

واستمر الأخوان فى كل مراحل الدراسة سوياً حتى دخل أكبرهما
مدرسة البوليس ، فخلا مكانه فى الفراش المشترك بينهما لأول مرة ،
وكم كان يحس الفتى فى أول الأمر برغبة فى أن يذرف بعض الدموع
على الوسادة ، عندما كان يذهب إلى الفراش وحيداً فيشعر بالفراغ الذى
تركه أخوه .

وزادت بينهما الفرة عندما تخرج أخوه وعين فى الإسكندرية ،
ولم تكد تحل فرصة الصيف حتى أسرع الفتى بالسفر ليلقى أخاه ويقضى
معه عطلة الصيف .

وكان الأخوان سعيدين بكل شىء ، بلقائهما ، وشبابهما ،
وحريتهما ، وخلوهما من أعباء الحياة ، فكانا يحسان كأنهما فراشتان
طليقتان ، لايريان فى الحياة إلا ضحكة طروباً ، ومزحة ماجنة .

وذهب كلاهما إلى النوم فى هذه الليلة بعد أن أقتنع الفتى أخيراً
بأن يذهب للقاء الفتاة .. فلم تكد الشمس تميل إلى الغروب فى اليوم
التالى حتى كان واقفاً فى نفس المكان ، وسقط الظلام فأخذ يتمشى
جئةً وذهاباً عله يعثر عليها وسط الجموع المحتشدة ولكنه لم يجد
لها أثراً ، فأحس بالضيق ، وندم على سماعه كلام أخيه ، فقد كان خيراً
له ألا يأمل فى لقاء الفتاة حتى لايشعر بمثل هذه الخيبة .

وعاد الفتى فاتكأً على السور الحديدى وسبح بصره فى ظلمة
البحر الصاخبة ، وأحس بحنين إلى الفتاة ، وود لو يهب نصف عمره
ويتحدث إليها ساعة أخرى . وأضناه الشوق فعلاً بالهواء صدره ثم

أخرجته فى زفرة حارة ، فإذا به يسمع رنة صوت ناعم ساحر ساخر
يهتف به هامساً :

- كفى الله الشر ، لعلها لا تكون زفرة حب ؟

من؟؟ إنها هنى بعينها ، وقد اتكأت بجواره تماماً كما كانت
بالأمس وضحك الفتى وأسرع بإجابتها :

- بل إنها لكذلك ، أتجددين فيها خطورة ؟

- لا أظن ، فلم يعد الحب الآن بالداء المستعصى .

- أغلب ظنى أنك لم تصابى به بعد ، وإلا لما قلت عنه إنه ليس
بالداء المستعصى .. ألا تدرين أن الإنسان يستطيع أن يضمن سعادته
مدى الحياة إذا استطاع أن يخترع «بنسلين» لداء الحب .

وأخذ الفتى يتحدث عن الحب ، وهو ينظر إلى شفيتها ، وتذكر
فجأة قول أخيه «هل قبّلتها» ، ورأى بعين الوهم شفته تنطقان على
شفيتها ، فأحس بنشوة عجيبة .

يا لأخيه الطائش الأحمق كيف يستطيع أن يقبّلها على الكورنيش
وسط هذه الجموع الحاشدة ؟ ليت يفر بها إلى خلوة هادئة ! ؟

وفجأة بدأ الفتى يرفع ياقة «الجاكّة» ويظهر علامات التأفف من
البرد ، كأنما الجو قد حدث به انقلاب خطير ، ثم سألها فى تردد :

- يخيّل لى أن البرد قد اشتد ، أهنأك ما يمنع من أن نترك
الكورنيش ونتمشى قليلاً فى الشوارع الداخلة ؟

- أبداً كما تشاء ، ولو أنى لا أحس بذلك البرد الذى تدعيه !

وتركا الكورنيش ، وسارا جنباً إلى جنب فى تلك الشوارع الهادئة الساكنة ، ثم عبرا ترام الرمل ، واستمرا فى السير حتى وصلا إلى المقابر القريبة من «المزاريطة» ، ولم يشعر الفتى قط بوحشة من المقابر ، بل تمنى لو كانت الدنيا كلها مقابر حتى يستطيع أن ينعم بفتاته دون أن يضايقه إنسان .

ولم يخشى المقابر وهى لاتزيد عن مضاجع يرقد فيها إنسان فى أحسن حالاته .. إنسان قد خلا من النفاق والرياء واللؤم والخسة .. إنسان قد سكنت يده عن ارتكاب الشرور والآثام ، وصمت لسانه عن فحش القول وسقط الكلام .. إنسان لاهو بهمزة ولا لمزة .. إنسان ترك ما له الذى جمعه وعدده وحسب أنه مخلده ، فلا أبقاه ولا أخلده . إنسان ليس بشيطان رجيم ولا مناع للخير معتد أثيم ، أفهناك خير منه ؟ أو ليس الإنسان الميت خيراً من الحي ؟

لقد سار الفتى بين المقابر فلم يتغامز عليه الموتى ولم يتشاوروا ، ولم «يتنحنحو» ولم يتصايحوا .. ولم يقم بينهم واحد يدعى الشرف فيصيح بالفتى أن يترك الفتاة ، ولم يجر وراءه الأطفال صائحين مهللين .. لم يفعل الموتى شيئاً من هذا ، بل استمروا فى رقادهم هائنين ، وتركوا العاشقين يسيران فى هدوء واطمئنان .

وأخيراً اقترب الفتى من شجرة ضخمة عتيقة فجلس مع فتاته على حجر فى أسفلها ، وطاف برأسه قول أخيه :

«هل قبلتها ؟» كم كان يتمنى لو مست شفتاها شفتيه . «هل أمسكت يدها ؟» نعم إنه الآن يمسك يدها بين كفيه ، ما أطف يدها وما أرقها ، عجيب هذا الشيء الذى يسمونه «الحب» .. إن المرء لىظل يصافح آلافاً من الأيدي دون أن تتحرك فى جسده شعرة واحدة ، ثم

تراه يلمس ذات مرة يداً خاصة فإذا بتيار قد سرى منها إلى جسده فجعله يتفض من أحمصه إلى قمة رأسه .

وافترق الاثنان بعد حديث ذى شجون ، ولكن الفرقة فى هذه المرة كانت إلى لقاء . وعاد الفتى أدراجه إلى البيت ، وكان أول ما قاله لأخيه هو أنه قد أمسك يدها . وضحك أخوه ، وأخبره أنه تقدم محسوس وترك له الفرصة حتى الغد لينبئه أنه قبلها .

وكان اللقاء فى اليوم التالي أكثر روعة وسحراً ، ورأى الفتى فى ضوء القمر الخافت الضعيف مبعثاً للفتنة ، فأمسك بيد الفتاة وتطلع بعينه الى شفيتها ، وأخذ يقرب وجهه من وجهها ، ثم ترك يدها تنساب على ساقه وأمسك رأسها برفق وتخلل شعرها بأصابعه ، وجذب وجهها إلى ناحيته قليلاً ليبعد عنه ظلال الشجرة ، وبدا الوجه فى ضوء القمر أروع من أن يوصف .. ونظر الفتى فى عيني الفتاة ، فبدت منهما نظرة استسلام وانتظار . ورأى أجفانها تنطبقان ببطء كأن الفتاة قد راحت فى حلم أو غيبوبة .

«هل قبلتها؟»

لقد كان الفتى هو الآخر فى غيبوبة ، لقد اطبق شفيتها على شفيتها .. ثم أخذ يمسهما مساً خفيفاً .

أهاتان شفتان كبقية الشفاه ؟ ! لقد كان الفتى على استعداد بأن يجزم ويقسم أنهما شيء آخر ، هاتان الشفتان اللتان أطعمته من جوع ، وورواته من ظمأ ، لا يمكن أن تكونا كغيرهما من الشفاه ، إنهما ينبوع يفيض بالحلاوة والعذوبة ، إن بهما شيئاً عجيباً ، إنه سحر أو كهرباء أو شيء لم يستطع الإنسان معرفة كنهه بعد .

وعاد الفتى إلى البيت ، ورأى أخاه فلم يبدأ الحديث كما تعود .
فقد كان أشبه بالثمل ، ونظر إليه أخوه وقال ضاحكا :

- الظاهر أنك قد قبلتها ولكن القبله كانت شديدة عليك بعض
الشيء .

- هو كما تقول ، فإننى أحس أننى قد أصبت «بلطشة» قبله كما
يصاب الإنسان «بلطشة الشمس» .

- لطشة شمس ، أو لطشة هوى ؟ !

ومضت الأيام بعد ذلك والفتى يرتشف كؤوس الحب في مكانه
المختار ، وقد حنت عليهما الشجرة ، وسكن كل ما حولها كأن الدنيا
قد خلت إلا منهما .

وفى ذات يوم والفتى قد ركب الترام مع أخيه وأخذ يقلب
صفحات مجلة فى يده إذا بأخيه يقبض على ذراعه فجأة ويقول :
- هيا ، سننزل هنا .

- ولكن ليست هذه هى المحطة التى نريدها !
- لاتكن أحمق ، انزل .. لقد وجدتها أخيراً بعد أن أعيانى
البحث عنها .

ونزل الاثنان من الترام . والفتى يتساءل فى دهشة :
- من هى ؟

- تلك الفتاة التى أرسلتك للاعتذار لها ، لقد حاولت عبثاً أن
ألتقى بها بعد المرة الأخيرة . ولكن الظاهر أنها كانت غضبى ، وقد
لمحتها الآن تدخل هذا المحل .. انتظر لحظة حتى أتيك بها ، لتعرف
لها أنك أنت السبب فى ذلك الفصل البارد ، وأننى برىء منه .

واندفع الأخ وسط جموع الناس ثم اختفى فى محل قريب ، وبعد لحظة قصيرة عاد إلى الفتى وقد تأبط ذراع فتاة .

ولم يصدق الفتى عينيه ، وتسمر فى مكانه ، وأصابته صدمة عنيفة .. لقد كانت الفتاة .. هى بعينها صاحبتة !!

وود الفتى لو يستطيع الفرار ، ولكنه وقف أمامهما وجهاً لوجه . وأبصر أخوه ماعلا وجهه من دهشة وارتباك .. وسمع الفتاة بجواره تهتف :

- أهذا أخوك ؟

ووقف الأخ حائراً بين الفتى والفتاة . وقد أصاب الاثنين شبه ذهول ، وساد بينهما صمت عميق ، وفجأة لاحت له الحقيقة من وجه أخيه ، إذ كان لا يخطئ قراءته قط ، فلم يرد أن يزيد الموقف حرجاً ، وانسحب من بينهما ، واختفى بسرعة بين الجموع المتحركة ، معتذراً بأنه قد لمح شخصاً يعرفه .

ولم يتحدث الفتى كثيراً مع الفتاة ، فقد كان يشعر بضيق شديد ، فافترقا بعد هنيهة ، وذهب الفتى إلى الشاطئ وقد شرد ذهنه ، وغرق فى لجة من الأفكار .

ولم يعد الفتى إلى البيت إلا فى وقت متأخر من الليل ، فتسلل إلى فراشه فى صمت وسكون .

وفى الصباح لم ينس واحد منهما بينت شفة .

لقد كان يحس بخجل من أخيه .. ترى ماذا قد ظن به ؟ أترأه قد حسب أنهلقى الفتاة فى الموعد فأغراها بمصاحبتة بدل أن يعتذر لها ؟

وود الفتى بعد ذلك لو يشرح لأخيه أنه لم يكن يدرى قط أنها
هى صاحبتة وأن المسألة لاتعدو أن تكون صدفة عجيبة ، ولكن أخاه
كان يبدو أنه لا يود الخوض فى الموضوع مرة أخرى ، فما أتى ذكر
الفتاة قط على لسانه منذ ذلك اليوم .
وعزم الفتى على ألا يلقى الفتاة بعد ذلك ، وأن يمحو كل أثر
لها فى نفسه .

واستطاع أن ينفذ ماعزم عليه ، ولكنه كان يدفع الثمن باهظاً ..
لقد كان يدفعه من عصارة قلبه ، ومن نفسه الضاحكة المرححة التى لم
تعد بعد مرحلة ولاضاحكة .

لقد نجح فى أن يترك الفتاة ، ولكنه لم ينجح فى أن يمنع ذلك
الاكتئاب من أن يسرى إلى نفسه ، وذلك الحزن من أن يتسرب إلى
قلبه فيطرد كل ما به من نعيم وهناء .

لقد أصبح كئيباً حزيناً ، كثير الإطراق والوجوم ، كثير شرود
الذهن وغروب البال ، وكان يبدو كأنه زهرة تذوى أو ذبالة تخبو .
وفى ذات مساء خرج من الدار ، فإذا بقدميه تسوقانه من حيث
لا يدرى إلى شجرة بين القبور ، لقد كان به حنين زائد وشوق مفرط ..
لقد ساقته قدماه إلى حيث تحيا نفسه ويهوى قلبه .

وما زرتكم عمداً ولكن ذا الهوى

إلى حيث يهوى القلب تهوى به الرجل

وجلس الفتى تحت الشجرة وقد لفته الظلمة فدا كأنه شبح من
أشباح المقابر ، وتلفت بجواره فخيّل إليه أنه يبصر بين الظلمات وجهها
المضىء وعينيها الساحرتين ، ثم تحسس بيده فلم يجد إلا الفراغ
والظلمة .

أتراه قد جن بها ! كما جن من قبله قيس بليلي ؟
 إنه يسمع وقع أقدام تأتي من بعيد ، أنها تقترب ... ترى هل هي
 الأخرى أوهام وأحلام ، أم هو حارس المقابر يجول فى الطرقات ؟
 لا ، إنها ليست أوهاماً ، إنها أصوات حقيقية . لاشك أنه
 الحارس الكهل .

وأخذت الأصوات تقترب رويداً رويداً والفتى مستغرق فى
 الصمت والسكون حتى أحس فجأة يده تمس كتفه ، وانتفض الفتى
 وأحس ببرودة فى بدنه ، ثم تلفت خلفه ، فكاد قلبه يقفز فى جوانبه .
 إنها هي !! هي بعينها وصدرها وساقها ، ليست روحاً ولا
 شبحاً .. لقد أمسك يدها فأحس بدفئها يسرى فى بدنه ، وأمسك
 بذراعيها وضمها إليه فأحس بصدرها الممتلىء يغمر صدره ، وتحسس
 يده شعرها ووجهها فإذا به كما كان غضاً غضاً بضاً .
 وتحركت شفتاها وهمست قائلة فى صوت يكاد يسمع فيه صدى
 لبكاء خافت :

- كنت أحس أنك لابد آت ، فكنت أحضر فى كل مساء
 وأجلس وحيدة فى هذه الظلمة الموحشة والسكون المخيف ، ثم أعود
 أدراجى مكتبة حزينة ، ولكنى كنت أشعر أنك ستأتى فى يوم ما ، فلم
 يفشنى اليأس .. حتى رأيت شبحك اليوم يلوج وسط الظلمة ، فعلمت
 أن القلب لا يخطئ .

واتخذ الاثنان مكانهما تحت الشجرة ، وبدأ يعوضان ما فاتهما من
 حب فى أيام الفرقه .. ولكن الفتى عاد يسمع أصوات أقدام تقترب مرة
 أخرى ، فقال لنفسه :

- هذه المرة لابد أن تكون أقدام الخفير .

- وأخذ الصوت فى الاقتراب ، ثم أحس الفتى بيد تمس كتفه ، فانتفض واقفاً ، فإذا بأخيه قد وقف خلفه .

ووجم الفتى فلم ينبس ببنت شفة .. وأحس بالخجل من أخيه وبدا كأنه سارق ضبط متلبساً بجريمته .. وساد صمت عميق ، وسكون كذلك السكون الذى يوحى بالعاصفة .

وكان أخوه أول من تكلم .. وبدأت نبرات السرور والحنان واضحة فى صوته :

- لو أعرف أنك هنا تتمتع بالغرام لما جشمت نفسى مشقة تتبعك وسط هذه القبور الموحشة . لقد خشيت أن يعصف بك الحزن ، ولكن الظاهر أن الهوى هو الذى سيعصف بك ، لقد ظننت أنها هى التى هجرتك ، وخيل لى أن هذا هو سبب حزنك ، ولم أرد أن أتدخل فى الموضوع خشية أن أولمك ، غير أنى عزمت اليوم أن أحضرها لك بأية وسيلة حتى أذهب عنك ذلك الأسى الذى ملأ قلبك ، ولكن يبدو أنها هى الأخرى قد مَسَّها جنون الحب أيضاً ، فوفرت على مشقة التدخل وما أظنك الآن بحاجة لى .

وبدا السرور والدهشة على وجه الفتى ، وصمت أخوه لحظة ثم أردف :

- يا للعشاق الأغبياء ! يستبدلون بالعرمان الخراب ، والأموات بالأحياء ، وبالنور الظلمة ، وبضجيج المدينة سكون القبور ، ثم يشعرون بعد ذلك بالسعادة ، وينكرون أن الحب جنون !

ثم رفع يده فوضعها على كتف أخيه وقال مخاطباً الفتاة :

- لا تبخل على بالحب ، ولا تسبي له ما يضايقه ، بل أحبيه
بكل ما فى قلبك من شعور وإحساس ، لأنه يستحق الحب .
ثم ضم الفتى إليه وقبله فى عطف وحنان ، واستدار فى صمت
وعاد أدراجه .

وعاد العاشقان مكانهما تحت الشجرة .. وأحس الفتى بالطمأنينة
تملأ قلبه .. واقتربت منه الفتاة فأسندت رأسها إلى صدره .. وضمها
إليه بشدة كأنما يخشى أن تنتزع منه .. ومد يده يتخلل بأصابعه شعرها
الذى ملأ عييره أنفه .. ويتحسس تقاطيع وجهها الدقيقة الساحرة .
وساد المكان سكون إلا من وقع أقدام أخذت تبعد رويداً
رويداً .. حتى خفت صوتها .. وعاد صاحبها إلى ضجيج المدينة ..
تاركاً العاشقين المجنونين يتمتعان بسكون القبور .

★ ★ ★

صُيُوع .. دُفِينُ

- إلى أين ياعم منصور ؟
- لن أتغيب كثيراً ياسيدى .. سأعود بعد لحظة .
- لعله موعد غرام ؟
- هل بقى لهذه اللمة البيضاء ، وذلك الظهر المحدودب ..
- والعروق النافرة ، سبيل إلى مواعيد الغرام ؟ سامحك الله ياسيدى .
- فلماذا إذن لاتفصح ؟
- الأمر لا يستحق الإفصاح .. لقد تعودت أن أحمل بعض فئات
- الموائد إلى عجوز مسكين يعيش فى كوخ على مقربة من الفندق .
- انتظرنى قليلا .. فسأذهب معك لأنى أريد التريض بعض
- الوقت فى هذا المساء .
- وتناولت عصاى ، وقمت مع الرجل .. وسرنا فى الطريق الممتد
- على سفح الجبل . وقد قامت إلى يميننا أبنية «الها كارمل» وإلى يسارنا
- الهاوية السحيقة التى تنحدر حتى أسفل الجبل .

كان ذلك فى صيف سنة ٤٣ . وقد ذهبت لأقضى بضعة أيام فى حيفا على قمم جبل الكرمل . ورأيت المدينة تقوم على سفح الجبل كأنها منزل من ثلاثة طوابق : الطابق الأول منه يقوم فى أسفل جبل الكرمل ، وفيه الميناء ومدينة العرب بيوتها القديمة الشاحبة .. والطابق الثانى فى منتصف الجبل ، وفيه مدينة الحادار بمبانيها الجديدة ، وأسواقها العصرية ، وقد غصت باليهود وجلهم من النساء .. حتى لقد سألت نفسى : كيف يتكاثر هؤلاء القوم ؟ .. أما الطابق الثالث فهو الهاكارمل ، وكان أشبه بضاحية أو مصيف .

نزلت فى الفندق الذى يقوم على قمة الجبل فى الهاكارمل .. وكان المنظر الذى يطل عليه بديعاً حقاً .. فقد كان الميناء يبدو كأنه رسم صغير على إحدى الخرائط . وكان البحر يمتد إلى أبعد ماتستطيع العين أن ترى .

وكان يخيّل لى أنه لا يوجد فى الفندق من المسلمين سوى وعم منصور ، ذلك الجرسون الكهل الذى نشأ بينى وبينه منذ اللقاء الأول ، نوع من الألفة والود ، إذ كان هو الوحيد الذى يمكننى التفاهم معه .

وفى ذات ليلة تأخرت فى الصعود إلى غرفتى ، وكان النزلاء جميعاً قد انصرفوا ، فلم يبق سوى وعم منصور ، ورأيت يغادر المكان ومعه صرة ثم خرجت معه ، إذ كنت فى حاجة إلى السير مشياً على الأقدام ..

ولم نكد نبتعد قليلاً حتى أخذ يحيد عن الطريق ، منحدرأ فى ممر ضيق متعرج فى سفح الجبل .. وتباطأت فى السير .. فقد كان أثر ما أخشاه أن أتعثرتنزلق قدماى ، ويكون فى ذلك حتفى ، وتهشيم عظامى !!

وبدت لى ذبالة تتراقص فى الهواء .. ووقف الرجل عند الكوخ متداع وسط ذلك المكان المقفر الموحش .. ودلف إلى داخل الكوخ وغاب لحظة ثم عاد إلّى ، ومضينا فى سبيلنا مطرقين فى صمت وسكون ، وكنت أنتظر أن يبدأ الرجل الكلام ، فيحدثنى بشيء عن العجوز ساكن الكوخ .. ولكنه استغرق فى صمته .. وكان حب الاستطلاع قد بلغ بى مبلغاً لايمكن السكوت معه . فسألته :

- ما قصة هذا الرجل .. ؟

- قصته وأيم الله عجيبة حقاً !! ومع ذلك فقد تكرر حدوثها فى هذا البلد حتى أصبحت لاثير أى عجب أو غرابة ! وبتنا لايدهشنا وقوعها ، بل يدهشنا عدم وقوعها !!

ثم عاد الرجل إلى صمته .. وخيّل إليه أنه أَرْضَى بذلك تشوّقى إلى سماع القصة . وعدت أستحثه على الكلام ، وجذبتُه من يده ، فأجلسته على سور حجرى يحجز جانب الطريق عن الهاوية ، ثم جلست إلى جواره وأخذت أشعل له سيجارة بدت على ضوئها تجاعيد وجهه كأنها أخاديد عميقة حفرتها معاول السنين .. وقلتُ أسأله :

- هيه .. ثم ماذا .. ؟

فرفع إلّى بصره . وقال له فى غير اكتراث :

- الأمر بسيط .. هل ترى ذلك البيت الكبير القائم وراء هذه الأسوار العالية التى تقوم أمانك مباشرة ؟ .. هل رأيت ذلك الكوخ المتداعى الذى غادرناه منذ لحظة ؟ .. لقد كان ساكن الكوخ هو مالك القصر .. وكان ساكن القصر ، مأواه الكوخ ! .. ثم تبادلا المأوى ، فهبط هذا .. وصعد ذاك ..

- ولكن كيف قبل العجوز تلك الصفقة الخاسرة ؟ .
- مكره أخاك لا بطل .. لقد كان عليه أن يتخير إحدى اثنتين :
إما أن يقبل الكوخ وفتات الطعام .. أو يبيت على الثرى ويأكل
الحجارة !

- ولكن ما الذى أكرهه على ذلك ؟ .
ولم يرد الرجل على سؤالي بل حملنى فى الهاوية المظلمة ، وفى
الأضواء البعيدة التى كانت تتراقص أمامنا ثم بدأ يحدث نفسه كأنه
يستعيد ذكريات أليمة :

- منذ عشرين عاماً ، كان ذلك العجوز المسكين أبعد الناس
عن الفقر والذلة والمسكنة .. إذ كان يملك نصف هذه الضاحية بما
فيها الفندق الذى تنزل فيه .. وكنت أعمل عنده كما أعمل الآن ، وكان
يعيش وحيداً لاورث له إلا ابن أخيه الطفل الذى فقد أبويه فتكفل هو
بتربيته .. وكان الرجل رغم ما وهبه الله من بسطة العيش وسعته ، كريماً
نبيلاً ، دمث الأخلاق ، جم التواضع ، وفى ذات يوم رأيت رجلاً رث
الثياب ، قبيح المنظر يطلب ما يسد به رمقه ورمق زوجته . وقد علمت
منه أنه هاجر حديثاً إلى هذا البلد .. وأنه قد أقام لنفسه كوخاً يأوى
إليه فى سفح التجليل .

وعلم السيد بأمره فرق لحاله ، وأمر بتوفير عمل له فى الفندق ..
وقد أبدى الرجل مهارة وحذقاً فى عمله .. فلم تمض مدة حتى أمر
السيد بإيجاد عمل لامرأته أيضاً .. ومن ذلك اليوم بدأ السيد ينحدر
فى الهاوية .

وسكت الرجل برهة ، فعدت أستحثة على الكلام ، فتمتم قائلاً :

- لا أطيل عليك .. لقد أوقعت المرأة سيد القصر في شراكها ..
فانقلب السيد عبداً ذليلاً .. وبدأت تستنفذ ماله شيئاً فشيئاً . وكانت
العملية أشبه ما تكون بنقل مياه من إناء ملىء إلى إناء فارغ بواسطة
خرطوم .. فما لبث الإناء الملىء أن أصبح خاوياً ، وامتلاً الإناء الفارغ
بالمياه حتى سالت على جوانبه .. وبين عشية وضحاها بدأ السيد يستدين
لكي يرضى المرأة التي جنّ بها حباً .. وهى تأبى إلا أن تستنزف دمه
حتى آخر قطرة !

وأخيراً وجد السيد نفسه ، ولنسمه سيداً على سبيل المجاز ،
ملقى على قارعة الطريق لا يملك حتى ما يسد به رمقه .. تماماً كذلك
الرجل الشرير عندما حضر لأول مرة .. ولم يجد ما يأوى إليه لتمضية
بقية عمره غير كوخ الرجل القديم ، وهجره الجميع ونبذوه نبذ النواة ..
إلا قلباً واحداً ظل يرق له ، ويعطف عليه .

- لعلك تقصد نفسك ؟

- كلا ياسيدى .. هذا العطف منى عليه .. إن هو إلا حفظ
لبعض الجميل ، ولو كنت أملك له أكثر من هذا لفعلت ..

- من تقصد إذن ؟ لعله ابن أخيه ؟

- كلا .. ولا ابن أخيه .. ولو كان موجوداً لكان بغير شك أشد
الناس عطفاً عليه وبراً به .. ولكنه عندما انحدر عمه إلى الهوة هام على
وجهه جرياً وراء القوت .. ولم نسمع شيئاً عنه حتى الآن .

- إذن من تعنى ؟

- ابنة الرجل الشرير !

ولم أستطع أن أكنم صيحة دهشة بدرت منى .. وسألت متعجباً :

- ابنة الشريد ؟ .. ولكنك لم تذكر لى أن له ابنة ؟

- لقد حملت امرأته بعد اشتغالها فى الفندق . بملدة يسيرة ، ثم وضعت طفلة .. الله أعلم من يكون أبوها .. ولكن أغلب ظنى أنه السيد ساكن الكوخ .. فإنى أكاد أرى صورة من ملامحه فى وجهها .. ولاشك أن هذا هو سر عطفها عليه ، وتعلقها به .. وما أكثر ما كنت أشاهدها تنتظر حتى تسمع غطيط أبيها فى مقعده فتسسل خفية إلى الكوخ .. وكثيراً ما زجرها أبوها ومنعها من الذهاب إلى الكوخ ، ولكنها استمرت تذهب إليه ، حتى يشس الرجل من منعها من الاتصال به ، فلم يعد يضيق عليها الخناق ، وخاصة بعد أن ماتت أمها .

- هل ماتت المرأة ؟

- نعم .. وكم بكى المعجوز عليها مر البكاء .. فقد كان المسكين لايزال يهيم بها رغم ماجرته عليه من سوء ووبال !

وسكت الرجل ، وقام من مكانه ، وعدنا أدراجنا إلى الفندق .. ونظرت خلفى فوجدت القصر الشاهق يطل على الكوخ كأننى به يهمس إليه : متى يعود السيد ؟ ! متى يقلع عن استخذه ؟ . متى يترك جوفك المظلم ، ويصعد ليطرد ذلك الغريب الدخيل !!

وبعد سنتين من ذلك التاريخ ، أى فى الصيف الماضى .. ضمنى ذلك المكان مرة أخرى .. وكان كل ماحولى .. كما عهدته لم يتغير ولم يتبدل .. حتى عم منصور بمشيته البطيئة المتثاقلة .. فكأن عجلة الزمن هناك قد أصابها العطب فكفت عن الدوران !!

وفى ذات ليلة خرجت للسير فى الطريق .. وسألت عم منصور أن يصحبنى .. وكان النزلاء قد صعدوا إلى غرفهم .. وقادتنى قدمائى

إلى تلك البقعة التي جلسنا فيها منذ عامين ، والتي قص على فيها قصة ساكن الكوخ وبحثت في الظلمات عن الذبالة التي كانت تراقص في الكوخ ، فلم أجد لها أثراً ، فظننت الرجل قد مات .: وسألت في غير اكتراث :

- أين صاحبك ؟ . إني لا أكاد أتبين كوخه .

- لقد صعد .

- صعد إلى ربه ؟

- لا .. بل إلى القصر !

وضحك الرجل ضحكة عالية ، ورأيت وجهه يشرق بالابتسام ، ثم أردف :

- لقد تبادلا المأوى مرة أخرى ، فصعد السيد إلى القصر ، وهبط الرجل الآخر ، ليس إلى الكوخ هذه المرة ، بل إلى باطن الأرض . وظننت الرجل يهزل .. ولكنه كان جاداً في قوله .. وأخذ يفسر لي ما حدث ، فقال :

- لقد عاد ابن أخيه فجأة .. وكان طوال هذه المدة مهاجراً في مصر وساعده الحظ فأصاب بعض الثراء .. فلما عاد إلينا نزل في الفندق ، وسأل عن عمه فقدته إليه ، وحاول أخذه معه إلى الفندق .. فرفض العجوز .

والتقى الفتى بابنة الرجل .. أو على الأصح بابنة عمه .. وبدأ الهوى يتسلل إلى قلوبهما .. ووجدت بذور الحب في نفسيهما أرضاً خصبة فأينعت وازدهرت .. ولم يدهشني قط أن يقع كلاهما في هوى

الآخر ، فقد كان الفتى وسيما أنيقاً ، حلو التقاطيع ، جذاب الملامح ،
تمتلىء نفسه قوة وأملا .. وكانت الفتاة نموذجاً للجمال فياضة السحر
والفتنة .. لطيفة المعشر حلوة الحديث .

وكان يلذ لى أن أترقب تطور الغرام بين هذين العاشقين
الرفيقين .. وأتتبع تلك النظرات الخفية المختلصة . وذلك الاضطراب
الذى يعرف كليهما إذا ما التقت الأبصار وتحدثت الأعين .

وكان أول لقاء لهما فى كوخ الرجل .. عندما خرج الفتى
يتبعها ، ذات مرة ، فأدهشه أن يراها تنحدر من الطريق وتدلف إلى
الكوخ .

ترى أى شىء دفع الساحرة لزيارة عمه فى كوخه الحقير ؟
أتراها قد تعودت زيارته من قبل ؟ .. أتراها تعرف أنه عمه ؟

واغتبط الفتى .. وسرّه أنه يستطيع أن يجلس إليها ويتحدث معها
فى الكوخ ، ولكنه كان يخشى أن تحتقره عندما تعلم أن ذلك الرجل
الفقير هو عمه .

ولم يطل به التفكير .. فقد اندفع إلى الكوخ ، وأبصرته الفتاة
فبدت منها صيحة دهشة .. وازدادت دهشتها عندما أبصرته يعانق
العجوز فى عطف وحنان .

ومن ذلك اليوم بدأ الهوى يشد وثاقه على العاشقين ويطويهما
فى تياره الجارف ، وبحره الفياض ، وأصابتهما نشوة الحب .. فما عاد
يصر أحدهما فى هذه الدنيا سوى صاحبه .

ولم يعد غرامهما يخفى على أحد .. وسمع به أبوها فأوجس منه
خيفة فقد كان يكره كل ما له علاقة بسيدة القديم .. ونهر الفتاة ،

وحاول أن يثنيها عن حبها بكل ما لديه من طرق وأساليب .. ولكنه
كان كالصائح في ييذاء ، وأخيراً قرر أن يرحل بفتاته بعيداً عن الفتى .
وذهب العاشقان إلى صاحب الكوخ وقد ملأهما الحزن ..
وسألها فأنبأه بجلية الأمر .

وصمت العجوز برهة .. ثم ربت على كتفيهما بخنان .. وطلب
منهما ألا يحزنا فإنما يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وفي اليوم التالي لم يعد صاحب القصر إلى قصره . وظلوا يبحثون
عنه عبثاً طوال الليل .. وفي الصباح وجدت جثته ملقاة في أسفل
الجبل ، أعضاء محطمة ، وأشلأ مهشمة .. ولا يدري أحد حتى الآن
أزلفت قدم الرجل مصادفة فهو .. أم أن أحداً دفعه في ظهره دفعة كان
فيها حتفه ! الله وحده أعلم بذلك .. !

وعلى أية حال لقد تزوج الفتى من الفتاة وأصبح هو صاحب
الضياع والقصور .. وبذلك صعد بساكن الكوخ ، مرة أخرى إلى
القصر ! .. وفي مكان الكوخ حفر قبر وضعت فيه حطام البجثة ..
وهكذا كان الكوخ للرجل أول مأوى وآخر مثوى !!

★ ★ ★

المرأة اللاعري

كان الوقت بين الظلمة والضيء .. فالشمس جرت لمستقر لها ،
تاركة حواشيها الحمر كأنها ستار أسدل على الضوء والحياة ، وبدت
النجمة الأولى في أقصى الأفق تسطع في لألاء وبريق ، وقد اجترائت
على الظهور ، ولم يختف ضوء النهار بعد ، فكأنها معتدة بنورها ، واثقة
من أن نور الشمس الغائبة لن يطغى عليه ، أو كأنها تدرك أنها في مستهل
الحياة ، وغيرها يغيب ويضمحل .. وأسندت السيدة الشابة ظهرها إلى
الشجرة الضخمة القائمة أمام الدار ، وسبح بصرها في الحقول الخضراء
المتراصة الأطراف ، وهب نسيم المساء البارد فلفح وجهها .

كان كل شيء كما عهدته ، من زقزقة عصفر إلى نقيق
صرصور .. وقد عاد الفلاحون إلى دورهم يترتمون بأغانهم المرحية ..
لم يتغير شيء ألبتة مما تعودت رؤيته كلما وقفت وفتحتها هذه .. حتى
هذه النملة الضئيلة ما زالت تكرر محاولتها للصعود على جذع الشجرة
الأملس .

كان كل شيء كما هو .. عدا قلبها ، فقد كان حزيناً ،
كسيراً .. وكانت تتوجس في نفسها خيفة وتتوقع شراً .. فللمرة الأولى
منذ سبع سنين تقف وقفته تحت الشجرة الضخمة وحيدة منفردة ، وقد
تعودت من قبل أن يصاحبها زوجها المحبوب .

أما الآن فقد شعرت ، وكأن بينها وبينه ما بين السماء والأرض ،
وأحسّت كأن أمرهما معاً قد شارف النهاية ، وأن كل ما بينهما خلال
تلك السنين السبع الطوال قد أصبح كأن لم يكن .

قلبت البصر قليلاً فيما حولها بين هذه الأرض الخضراء الطيبة ..
وتلك الدار الجميلة الهادئة ، التي نعمت بها حيناً من الدهر ، ثم سألت
نفسها هامسة :

هل الزمان معيد فيك لذتنا

أم الليالي التي أمضته ترجعه ؟

وبسطت كفها أمام عينيها ، فإذا بها جافة خشنة .. ذهب برقتها
العمل المضني في الدار ، وأضرّت بها الحياكة والطهو ، وتربية
الضغار .. وبدأت تقارن بين هاته الكف ، وكف المرأة الأخرى الغضة
البضة ، الجميلة الناعمة ، التي عادت إلى زوجها بعد سبع سنين طوال ،
فاستطاعت أن تلتهمه بين فكيها ، وأن تخرجه من حظيرتها ، بنظرة من
عينيها الساحرتين وإشارة من بنانها الحلو الجميل .

وعادت بها الذاكرة إلى عدة سنين خلت ، حين قال لها زوجها
ذات مرة :

- لاشك أنها لو عادت إلّي في أية لحظة ، فسأعود معها .

واليوم ، بعد هذه السنين الطوال .. بعد أن ظنت أن المرأة الأخرى لن تعود أبداً .. إذا بها تهبط إليه لتنتزعه من داره الهادئة .. وزوجته الوفية وولديه الجميلين .. نعم سيعود معها وتحت إبطه لوحاته الزيتية الجميلة ، إلى الدنيا الصاخبة التي كان يعيش فيها قبل أن تتزوجه وتضمه إلى وكرها الهادئ .. نعم ، سيعود إلى الدنيا التي كان يجب أن يعيش فيها لو لم تعترضه هي طريقه .. سيعود إلى دنيا الشهرة .. ودنيا المجد .

ورنت في أذنيها ضحكة المرأة الأخرى ، وقد ذهب زوجها معها ليقودها ، ويوصلها إلى أول الطريق ، ثم سمعت أقدامه وهو يعود وحيداً ، واقترب الصوت منها رويداً رويداً .

وكانت حمرة الأفق قد بدأت تتحول إلى لون قاتم داكن .. والنجم اللامع الوحيد لم يعد بعد وحيداً ، فقد رصعت السماء بالكثير من أمثاله .

وأغمضت عينيها .. كانت تعلم أنه سيأتي إليها ، فقد تعود دائماً أن يفضي إليها بدخيلة نفسه في هذا المكان .. وسمعت هذه الشجرة الكتوم كل أسرارها وأحاديثها فلا بد أن يأتي الآن ليخبرها ما انتوى فعله ، وما أجمع عليه أمره .. وتساقطت عبرتان من بين أهدابها المغلقة وهمست لنفسها :

— إذا عاد إلى المرأة الأخرى ، فليس لي أن أشكو ، لقد أخذته منها من قبل ، فلها أن تسلبني إياه .. وكفاني متعة تلك السنين الخوالي فلن يستطيع كائن ما أن يسلبني متعة ذكرياتها .

★ ★ ★

ومرّ الماضي في مخيلتها .. تتابع صوره في سرعة البرق ..
في ذات يوم منذ سبع سنين كانت تجلس جلستها هذه تحت
الشجرة المعهودة .. حين سمعت صوت عربة تقف في الطريق أمام الدار
الكبيرة المجاورة ، ثم نزل منها شاب غريب عن الناحية ، وتقدم إلى
الباب .

وظنت الرجل يحتاج لبعض الماء لنفسه أو لعربته .. فهتّت
بالتقدم من الفتى لتخبره أن الدار مهجورة لا يقطنها سوى الحارس
العجوز .. ولكن لشد ما أدهشها أن رأيته قد دفع باب الحديقة بيده
وتقدم في ثقة كأنه صاحب الدار .. ثم نادى الحارس باسمه .. فتقدم
منه العجوز ، وحيّاه بشوق ، وسأله في لهفة :

- خيراً ياسيدي .. ترى ماذا جاء بك في مثل هذا الوقت ؟ ..
ماذا دفع بنا في ذاكرتك بعد طول هجر ونسيان ؟ .. إني لم أرك منذ
كنت تصطاد على شاطئ الترع «بالبنطلون القصير» !!
وقهقه الفتى :

- مازالت ذاكرتك قوية «يا عم محمد» إني أنوى أن أقضي هنا
بضعة أيام لأنني في حاجة إلى الراحة وإن كنت أخشى أن يقتلني الملل .
- لا تخف .. لدينا الكثير من وسائل محاربة الملل ، وخصوصاً
إذا كانت المسألة بضعة أيام .. سأجهز لك «سنارة» لصيد السمك ..
وبندقية لصيد الطيور ، ولدينا كذلك نوع آخر من الصيد .. أغلب ظني
أنه هو الذي سيبعد عن نفسك الملل .

ثم تقدم العجوز وهمس في أذن الفتى بضع كلمات لم تستطع
هي أن تميزها ، ولكن الفتى صاح مقهقهاً :

- يا لك من خبيث .. ألا تعلم أنني خاطب الآن ، وأننى على وشك الزواج .. إن هذا النوع من الصيد محرّم على .

وسار الفتى متجهاً نحو الدار ، وكان بمشيته عرج خفيف ، فسأله العجوز :

- ولكن ماذا أصابك ياسيدى ؟ إننى أراك تعرج ! .. وأرى بيدك أثراً لجرح ! .

- حادث سيارة بسيط .. لا أرى أن تخبر به أحداً .. لقد أتيت إلى هنا لأنّقه منه ، لأننى لا أود أن يعلم به إنسان .

واختفى الفتى داخل الدار .. وجلست هى تفكر فى أمره .. لاشك أنه ابن الرجل الثرى صاحب الدار ، وصاحب تلك الأملاك الواسعة .. وأغلب الظن أنه فتى مدلل عايب .. ولاشك أنه قد أصيب فى حادث عربة مع إحدى الفتيات العابثات ، وهو على وشك الزواج ، ولا يرغب فى إثارة فضيحة حوله .. ولذا فقد حضر إلى هنا ليخفى آثار الحادث ، ثم يعود بعد ذلك إلى خطيبته .

هذا هو ما استطاعت أن تستنتجه من حديث الفتى .. على أية حال هو لا يهتمها فى قليل ولا كثير .. فهى تكره هذا النوع من الرجال .

كانت الفتاة تقيم وقتها مع أمها .. فقد توفى أبوها تاركا لهما بضعة أفدنة كان ريعها كافياً لأن يهين لهما حياة متوسطة هادئة .. فلم تحاولا أن تتركا الدار ، واستمرتا على الإقامة فيها دون تغيير يذكر فى حياتهما .

وعادت الفتاة إلى دارها فقصت على أمها قصة الفتى وأنباتها أنه

قد أضحي لهما جار جديد لبضعة أيام .. ولم يد على المرأة شيء من
الاعتباط بجارهما الجديد وقالت لها في شبه تحذير :

- إياك وهذا النوع من الرجال .. فهو أناني أحق .. لا يأبه
إلا لمتعته ، ولا يهمه إلا إرضاء نفسه .

وأحست الفتاة ببعض الخجل ، وندمت على إظهارها الاهتمام
بمجيء الفتى وعزمت في نفسها على أن تعتبره غير كائن .

وفي اليوم التالي صادفت جارها الجديد وجهاً لوجه فحياها في
أدب ورقة ، فردت عليه باقتضاب .. ولكنه أقبل عليها يحدثها كأن
بينهما ودًا سابقاً وصداقة قديمة .

وكان الفتى حلو الحديث ، لطيف المعشر .. فلم يسعها إلا أن
تنصت إليه .. ولم تجد هناك مبرراً لصدده ما دام سيرحل بعد أيام
معدودات .. وما دامت لاتحس له خطراً على نفسها فهي تعلم أنه على
وشك الزواج .. وأن كل ما يطلبه هو أن يذهب عن نفسه الملل
والسامة .

ومرت الأيام فازدادت أواصر الصداقة بينهما ، وأصبح كل
منهما ، يجد سروراً في لقاء الآخر ، ولم تعد الفتاة تحاول تجنبه أو
الحذر منه وخاصة بعد أن التقت به أمها فلم تجد فيه ذلك الفتى العايب
الذي كانت تخشى منه على ابنتها بل وجدت فيه فتى مهذباً رقيقاً قوياً
الخلق سليم القلب .

ولم يحس الفتى - كما كان يتخيل - بأى ملل يتطرق إلى
نفسه .. فقد سره كل شيء في حياته الجديدة ، وأعجبه كل ما حوله :
ذلك الهواء النقي وتلك الخضرة التي لا يكاد يدرك البصر مداها ،

والحرية التى يتمتع بها وأخيراً هذه الفتاة الصديقة التى تبين فى نفسها رقة وعذوبة لم يتبينها فى كل من صادفهن من الفتيات .

وكانت الفتاة قد تعودت أن تجلس فى كل مساء تحت هذه الشجرة العجوز .. وفى جلستها هذه كانت تحس أن هموم يومها قد بدأت تتطاير وتتلاشى كما يتلاشى الدخان فى أجواز الفضاء .

ففى ذات مساء .. بينما كان الفتى عائداً من جولة فى الحقول اقترب من الشجرة فإذا به يحس بشبح يقف أمامه فجأة ، وعندما تبين من خلال الظلمة أنها الفتاة .. صاح ضاحكا :

- لشد ما أفرغتني .. لقد ظننتك والله جنياً قد خرج من جوف الأرض ، فلقد خيل إليّ أنك قطعة من الشجرة .

وابتسمت الفتاة وقالت :

- ومن قال لك إنى لست قطعة منها .. لقد تعودتها ، وتعودتنى ، حتى أصبحت لا أكاد أحس بالهدوء والطمأنينة إلا فى جوارها .

- إذن لشد ما يؤسفنى أنى أزعجتك فى وحدتك ، وأنى قد أفسدت عليك هدوءك وطمأنيتك .

- الأمر لا يستحق الاعتذار .. فلا أنا بأنانية ولا الشجرة ببخيلة ، وكلانا يسمح للغير بمشاركتنا فى أحلامنا الهادئة إن كانت تمتعه الأحلام .

وضحك الفتى ثم جلس بجوار الفتاة .

وقالت الفتاة إن أباهما قبل أن تفقده قد أخبرها أن الحياة ليس فيها ما يستحق أن يحزن المرء من أجله ، وأن عليها كل يوم قبل أن تنام أن

تحضر إلى هذه الشجرة الحنون وتدفن همومها في جوفها .. وبعد أن تناجي النجوم تذهب إلى فراشها قرية العين ناعمة البال .

ولم تكن الفتاة تعرف أنه يجيد الرسم بمثل هذه المهارة إلا عندما رآته ذات يوم وقد أتم رسم الشجرة العجوز .. فما كادت تنظر إلى الصورة حتى شعرت أنه لا بد أن تكون أكثر من صورة فقد كان الناظر إليها يكاد يحس ضخامتها ويسمع حفيف أوراقها ، ولم تمالك الفتاة أن صاحت :

- بديعة !

وضحك الفتى .. ثم قال :

- ليتك تخبرين أبي بهذا .

وتعجبت الفتاة :

- أباك ! هل ينكر عليك فنك ! ؟

- إن حياتي أمامه مزدوجة .. فالدكتور جيكل يقوم أمامه بدراسة القانون حيث يرغب هو في أن أكون خليفته في المحاماة ، والمستر هايد غارق من خلفه في لوحاته الزيتية وفي دراسة الرسم .

وصنمت لحظة .. ثم قال في حلق :

- لا أدري لِمَ كل هذا الإصرار من جانبه ؟ لعن الله القانون ودراسته .. هو سبب شقائي في هذه الحياة .. ولولا تهديد أبي إياي عندما رسبت في الامتحان السابق ، لما شربت حتى ثملت ، ولما حدثت لي هذه الحادثة التي كادت تودي بحياتي .. على أن كل هذا لايهمني .. فسأعود بعد أسبوعين أو ثلاثة وسأقذف في وجهه بكتب القوانين وأخبره أنني لن أفعل شيئاً سوى الرسم وليفعل بعد ذلك ما يشاء .

ومد يده فى جيبه ثم أخرج حافظته .. وأظهر منها صورة فتاة
ساحرة شقراء ثم قال :

- هذه خطيبتى .. ما رأيك فيها ؟

- آية فى الجمال .

- ماذا تقولين إذاً لو أبصرت بالمخلوقة ذاتها ، لأدري أثر غيابى
عنها بهذه الكيفية .. لقد أرسلت لها خطاباً أخبرها بما حدث ، ولكنها
لم ترد عليّ كعادتها دائماً .. فهى أبداً فى رضا وغضب .. على أية
حال ! لن يأخذ الأمر منى أكثر من قبلة تعيد إليها الرضا مرة أخرى .

★ ★ ★

وفى ذات يوم افتقدته فلم تجده ، ودخلت عليه حجرته فإذا به
قد دفن رأسه بين كفيه ، وقد أطرق فى حزن مخيف .. وعجبت له
وهو الطروب الذى لا ينقطع صفيره إلا لضحك أو غناء .. وهزت كتفه
متسائلة عما أحزنه .. فرفع رأسه صامتاً وقال :

- لاشئ .

- لايمكن .. لابد أن هناك شيئاً خطيراً .

وقبل أن يجيبها وقع بصرها على إحدى المجلات الموضوعة
أمامه وقد نشرت بها صورة خطيبته بمناسبة عقد زواجها على رجل ثرى
شهير وسألته فى حزن :

- هل تحبها كثيراً ؟

- فوق مايتصوره عقل بشرى .. لقد لفظتني لفظ النواة ، ومع
ذلك لو عادت إليّ مرة أخرى فلن أحجم لحظة عن الذهاب معها .

وفى ذات صباح .. دخلت الفتاة على أمها لترتيب حجرتها فإذا بها مازالت نائمة ، وهى التى لم تتعود قط أن تتأخر فى النوم إلى مثل هذا الوقت .. ولم يكن هذا شذوذاً من الأم لأنها لم تتعود الشذوذ .. وكل مافى الأمر أنها قد عجزت عن الاستيقاظ .. فقد فارقت الحياة .

وفى اليوم التالى عندما جلست الفتاة حزينة تحت الشجرة ، حضر إليها الفتى وجلس بجوارها فى صمت ووجوم .

وكانت تحس بالرهبة تملأ نفسها إذ لم تكن تتصور كيف تعيش وحيدة فى هذه الدنيا الموحشة وكانت تود لو أطل الفتى بقاءه .. فقد كانت تشعر فى جواره كثيراً من الهدوء والاطمئنان . ولكنها كانت تعلم أن رحيله قد بات قريباً .

ولم يكن لها أن تطلب منه البقاء ، فمثله لم يتعود هذه الحياة الهادئة المملة ، ومهما أعجبت به الحياة هنا .. فلن يكون ذلك إلا لمدة قصيرة ، يعود بعدها إلى حياته الصاخبة .

وتحدث الفتى فى صوت يملؤه الحنان :

- الواقع أنى لأتصور كيف يمكننى أن أغادر هذا المكان الذى ملأ كل قلبى .. لقد استطعت فى هذه المدة القصيرة أن تملئ فراغاً كبيراً فى نفسى ، وإنى لأحس من فرط ما تعودت رؤيتك كأننا قد ولدنا معاً .. إنى أشعر بضرورتك لى ، ولا أكاد أشك لحظة أن مغادرتى هذه الدار ستفجعنى كل الفجعة .

وكانت صامته لاتحدث .. ولكن صمتها كان بليغاً .. وأردف هو :

- إني سأوجز القول وأكون فيه صريحاً كل الصراحة ، فذلك خير لنا وأبقى ، لن يمكنني أن أغادرك الآن . لقد حدثتك عن فتاتي الأخرى ، والواقع أنني لن يمكنني أن أعطيك ما أعطيها .. ولكن إذا قبلتني زوجاً ، فسأجهد أن أكون زوجاً صالحاً .

وشعرت الفتاة أن هذا غاية ماتمنناه ، فأطرقت ثم همست :

- وسأكون أنا الأخرى كذلك .

★ ★ ★

ومرت الأيام سراعاً .. وأنجبا طفلين ، وتعود هو حياة الريف ، وكان يقضى فراغه في الرسم ، فأنتج بذلك عدة لوحات .. منها بضع صور لفتاته القديمة وصورة عجيبة لزوجته بجوار الشجرة .

وكانت حياتهما هادئة سعيدة .. حتى كان ذلك اليوم الذي فوجئت فيه بسيارة تقف في الطريق وتنزل منها سيدة ، استطاعت أن تميز لأول وهلة أنها خطيبة زوجها التي صرفت عنه ، وتبعها صديقان لها : رجل وامرأته .

وشعرت بقلبها يعتصر في جوفها .. وأمضوا عندهم اليوم ، وكان زوجها شديد الغبطة والمرح كأنه قد عاد عشرات السنين إلى الورا .

وكانت قصة مجيئها في هذا اليوم .. هي أنها قد طلقت من زوجها ، وأنها كانت في نزهة إلى الريف مع صديقتها وزوجها الذي أقام معرضاً للرسم في القاهرة ، وأنهم قد مروا على هذا المكان فأخبرت صاحبها أن لها صديقاً قديماً ماهراً في الرسم ودعتها إلى زيارته لأنه على ما تذكر قد تزوج في هذه البلدة .

وفى نهاية اليوم شعرت صاحبتنا أن النهاية قد حلت ، فقد كان زوجها متلهفاً إلى صاحبتة القديمة ، وكانت فتاته قد أصبحت خالية . وقد شاهدوا لوحاته ودعوه لعرضها بالمعرض الذى أقامه الرجل ، فقبل ، ووعدهم باللاحق بهم .

وشعرت الزوجة أن الفتاة تحتقرها .. وأحست بالحزن يفيض فى جوانحها ، وبالهموم تملأ نفسها .. فتركت الجميع ، وتسملت إلى حيث عودها أبوها أن تدفن همومها تحت الشجرة الحنون .

★ ★ ★

وبعد أن ودّع زوجها المرأة الأخرى وصديقيها .. سمعت وقع أقدامه تقترب منها ، فأغمضت عينيها ، وشعرت بالأقدام تقترب رويداً رويداً ، وأعدت نفسها لاحتمال ما تنتظر من حديث قد يعصف بحياتها فتذهب مع الريح .. وسمعت صوت زوجها ، وشعرت بيده تربت على كتفيها ، ففتحت عينيها ، ورأت زوجها وقد انبسطت أساريره ، وتهلل وجهه ، وقد أمسك بيده بعض زهرات مما كانت المرأة الأخرى قد وضعتها فى صدرها .

وجلس جانباً كما تعود أن يجلس ثم قال :

- ما رأيك فيها ؟

- جميلة ولاشك ..

- إنها لم تتغير بتاتاً .. هذا السحر فى عينيها لم يطل بعد .. سأذهب معهم غداً لعرض لوحاتى هناك .. فقد وعدتهم بذلك .
وصمتت الزوجة .. ثم ألقت سؤالها فى خفوت وصمت :

- وهل ستعود؟

وضحك الرجل ، ثم لف ذراعه حولها ، ودفع إليها الزهور التي
كانت في صدر المرأة الأخرى وقال :

- هذه الزهور يعشقها المرء لجمالها ورونقها ، ولكنها عندما
تذبل يتحول عنها القلب سريعاً .

ثم رفع بصره إلى الشجرة الضخمة وأردف :

- ولكن هذه الشجرة التي لن تذبل المرء على مر الأيام ، ولن
يدب فيها الذبول على مر السنين ، أبقى في النفس وأكثر استقراراً .
وكذلك أنت والمرأة الأخرى .. أنت أشبه بشجرتك ، وهي أشبه
بزهورها .. لقد ظلت عالقة بنفسى هذه السنين السبع الطوال ، ولكن
عندما عادت وجدت أن حبها لا يعدو أن يكون وهماً من الأوهام ..
وتطايير من نفسى كالهشيم تذروه الرياح .

★ ★ ★

اللعن على القاتل

عللاني فإن يبيض الأمانى فنيث والظلام ليس بفان
فنيث يبيض الأمانى .. وقد كانت زاده فى سود الليالى ، وممتعته
فى الحياة وسلواه .. وكانت ملجأه عندما يحرم الملجأ ، وملاده عندما
يفتقد الملاذ .

أمانيه الحلوة قد ذهبت هباء .. وكيف تذهب أو تفنى وهو
صانعها ومبدعها من نسج تفكيره وخيوط أوهامه .

كان الفتى شاعرى النفس ، مرهف الحس .. وكان يعشق فى
الحياة كل مايشير كامن الشعور ويوقظ هاجع الإحساس .. وكان فناناً
بطبيعته ، وإن لم يبد للناس أنه فنان ، إذ لم تكن نفسه موجهة إلى نوع
معين من الفن ، فلم يكن رساماً ماهراً ، أو أديباً عبقرياً ، أو شاعراً
ملهماً .. ولكنه كان يعشق كل تلك الفنون ، ويجيدها بعض الإجادة ..
ولو تفرغ لواحد منها لوصل فيه إلى الإتقان .. ولكنه هو نفسه لم يكن
يحس أن لديه القدرة على التفرغ لأحدها ، إما لأنه كان يحبها جميعاً

بقدر واحد ، وإما لأنه كان يعتقد أن قدرته فى أى منها محدودة فلا يمكن أن تصل إجادته لها مهما حاول التفرغ إلى أكثر مما وصلت إليه ، لأن هذه المقدرة قد وزعت فيما بينها جميعاً .

كان يسمع الغناء الجيد فيحس أنه قد حمله إلى عالم جميل ناء ، ويطرب منه إلى حد البكاء .. وكانت له قدرة على محاكاته ، وكان يجد متعة فى ذلك .. فلا يكاد يكف عن «الدندنة» والغناء حتى فى أشد أوقاته ضيقاً وحرماً .

وكان يرى الرسم الجميل فيبعث فى رأسه نشوة ويملؤه طرباً .. وعندما كان يرسم يبشر عمله بالنجاح لو أكب عليه ، ولكنه لم يعرف الإكباب إذ كان سريع الملل .

وكان يقرأ الشعر والأدب ، فيلذ له الطيب منهما كما يلذ للنهم الأكل أطيّب الطعام ، وكما تلذ الراح لمدمن الخمر ، وحاولهما كثيراً فلم يخفق فيهما .

كل ذلك اجتمع الفتى فجعل منه كتلة من شعور رقيق وإحساس فياض ، وكان الأمر الطبيعي الذى يحتمه كل ما ملأ نفسه من شعور وإحساس وحب للفن .. هو أن يصبح الفتى عاشقاً مستهماً وصباحاً مولعاً .

وهذا هو بالفعل ما صار إليه أمر الفتى بعد .

كان الفتى يعتبر الحب فناً جميلاً كالشعر والرسم والغناء .. وكما أنه كان يجد فى نفسه القدرة على الاستمتاع بلذة الغناء من عشرات المطربين .. مادام الغناء جيداً . فكذلك كان يجد فى نفسه القدرة على الاستمتاع بحب عشرات الفتيات ، مادام نوعهن كذلك جيداً .

وعندما التقى بها أول مرة .. كان بقلبه بضغ حسنات من اللاتي
يستطيع حشرهن فيه مهما ازداد عددهن .. ونظر إليها لأول وهلة ،
فوجد لها على حد قوله «مش بطالة» فأفسح لها ركناً من قلبه لتقبع فيه
بجوار زميلاتهما من المعشوقات .

ولكن الفتى كان خاطئاً في ظنه .. إذ لم تكن الفتاة من نوع يقنع
بركن من القلب ، بل كانت أشبه بالدول المستعمرة الكبرى التي تحاول
التوسع والتمدد حتى يضيق بها العالم على سعته .. وكذلك استمر مكان
الفتاة يتسع في قلب الفتى .. وفي كل لقاء كانت تطرد منه إحدى
ساكناته حتى انتهى الأمر بالفتى إلى أن وجد قلبه قد خلا إلا منها إذ
ملأته واستحكمت في جوانبه .

وجد في الفتاة أنشودته العذبة ولحنه الجميل .. ورأى أن غيرها
قد بدا بجوارها نشاراً لا يطربه ولا يشجيه .

وكانت أحب الأوقات إليه تلك التي كان يخلو فيها إلى نفسه
بعد العشاء ، فيضطجع في إحدى الشرفات ويمد ساقيه ويسبح ببصره
نحو السماء .

كان الفتى يحس في ذلك الوقت أنه ليس من أهل الأرض .. إذ
يحملة خياله الشاعرى الرقيق ، ويطوف به محلقة في سماء المتعة
والنعيم .

إنه يجد في ساكنة قلبه الجديدة نوعاً لم يألفه من قبل .. فقد
كانت ساكنة مجهدة مضنية .. في أمور عجب .. وفي تصرفاتها معه
غربة وشذوذ .. كان الفتى قد تعود أن يرى فيمن استطعن التسرب إلى
قلبه نوعين : نوعاً يعرض ، ونوعاً يقبل .. نوعاً يمنح ، ونوعاً يمنع ..
نوعاً يبعث الأمل في النفس .. ونوعاً يحرقها باليأس .. وكان ينتهي به

الأمر إلى أن يعمل تصفية لما فى قلبه .. فيطرد منه- أولئك المتعبات مكثفياً باللاتى منحنه من قلوبهن الخصبه ما أمسك رmqه ، وروى ظمأه .

أما هذه الساكنة الجديدة التى لم تقبل الاستقرار فى قلبه إلا بعد أن أجلت عنه جميع ساكناته جلاء تاماً .. فقد كانت من نوع استعصى عليه فهمه ، وعسر عليه إدراكه .

كانت الفتاة لاتمنح ولاتمنع ، ولاتعرض ولا تقبل .. كانت تملأ النفس بالأمل ، وتحرقها باليأس .. كانت فى كل أحوالها غير مفهومة .. كانت ترق له بلا سبب ، وتتجهم بلا سبب .. تدنيه مرة وتقصيه مرات .. وكاد اليأس يملكه فهم بطردها من قلبه شر طردة .. إذ لم يكن من النوع الذى ييكنى على غرام .. وكان غرضه الأول من الحب هو إسعاد نفسه فإذا ماأوشك الحب أن يشقيها قتله فى مهده ، ولفظه لفظ النواة .

همّ الفتى أن يقصبيها عن نفسه فيتجاهلها كما تتجاهله ، وينكرها كما كانت تنكره ، ولكنها - لشدة دهشته - أبت عليه ذلك .. فقد جلس إليها مرّة فإذا بها تقبل عليه ، وإذا به يكتشف فى نفسها رقة وعذوبة جعلته ينسى كل ما كان من إنكارها له . فأقبل عليها بنهم وشغف .. وانسجما فى الحديث ، فتحدثت إليه كأن بينهما قديم صعبة .. ووجد الفتى نفسه يندفع فيقص عليها مبلغ إعجابه بها ولهفته عليها ، ولم تذكر الفتاة منه ذلك الحديث ولم تنهه عنه ، بل كان يبدو عليها الرضا والقبول ، وكان أكثر مايشمله منها ابتسامة عذبة يرى هو فيها ألف معنى .. ابتسامة تعلو شفيتها الرقيقتين كلما التقت نظراتهما ، ولعلها كانت تطفئ بالابتسامة ماتشعله فى قلبه بنظراتها المحرقة .

وحدثته عن نفسها فأدهشه أن يعلم منها أنها تعالج من مرض
أوشكت أن تبّل منه .. فقد كان لا يبدو عليها أى أثر لمرض ، اللهم
إلا تلك اللمحة البسيطة من الحزن التى تبدو فى أفق نفسها ، وذلك
الأثر الخافت من الضعف الذى يلمحه فى عينيها ، والذى لا يستطيع
المرء أن يميزه إلا عن قرب ، وبعد طول تحقيق .

وافترقا والفتى يحس للفتاة بنوع من الحب لم يعهده فى نفسه ..
حب أسمى بكثير من ذلك الحب الذى يياشره على سبيل التسلية ،
مجرد من كثير من الأنانية التى كان يتسم بها الحب الذى تعودّه ، فكان
يحس أنه فى حالته الجديدة يود أن يعطى أكثر مما يأخذ ، وهو الذى
كان يأخذ ولا يعطى .. وكان شعوره نحو الفتاة مليئاً بالرغبة فى
إسعادها ، وفى إزالة تلك اللمحة الحزينة من نفسها .. كان يتمنى أن
تكون لديه القدرة على تهئية أسباب الهناء لها ، وإبعاد السوء عنها .

ولكن الفتاة العجيبة أبت أن تهيب له فرصة إسعادها ، فقد صدته
فى المرة التالية فى غير رفيق ، وتناست ما كان من أمره وأمراها ، فكأنها
ما حدثته ، وما ابتسمت له تلك الابتسامة التى حوت معنى وألف معنى .
ما أغباه ، وأضيق عقله ! لقد كان حسن الظن بالفتاة فخدعته
بسراب حديثها ، لقد أخطأ حين وهبها من قلبه ما وهب ، فهى لاتستحق
إلا الإهمال والنسيان .

والنقى بها مرة أخرى !!

هذه الفتاة لابد أن يكون بعقلها شيء ؟ نجل .. جنون ..
يدرى فقد يكون ذلك هو المرض الذى تعالج منه وتدعى أنها
برئت ..

لقد أقبلت عليه فى هذه المرة إقبالا لم يخطر له على بال ، وأدنته من نفسها وقلبها بقدر ما أقصته فى المرة السابقة .. لقد ملأته بالأمل العذب ، ووجد نفسه قد جلس أمامها وهو يود لو يغرق يديها وقدميها بقبلاته .. إذ لم يكن يرجو منها أكثر من ذلك .

والتقيا بعد ذلك كثيراً .. فكانت الفتاة غامضة كل الغموض ، مبهمة كل الإبهام .

تحبه ! .. أو لاتحبه ؟ .. هذا هو السؤال الذى استعصى عليه أمره ، وأعيته إجابته .

وبدأ الفتى يتخبط فى ظلمة الشك والحيرة ، ويحس بالضيق والشقاء ، وبدأت خلوته إلى نفسه بعد العشاء تصبح ضرورة من ضرورات حياته وأصبحت ملجأً يلجأ إليه ليفرغ من هم نفسه ، ويستعيض عنه بسعادة من صنعه ، ونعيم من نسجه .

واكتفى من الفتاة بالنظر .. أما الباقي فكان يناله فى أحلامه وأمانيه عندما يضطجع فى الشرفة كعادته كل مساء ، ويسبح ببصره وذهنه فى أعماق السماء ، ثم يذكر الفتاة بقوامها الفارع الممشوق ، وبشرتها الصافية النقية ، وشفيتها الرقيقتين الممتلئتين عذوبة وحلاوة ، وابتسامتها .. ذات المعانى ، وبعينها اللتين يلمح فيهما بعض الألم وبعض الضعف .

وينساق الفتى مع أحلامه وأمانيه ، فيمنح نفسه من الفتاة ما قد حرم ، ويعطيها من متع الخيال ما قد منع ، فيبصرها بعين الوهم أقبلت عليه وقد شع من وجهها ذلك السحر الهادى الذى يثمله وينشيه .. وبدت بذلك «التيربون» الأبيض وقد عقصت به شعرها ، كأنها أميرة

شرقية من أميرات ألف ليلة تحيط بها هالة من الفتنة العجيبة .. وبدا جسدها بديع الصنع كأنه من فرط استوائه وتناسقه قد ركب فيه مغناطيس يجذب إليه الأبصار فهي لا تتحول عنه ولا تحيد .

ويرى الفتى نفسه وقد أقبل عليها فى لهفة وشوق .. ولكنها تنظر إليه نظرة عابرة ، وتكتفى بإيماءة خفيفة من رأسها ونصف ابتسامة .. فقد كانت ضئيلة عليه حتى بالسلام والابتسام .. ثم تأخذ مكانها وحيدة فى ركن هادئ وتتصفح كتاباً فى يدها .

ويراها الفتى وحيدة فيتجراً على الذهاب إليها ويستأذنها فى أن يجلس معها قليلاً .. وقبل أن تأذن له يكون قد جلس ، ويطلب منها أن تغلق الكتاب لأنه يود أن يسرّ إليها شيئاً فى نفسه .. فتغلق الكتاب وتنصت إليه .. ويقرب منها بعد أن يزيح معطفها الأحمر الذى وضعته بجوارها .. ثم يهمس إليها أنه يود أن تسمح له بأكثر من تلك النظرات العابرة ، لأنه يحس أن له حقاً عليها ، بل أكثر من ذلك يحس أنها شئ يخصه وحده دون غيره من الناس ، أن الله لم يخلقها فى الحياة إلا لتمنح حبها نفسه لأنه يبصر فيها من الجمال مالا يستطيع سواه أن يبصره ، حتى هى نفسها .. ولأن صورتها المطبوعة فى نفسه والمعكوسة على فؤاده أروع من أن يستطيع كائن فى هذه الحياة أن يتخيلها مهما بلغ به التصور .. فحرام عليها أن تترك عمرها وعمره يذهبان سدى .. وحرام عليها أن تضع لحظة واحدة فى غير وصال ولقاء .. وحرام عليها أن تمنع عابداً من أداء فريضته نحو معبوده .

ويبدو فى عيني الفتاة نظرة استسلام ، وتمد يدها فتضغط على يده فى رفق .. وينظر الفتى حوله فإذا بالمكان قد خلا إلا منهما ، وإذا بعينيها تخاطبان عينيهِ تقولان : « هنا لاتقع العين على غيرى وغيرك » .

ويمسك الفتى يدها بين يديه ، ثم يرفعها إلى شفتيه ليمسها مساً رقيقاً .. وتقترب الفتاة منه لتسند رأسها إلى صدره .. ويمد أصابعه فيتحسس وجهها برفق كأن أعمى يتحسس وجه عزيز لديه .. ثم ترفع الفتاة وجهها إليه ، فيحس عبير أنفاسها الحارة يلفح وجهه .. ويصر شفتيها جمرتين ملتهبتين فيطبق عليهما بعنف كأنه يخشى أن تفلتا .. ثم يحس بيدها تحيط عنقه لتزيده ضمناً إليها .. ثم يروح فى نشوة عجيبة .

هذه بيض الأماني تُفني الظلام ولا تُفني ، فقد يغمض الفتى عينيه على هذه الصورة الساحرة ويروح منها فى سبات عميق ، حتى يوقظه واحد من أهل الدار ليدخل من الشرفة فيستلقى فى مضجعه حتى الصباح .

وكانت للفتاة غيات طويلة تختفى فيها عن بصره ، ويتفقدوها هنا وهناك فلا يلقاها ، ثم تبدو له فجأة فيقبل عليها متلهفاً ويسألها عن سبب غيبتها فتخبره أنها كانت مريضة ، فيشعر بالأسى يتملكه لأنه لا يملك زيارتها أو مواساتها فى مرضها وهو الذى لو خير لافتداها بنفسه وروحه .

واختفت الفتاة ذات مرة كعادتها ولكن الغيبة هذه المرة طالت .. وأصاب الفتى ضيق وقلق ، وحاول السؤال عنها فلم يفز بطائل .. وفى ذات يوم كان يجلس حيث تعود أن يراها ، فوصل إلى سمعه حديث بين اثنين جلسا بجواره ، قال أحدهما للآخر :

- أتذكر تلك الفتاة اللطيفة التى كانت تضع على رأسها «تيربون» أو «أشارب» .. تلك الفتاة ذات المعطف الأحمر .. أتصدق أنها ماتت ؟

- أحقاً ؟ .. مسكينة .

واستقرت لفظة «مسكينة» فى أذن الفتى كأنها دوى قبلة انفجرت فى رأسه . ترى أحقاً ما قاله الشقى ؟؟ أيمكن أن يكون حديثه صادقاً ؟ أيمكن أن تكون فتاته هى التى يتحدثان عنها ؟ الفتاة ذات التيربون والمعطف الأحمر ؟

وقفز من مكانه فقبض على ذراع الرجل بشدة وسأله كأن به مسأً من جنون .. وتعجب الرجل ودهش من حمق الفتى ، ولكنه أكد له ببساطة أن ما قال هو عين الصدق .

★ ★ ★

ودهش أهل الفتاة من ذلك الفتى الواجم الحزين ، الشارد اللب ، التائه الفكر ، الذى انتحى ناحية من المقبرة وانهمك فى بكاء صامت . بكاء يكاد يفنى فيه نفسه .. ولكن واحدة فقط لم يدهشها الفتى ، إذ كانت تعرفه تمام المعرفة كأنها أبصرته مائة مرة ، تلك هى العجوز «مربية» الفتاة الراحلة وموضع سرها . وكانت العجوز تعلم كل شىء عن الفتى ، إذ لم يكن أحب إلى الفتاة من أن تقضى الساعات الطوال فى التحدث إليها عنه وعن حبها له .

وأحس الفتى بيد رقيقة تربت على ظهره ، والتفت فإذا بالعجوز تهتف باسمه ، ودهش الفتى ، ولكن العجوز أسرت له هامسة والدموع تتدفق من عينيها كأنها صنبور ماء .

- أعرفك تمام المعرفة .. لم يكن يسعدنا شىء قدر أن نتحدث عنك ، كانت تخبرنى أن أكثر ما يؤلمها أنها كانت تجبر نفسها على صدك والإعراض عنك . كانت تحس أن الخير هو فيما تفعل .. كانت

تعرف أنها مريضة ، وكانت تكره أن تراك مندفعاً وراء سراب خلاب
أو أمل ذاو ، لقد كانت تقول لى إنها لاتتمنى شيئاً مثل رؤيتك ،
والجلوس إلى جوارك وسماع حديثك ، كانت تحب منك ألفاظ الرقة
والعطف ، وتحس بحبك الفياض يغمرها .. كانت موقنة أن فسحتها
قصيرة الأجل . فوجدت من الخير أن تزهك فى نفسها وتصدق حتى
لاتتعلق بها فتترك فى نفسك بعد ذلك فراغاً يوجعك .. ولكنها عندما
أشرفت على النهاية أحست بالندم وتمنت لو أنها لم تصدك فاستمتعت
بذلك الجزء القصير من حياتها قدر ما استطاعت .. كم تمنى أن
تراك .. مسكينة .

★ ★ ★

وعندما حلّ المساء ، وسقط الظلام ، خرج الفتى إلى شرفته
فاضطجع فى سكون وصمت ، وكان يحس بكل ما حوله كأنه غريب
عنه ، بل أحس بأنه هو نفسه لم يكن هو من فرط ما كان يصطخب
فى فؤاده من أحزان وأشجان .

وكان الفتى يستعين على الشقاء فيما مضى بأمانيه البيض التى
كانت تسلب المرمراته ، والسيء سوءته وألمه ، وتضيف إلى اللذيد
المتع متعة فوق متعته .

ولكن أمانيه فى تلك الليلة قد فئت .. نضب معينها وجف
نبعها ، فأصابها الفناء كما أصاب صاحبته ، وأحس بحلكة الليل تشدد ،
وأرق ليلته فلم يغمض له جفن ، وطال به الظلام ، وقد كان لا يحس
به فى سابق ليليه .. وذكر بيت أبى العلاء .. ولم يدر أيهما الذى قاله ،
أهو أم أبو العلاء :

عللانى فإن بيض الأمانى فئت والظلام ليس بفان

حلم ليلة

الليل ليل قر .. والرياح ربح صر .. وقد جلس ثلاثتنا داخل
الحجرة .. لانكاد نشعر بغضب الطبيعة وثورتها ، إلا بقدر ما نسمعه
من صفيرها وزئيرها من خلال زجاج النافذة المحكم الإغلاق .. فلا
يكاد يصل إلى أذاننا من ذلك الصفير والزئير ، إلا همسات خافتة ،
وأناث كأناة الثكلي .

وقادنا الحديث إلى ذكر الجنون والمجانين .. وأخذ كل منا
يقص ما يعرفه من طرائف مسلية عن بعض المجانين وأسباب جنونهم ،
وصمت أحدنا عن الحديث وحقق ببصره في النيران المتراقصة ، وبدا
عليه الوجوم ، كأن ذكرى أليمة قد أخذت عليه تفكيره .. وخيل إلّى
أن حديثنا عن الجنون قد أثار كامن شجونه .. فجذبته من يده وقلت
مداعباً :

- لعلك قد أصبت بالجنون في يوم من أيام ماضيك المظلم ؟
ولكن خفف قليلاً من حزنك ، فمن منا لم يصب بالجنون ؟

وكل الناس مجنون ولكن
على قدر الهوى يختلف الجنون

فرفع رأسه وقال فى حزن :

- نعم .. على قدر الهوى يختلف الجنون .. وإنى لأذكر الآن
قصة رجل ، جن من حلم رآه ذات ليلة .

وصحنا فى دهشة :

- حلم ؟ ..

- نعم .. حلم .. وإليكم القصة :

كنت أعرفه منذ كان صبياً ، وكنت أعرف فيه خفة الروح
والمرح الدائم ، والاستهتار بالحياة ، وعدم الاكتراث بشيء .

ودارت الأيام فخلقت من صاحبي رجلاً ، ولكنها لم تستطع أن
تسلبه مرحه واحتفاله بالمجون واللهو والدعة .

وكانت له ابنة عم نشأت معه فى داره ، وكانت تتمتع بكل ما
يجب فيها صاحبنا من قلب جميل ووجه أجمل ، ولم يكن هناك من
يشك فى أن الفتى والفتاة ستربطهما الأيام برباط الحياة .

وكانت الفتاة من جانبها قد شغفت به حباً .. وجعلت منه أملها
فى الحياة ، ولم تكن تهتم كثيراً أن يعلم الناس أنها تحبه .. وما
دامت ستزوجه فعلاً ، فأى ضير عليها من هذا الحب .

ولكن صاحبنا كان مركز الخطأ ، ومحور الشذوذ ، فقد كان
بعيداً كل البعد عن التفكير فى الزواج ، وعندما كان يعزح معه أبوه
قائلاً : «إن الزواج هو الخطأ الذى لا بد منه» كان يجيبه الفتى ضاحكاً :
«بل هو الخطأ الذى لا بد من الحذر منه» .

وكانت طبيعته الالهية تجعله أقرب لحياة العث واللهم منه لحياة الاستقرار والهدوء .

وفوق ذلك كله ، فإن شعوره نحو الفتاة لم يكن ليتعدى ذلك الشعور الذي يحس به نحو أختيه وأمه ، ولم يكن يتصور قط أنها قادرة على أن تملأ ذلك الفراغ من نفسه الذي تملأه صاحباته العابثات اللاهيات ولا بمستطاعة أن تبث في رأسه تلك النشوة التي يعيشها في رأسه والحرارة التي يملأ بها جسده .

وكان من مبدأ الأمر يأخذ أحاديث من بالدار عن زواجه بها ، على أنها أحاديث لاتعدو الهزل والتفكه .. ولكنه عندما بدأ يدخل دور الرجال ووجد أن الأمر قد بدأ يتخذ صبغته الجدية ، لم يجد بداً من أن يوقف الأمر عند حده .

ففي ذات يوم انفرد بأبيه ، وأطلعته على دخيلة نفسه ، وأفهمه أنه لن يتزوج أبداً ، فلا داعي لأن تتعلق الفتاة بوهم من الأوهام .

وعلمت الفتاة بالحديث ، فصدمت به .. وتحطمت أمانيتها وآمالها العذبة على صخرته .

وحاولت أمه أن تخفف من لوعتها ، فكانت تكثر من السب فيه أمامها ، وتكثر من ذكر عيوبه ونقائصه كي يتحول عنه قلبها ، ويذهب حبها له :

وخطبت الفتاة بعد ذلك لقريب آخر ، وبدت كأن الأيام أعادت السكينة إلى قلبها ، وأنها بدأت تتسلى عن صاحبها القديم بخطيبها الجديد ،

وفى ذات يوم شعرت الفتاة بتوعلك خفيف ، ازداد على الأيام
ثقلاً ، ثم تطور فأصبح داء عضالاً .
وهزل القدر .. فيما هزل .. فخطف الفتاة ، وترك النفوس بعدها
مشدوهة حيرى .

وكانت صدمة لصاحبنا .. ولكن خفف من هول الصدمة ،
تأكده فيما بينه وبين نفسه ، أنه لم يغرر بالفتاة قط ولم يخدعها ، وأنه
لم يذكر لها مرة كلمة غرام ، أو لفظة حب ، وأن ضحكه معها ومرحه
لم يزد عن ذلك الذى كان يفعله مع أختيه .. وأنه على النقيض قد
صارحها بالحق ، فى الوقت الذى عزّ فيه الحق ، وسادت الخدع
والأباطيل .

★ ★ ★

ومرّت الأيام .. وفى ذات صباح طرق بابى طارق مبكر ، فظنته
بائع الجرائد ، ولكننى سمعت من خلف الباب صوتاً أجش يصيح :
- افتح .

وميزت فيه صوت صاحبى ، فأسرعت إلى الباب وأدخلته .
وكان شاحب الوجه ، فى عينيه احمرار السهاد ، وانزعجت من
مراّه .

فبادرته بالسؤال :

- خيراً ؟!

فأجابنى فى صوت مضطرب :

- هل تعرف من تستطيع أن تركز إليه فى تفسير الأخلام ؟ .

وكدت أذهل وظننت أن صديقي قد أصابته لومة فرددت قوله :
 - تفسير الأحلام ؟ وما الداعي إلى هذه اللهفة ؛ وديك الصباح
 لم يؤذن بعد ، والناس ما زالوا في عقر دورهم ؟ .. وأى حلم هذا الذى
 أفض مضجعتك ، وطير نفسك شعاعاً ، وملأ روحك هلعاً ؟
 وارتمى صاحبي على مقعد قريب ، وبدأ يتكلم :
 - هذا الحلم لا يمكن أن يعنى شيئاً ، لابد أن يكون وهماً من
 الأوهام أو أضغاث أحلام .. هل تظن أن الأحلام كلها عبث فى عبث ؟
 - خفف من حديثك ، وهدىء من روعك ، وأخبرني بذلك
 الحلم .

- هل تذكر ابنة عمى .. ؟

فقاطعته :

- نعم أذكرها .. وأذكر قصتك معها .

- لقد رأيته هذه الليلة ، رأيته وأنا نائم كما لم أرها قط فى
 اليقظة .. لقد بدأ الحلم بداية عجيبة ، وانتهى نهاية أعجب .. للمرة
 الأولى تتراءى لى فى نومي بعد موتها .. لقد فجعتنى موتها كأخت لى ،
 وتملكنى الحزن لأننى لم أستطع أن أهنيها فى حياتها ، بعد ذلك الحب
 الذى كانت تكبته لى .. ولكننى كنت أحس ببعض العزاء .. كنت معها
 رجلاً فلم أغرر بها ولم أعبث بعواطفها .. لقد بدأ الحلم بأن رأيت
 نفسى أجلس فى البهو مع أبى وأمى وإخوتى ، وكانت جلستى قبالة
 صورتها الزيتية الجميلة وقد بدت فيها جميلة ساحرة ممسكة فى إحدى
 يديها ببعض الزهور ، وكثيراً ما كنت أداعبها فى حياتها بقولى : إن
 الصورة خير من صاحبة الصورة .. ورأت أمى أننى أنعم النظر كثيراً
 فى الصورة فقالت :

- صورة جميلة .

فرددت عليها :

- جميلة فقط ؟ .. إنها عجيبة !

- والشيء الأعجب .. أنها تتحرك .

- تتحرك ؟!

ولم أعتد من أمى أن تهزل وخصوصاً فى مثل هذا المقام ،
ولكننى وجدت الجميع يؤمنون على قولها فى نفس واحد :

- نعم تتحرك .

ولم أرد أن أكون موضع هزلهم وخصوصاً فى مثل هذا الموضوع
الذى لايقبل الهزل ، فصحت بهم :

- كفى سخرية .

فقال أمى بهدوء :

- يابنى .. تأمل الصورة !

وحولت بصرى إلى الصورة وتأملتھا قليلا .

وهنا حدثت المعجزة .. أو حدثت الكارثة .. لقد رأيت الصورة
وكأنها فتاة حية ، ورأيت يدها تتحرك بالزهور فتضعها أمام أنفها ، كأنها
تشم عبيرها .

وظننت أن فى الأمر خدعة ، وأن القوم قد أجمعوا أمرهم على
السخرية منى والهزاء بى .. فقممت من مكانى غاضباً أبغى الخروج من
الغرفة ولكن قدمى جمدتا فى مكانهما .

لقد تحركت الفتاة داخل الإطار ، ثم تركت الإطار ، وتقدمت نحوى بخطى ثابتة ، حاملة الزهور بيدها ، وقد علت وجهها الابتسامة ، تماماً كأنها على قيد الحياة . وبدأت توجه إلى الحديث :

- فيم جلوسك هنا ، لقد برئت من حبك ، ولم أعد بعد فى حاجة إليك ، أو قد ظننت أن الله لم يخلق فى العالم غيرك ؟ لقد كنت بلهاء حين تعلقت بك كل هذا التعلق .

وأحزننى كثيراً أن تكون غاضبة على مثل هذا الغضب ، وأطرقت فى وجل وحزن .

ثم شعرت بأن من فى الحجرة قد بدأوا يتسللون خارجها ، حتى أصبحت وإياها وحيدين .

وأحسست بالطمأنينة تدب فى نفسى شيئاً فشيئاً ، وبدأت هى تقترب منى ، ورقّت نبرات صوتها فامتلات بالحنان والعطف ، ثم قالت بصوت هامس ، وربت بيدها على كتفى :

-هل أغضبك كلامى ؟ إنى لم أصدق فى حرف منه ، ولكن كان لابد لى من قوله .. على الأقل لكى أحتفظ بكرامتى أمامهم ، وعلم الله أنى كاذبة فى كل كلمة قلتها لك .

وتقدمت منى حتى التصقت بى .. ثم جلست على ركبتي ، وأتمت حديثها :

- نعم .. علم الله أنى لن أبرأ من حبك ، وأنى دائماً فى حاجة إليك ، وأن الله لم يخلق لى فى هذا العالم غيرك .

وشعرت بحب جارف نحوها ، ولم أستطع أن أقاوم ذلك الدافع الخفى الذى يدفعنى إلى احتضانها وتقبلها .

وعجبت فى نفسى ! لِمَ ضيعت هذه الأيام الماضية دون أن أمتع
نفسى بحبها ، وكيف أضعت ذاهب العمر هباءً .. دون أن أرشف قطرة
واحدة من كأسها الحلوة ؟

وكانت مناجاة عذبة. لم أذق مثلها قط فى حياتى .
وأخيراً ودعتنى باسمه سعيدة ، وتوجهت إلى إطارها فاستقرت
فيه ، وتواعدنا على اللقاء .. بعد أن رجوتها أن تجعل اللقاء نهاراً ..
بدلاً من الليل .. حيث اللقاء فيه يخيفنى .. فوعدتنى بذلك .. وأخبرتني
أنها تعرف أين أكون فى النهار .. وأنها ستحضر إلّى .

★ ★ ★

واستيقظت بعد ذلك .. وقفزت من فراشى وأنا شبه مجنون ..
وبى من الشوق واللهفة إلى فتاتى مالم أشعر به نحوها فى إبان حياتها ..
وكان أول ما فعلته أن ذهبت إلى الصورة وجلست أمامها .
ولكنها كانت ثابتة جامدة .. لا روح فيها ولا حياة .. » .

★ ★ ★

وهنا صمت صاحبى .. ورأيت عينيه تدمعان .. ثم همس :
- إنى أريدها يا صاحبى .. إنى أعبدها .
وربت على كتفه .. وقلت له بعض الكلمات على سبيل
التهديئة .. ولكنها لم تجد معه شيئاً .
وغادرنى .. ولم أره بعد ذلك قط .

ولكنى قابلت أباه ذات يوم ، فإذا به قد دبّ في وجهه الفناء
وأصبح كأنه شبح من الأشباح ، وسألته عن ابنه فتشجج وجهه ولم
يستطع أن يغلب دمه الذي أخذ يتساقط من عينيه ، وقال :

- مسكين .. لقد جن ..

وعلمت بعد ذلك أن جنونه لايزيد على أنه كان يجلس دائماً
أمام صورة الفتاة الراحلة ، ينتظر تحركها ، لتوافيه في الموعد
المضروب .. وأنه مايزال ينتظر اللقاء ..

★ ★ ★

غريفة المرأة

كان صاحبنا محامياً فى الخامسة والثلاثين ، وسيما أنيقاً . ولم يزل بعد أعزب .. فقد أحب الهدوء فى بيته ، ولم يشأ أن تعكر صفو هدوئه امرأة أياً كانت ، ولم يكن يدرى معنى أن يقيد الرجل نفسه بامرأة معينة بمحض إرادته واختياره .. فى حين أنه يمكنه أن يتخذ لخدمته ، أو لمتعته ، امرأة يغيرها حسبما شاء .. ووقتما يريد .

وكان صاحبنا فى مكتبه يقلب بعض أوراق أمامه .. حينما دخلت عليه صاحبتنا للمرة الأولى ، وكانت نموذجاً لأرملة فتية ، فى شحوب الوجه ، وذبول العينين ، ولمحة الحزن والأسى التى كست وجهها . ولكن كان يطفى على كل هذا .. سحر وفتنة .. كانا يكفياها أن تشير بأطراف أناملها فتجيب إلى كل ما تطلب .

ونفض ليحيها ، وأجلسها على مقعد بجانبه ، وكان يعلم عن زوجها أنه قد توفى من شدة إدمانه الخمر ، وكان يدرك أيضاً بالرغم مما كان يسمعه عنه من مرح شخصيته ولين جانبه ، فلاشك أن موته قد وضع حدّاً لحياته المخمورة ، وحياتها المضنية المرتبكة .

وكانت قد تحدثت معه تليفونياً قبل هذه الزيارة ، وقصت عليه
فى نبرات حزينة مجمل ما تطلب .. فرجاها التكرم بزيارته حتى يستطيع
أن ينهى لها المسألة .. وحتى يستطيع أن تسرد له بعض التفاصيل التى
كان يرغب فى الاطلاع عليها .

وعندما رآها تبين له تماماً أن الصورة التى كان قد كَوْنها فى
مخيلته عنها عندما خاطبته فى التليفون تختلف عن الحقيقة جد
الاختلاف . فقد رآها جميلة فنية ، لانتكاد تتجاوز الثلاثين من عمرها .
وكان جمالها فى بساطته ورقته يجعلها كثيرة الشبه بصورة الجيو كندا .
وبدأت هى الحديث فى موضوعها رأساً دون مقدمات .
واستغرق حديثها ما يقرب من نصف ساعة . قامت على أثره قائلة :
- وعلى ذلك . فلا بد من الحضور مرة أخرى للتوقيع على هذه
الأوراق عندما تتكرم بتجهيزها ؟

- نعم ياسيدتى .. يجب أن تكون زيارتك فى مثل هذا اليوم
من الأسبوع القادم .. لأننى سأكون قد أنهيت كل شىء .

★ ★ ★

وعجب صاحبنا لنفسه عندما وجد صاحبتنا قد شغلت حيزاً كبيراً
من تفكيره . وهو - كما يعتقد فى نفسه - المحنك المدرب فى أمور
النساء . فقد أحب الكثيرات منهن . فكان معهن كالصنى يلعب بالكرة ،
لاتشغله إلا بقدر مباشرته باللعب بها ، فإذا ما تركها لم تعد تستحق
منه التفكير .

ولكن هذه السيدة كانت من نوع آخر لم يره من قبل .. لقد
تسللت إلى نفسه . وتسربت فى دمه كأنه حقن بها دون أن يشعر ،

وكان يظن أن في بساطتها .. وهدوئها .. وفي حديثها الممتلىء لنا
ودعة ما يجعله في أمن من الوقوع في مشكلات غرامية معها .. ولكنه
دهش حين تركته .. إذ كان صريعا بلا حراك دون أن توجه له أى سلاح
من أسلحة الهجوم النسائية .

وهكذا بات صاحبنا ينتظر الزيارة التالية بصبر نافذ . ونفس
متلهفة .

وفي تلك الزيارة لم يستغرق إنجاز العمل فيها أكثر من خمس
دقائق انتقلا بعدها إلى أحاديث أحب إلى النفس من أحاديث العمل ..
واتضح لهما أن كليهما قد زار باريس .. فتحدثا عن ذكرياتهما هناك ..
فطال الحديث .. ووجد كل منهما لذة في حديث الآخر .. وقال
صاحبنا :

- يخيل لى أنى قد رأيت شبيهتك فى اللوفر قبل أن ينهبه هتلر ؟
- شبيهتى ؟ لأدرى ! ماذا تقصد ؟
- الجيو كندا .. الموناليزا .. ألم يخبرك أحد قبلى أنك تشبهينها
تمام الشبه ؟

فضحكت ضحكة خافتة عذبة وقالت :

- على أية حال .. لم تكن أنت أول من قالها .. فكثيراً ما كان
يحلو لزوجى أن ينادينى بهذا الاسم .

وعندما انصرفت فى هذه المرة لم ينس صاحبنا أن يطلب إليها
العودة مرة أخرى لتكملة بعض البحوث التى لم تتم بعد .. ورجا ألا
يضيقها تكرار هذه الزيارات .

فقالت باسمه :

- تضايقنى .. الواقع أنك أنت الذى يمكن أن يثقل عليك
لتضييع وقتك فى مثل هذه الأعمال المرتبكة .

★ ★ ★

وفى الزيارة الثالثة لم يستغرق العمل أكثر من ثوان دعاها بعدها
إلى تناول الغداء معه وكان الحديث ذا شجون ورفعت إليه عينين تفرقت
فيهما دمعتان كأنهما اللؤلؤ ، وقالت :

- إبنى أشعر كمن حبس فى ظلمة دامسة ، ثم أخرج من
الظلمات إلى النور ، فأحس كأنه بعث من جديد .

ثم عضت على شفتيها حتى كادت تدميها ، وأتمت حديثها :
- لم أكن أود أن تطرق مثل هذا الحديث ، لأننى لم أتحدث
به إلى مخلوق قط ، وماشكوت مرة فى حياتى لأخلص أصدقائى .
- وعلى ذلك إذن يمكننى أن أعد نفسى كأخلص أصدقائك ؟
فردّت عليه ببساطة وهدوء :

- لاشك فى ذلك .. ولكنى أرجوك ألا تعود لهذا الحديث مرة
أخرى لأنه يشعرنى بالمرارة والأسى .

وافترقا .. ثم دعت بدورها إلى تناول الشاي معها ، ودعت معه
بعض أصدقائها ، وقد تكوّنوا من سيدتين رقيقتين مثلها وكان الثالث
ضابطاً فى العقد الخامس من عمره ، ولكن صلابة جسمه ونحافته التى
جعلته كعود الخيزران ، كانت تظهره كأنه توعم لشبابه ، فكان من ذلك
النوع الصلب من الرجال الذى يخيل للناظر إليه أن الشيخوخة لن تجد
إليه منفذاً ، وأن شبابه سيرافقه حتى القبر .

كانت جلسة لطيفة .. عرفت صاحبتنا كيف تنفث فيها من روحها الفياضة ، وحديثها العذب ، حتى تمنى صاحبنا ، وقتذاك ، لو استحوذ عليها فوضعها في بيته موضع السيدة ، وأحس أن الهدوء الذي كان يبغيه في بيته لم يكن إلا وحشة وفراغاً . وأحس أيضاً أنه يتمنى لو قيد بها مدى الحياة ، وكره أن يكون حراً طليقاً .

★ ★ ★

وكان الضابط المكتهل يمت لها بصلة قرابة بعيدة ، ولكنه كان لها أكثر من ذلك . فقد كان الصديق الذي تعتمد عليه في كل شدة وضيق ، وتركن إلى زجولته في كل مأزق حرج .

ولم يك سرّاً أنه كان يحبها منذ كانت في الثامنة عشر ، وأنه قد طلب منها الزواج ما يقرب من خمس مرات قبل أن تتزوج من زوجها الراحل وباء في جميع هذه المحاولات بالفشل .. ومع ذلك لم يتغير نحوها ، واستمر على شعوره .. غير أنه قنع من الحب بالصدقة .

وفي ذات يوم كان قد جلس يتحدث معها على انفراد .. وكان ذلك بعد يومين من تناولهما الشاي مع صاحبنا المحامي .

ورشف رشفة طويلة من فتجان القهوة .. ثم وضعه جانباً .. ونظر إلى السقف .. وقال كالمحدث إلى نفسه :

- لقد غرق محاميك الشاب في الهوى حتى أذنيه .

-لاتكن شديد التحامل عليه .

- هناك كثير من الحقائق في هذه الحياة يحاول المرء ألا يواجهها .. فإذا ما واجهه بها أحد اعتبر ذلك تحاملاً .

- لست أقصد أن أغضبك .. فأنت تعلم أنه لم يعد لى فى الحياة من أركن إليه سواك .

- تماماً .. وأنا أكثر منك علماً بهذا وأشد استعداداً له ، ولهذا عن لى أن أجرؤ للمرة السادسة أن أطلب إليك أن تقلبنى زوجاً .

- أتزوج ! ولم يمض بعد أربعة أشهر على وفاة زوجى ! هل يمكن هذا ؟ إذن فلن تتزوجى من هذا المحامى ؟ .

- لا تكن مضحكاً ، وهل لا بدلى من الزواج بكائن من كان ؟ وانتهى الحديث ، ثم ودعها وانصرف .. وقامت بعدها . ثم وقفت إلى المرأة وأمعت النظر إلى وجهها بدقة . ثم همست لنفسها :

- كلا .. لن يمكن لكائن ما أن يعرف أنى كذلك .

أما الذى تعنيه بلفظة «كذلك» فقد احتفظت به فى صدرها .

وشاهد هذا المساء التغير الأول فى العلاقات بين المحامى الوسيم ، وعميلته الفاتنة ، وكان قد دعاها للعشاء ، وفى خلاله تحدثت الأعين أكثر مما تحدثت الشفاه .

كان يرقبها ببصره ، فيخيل إليه أنه لم ير فى حياته أجمل من هذا الكائن أمامه ، وودّ لو استطاع أن يفر بها إلى بيته ، ثم يحبس نفسه معها مدى الحياة .

وعندما ركبا (التاكسى) ليوصلها إلى المنزل ، شعر كلاهما أن هناك ثورة تضطرم فى صدره ، فالتفت إليها ولف ذراعه حولها فى صمت ، من الخطأ أن نسمة صمتاً فقد كان صمتاً صارخاً يمتلىء

وفي الصباح اتصلت صاحبتنا بصديقتها الضابط ، ورجته الحضور إليها سريعاً لأنها فى مأزق تريد أن تستشير فيه .

وسرعان ما حضر إليها ، ولم يكده يجلس حتى فاجأته بقولها :

- هل يمكن أن أسألك النصيح فى أمر ما ، وتخلص لى النصيح حتى لو كان فى ذلك مساس بك ؟

- لاشك أنى سأفعل ذلك قدر ما أستطيع .

وأسند ظهره إلى المقعد ، ونظر إلى السقف . ثم قال :

- خيراً ؟ ! تكلمى .

- أنى أحب .. أحب .. كأعنف ما يكون الحب .

فسألها بمنتهى الهدوء والسكينة :

- المحامى ؟ .. أليس كذلك .. ؟

وأجابت فى صوت متهدج :

- نعم .. أنا أعلم أنه شىء مريع .. ولكننى مسلوبة الإرادة .

فإنى أحبه حباً لم أحبه لشخص من قبل ، وبودى لو قبلت زواجه .

- حسناً .. ماذا يمنعك إذن من زواجه ؟

- إنه فى الخامسة والثلاثين فقط .

ومضت فترة صمت .. كانت فيها كالريشة فى مهب الريح ..

فقال فى ضيق :

- لاتصمت هكذا .. لابد أن تقول شيئاً ؟

- ياعزيزتى .. ما حاجتك إلى قولى وأنت أدرى بالأمر منى !

بالثورة والضحيج ، ومن الإنصاف أن نسميه صمتاً صارخاً ، أو ثورة صامتة ، وضمها إلى صدره فتركت نفسها تنساب في لين واستسلام ألهب رأسه ، وقبلها كما قبلها مئات المرات في أحلامه قبل ذلك . ولم ينبس بينت شفة حتى وقف (التاكسى) أمام منزلها فسألها في همس :

- هل لى أن أدخل ؟

- كلا .. ليس الليلة .

- ولكن هل لى أن أطلب منك أن تتزوجينى ؟ . طبعاً أنا أدرك موقفك تماماً ، ولك أن تحددى الوقت .

ونظرت إليه نظرة حائرة ثم همست :

- دعنى أفكر .. لا بد لى من التفكير .

- لن أدعك تفكرين ، فلا بد أنك لم تسمحى بتقبيلك إلا إذا كنت قد وطنت نفسك على الموافقة .

وابتسمت ابتسامة عذبة ، كان فيها منتهى أمله . ثم أمسك بوجهها .. وفى غفلة من سائق التاكسى الذى أدار وجهه إلى الاتجاه الآخر ، سرق قبلة أخيرة . ثم همس :

- ياسيدتى العزيزة . كل ما أرجو ألا تكونى تصغريننى بكثير فأنى فى الخامسة والثلاثين . وأنت ؟

- فى الثانية والثلاثين .

- ومع ذلك تبدين كأنت فى العاشرة .. عمى مساء أيتها الجيوكلدا الصغيرة .

- إن الأمر أسوأ مما تظن .. لقد سألتني عن عمري ، فأخبرته
أنى فى الثانية والثلاثين .

- كلكن كذلك فى مسألة السن .. على أية حال .. لأظنك
تبدى أكثر من ذلك يوماً واحداً .. ومع ذلك فأستطيع أن أخبرك أن
الأمر يختلف كل الاختلاف بالنسبة لرجل يريد الزواج وهو فى الخامسة
والثلاثين .

- وهذا هو الذى يخيفنى .

- يابنيتى لقد طلبت منى النصيح ، إذن فما هو .. قد يثقل عليك
قولى ، ولكنى لن أقول غيره .. أخبريه بالحقيقة .. فإن استمر على طلبه
فأقبل زواجه لأنه يحبك حقاً .. وإن تراجع فدعيه وشأنه .

وفغرت صاحبتنا فاها ، وارتسمت عليها مرارة الهزيمة :

- هذا شىء سهل قوله منك .. ولكنه بالنسبة لى مضم .

- إنى أخشى عليك من أتون المستقبل .

★ ★ ★

وبعد يومين التقى الرجلان فى طريقهما لزيارة الأرملة العاشقة ..
وعندما دخلا إلى مسكنها قبل لهما إنها غير موجودة ، ولكنها أمرت
إذا جاء واحد منهما فعليه أن ينتظرها لحين عودتها .

وجلس الرجلان .. أحدهما قبالة الآخر ، وبعد صمت قصير
أطلق الضابط أول طلقة .. فقال دون مواربة :

- هل تحبها ؟

فأجابه المحامى ببساطة :

- نعم .. لاشك فى ذلك .. وأنت ؟
- وأنا كذلك .. لقد خطبتها سبع مرات كانت أولها وهى فى التاسعة عشر .. وكانت الأخيرة منذ أسبوع .. ورفضت جميعها .
- حظ سيء .. ولاشك .
- على كل حال عندما يكون الحب صادقاً ، تصبح التضحية هينة فى سبيل إسعاد مع تحب .
- لم أصل بعد إلى هذا المستوى ، ولكن قد تغينى عن الوصول إليه ثقتى من أننى الوحيد الذى يمكنه إسعادها .
- قد تكون مصيباً فى حديثك .. ومع ذلك دعنى أختبرك .
- تخبرنى ؟

- نعم .. ماذا تبغى من الزواج ؟

وكان الأمر هيناً بالنسبة إلى صاحبنا المحامى ، فقد كانت صناعته الكلام ، ولم يخش قط أن تخذله الألفاظ فى تأدية الاختبار فقال :

- أنا لا أبغى المتعة الزائلة ، لقد عرفت الحياة فلست بطائش ولا أحمق .. ولقد صادفت فى حياتى من متعة النساء ما يكفى لأن يجعلنى زاهداً فيهن حتى آخر العمر .. ولكنى أبغى الهدوء والاستقرار .. أريد حياة ناعمة غير مضطربة .. أريد شريكة تعينى على الحياة ولا تعين الحياة على .. أريد امرأة تذهب عنى الهم وتمسح بيدها الحنون أحزاني وأشجاني .. أريدها تعبد لى طريق الحياة .. أريد بيتاً هادئاً جميلاً ألجأ إليه عندما ترهقنى الأعمال فأحس بمن يلقانى فيه بابتسامة تذهب التعب والضيق .. أريد أمّاً لأولاد يملأون البيت تغريداً وترنيماً كأنهم بلابل فى جنة مزدهرة .. أريد قلوباً تحزنها غيتى وتفرحها

أوبتى .. أريد غيونا تدمع لحزنى، ويؤرقها مرضى وينبعث منها ضوء يهدينى سواء السبيل .. هذا هو ما يعنيه الزواج بالنسبة لى وبالنسبة لأى رجل .

تماماً لقد أجدت الوصف .. وعلى هذا الأساس سأعطيك نصيحة .. لا لشيء إلا لأنقذك من ظلمة دامسة ستعقب هذا الضوء الخاطف البراق ، ومن شقاء سيعقب هذه السعادة القصيرة الأجل ، ولكن قبل أن أمضى فى حديثى أود أن أنبهك مرة أخرى إلى أنه لا ناقة لى فيها ولا جمل ، وأنى يمست منها .. فأبعد هذه الفكرة عن رأسك . وخذ نصيحتى خالصة لوجه الله .

ثم صمت برهة وأردف :

- كم تظن سنها .. ؟

- لقد قالت لى إنها فى الثانية والثلاثين .

- كلا .. إنها فى الخامسة والأربعين .

وأفلتت من صاحبنا صيحة دهشة لم يستطع أن يكتمها ، ثم قال :

- لا يمكن أن أصدق ذلك .

- إذن فاسألها .

- ولكنها لا تبدو أكثر من ..

- قد تبدو أقل مما ستقول .. وبالرغم من ذلك فلم أقل لك

غير الصدق ، وما كنت أود أن أقوله .. ولكننى أعلم تماماً أن هذه الأشياء لا يمكن إخفاؤها وخصوصاً إذا كانت المسألة مسألة زواج ، وأخشى عليها من عواقب هذا .. وأنى أدرك تماماً أنه كان يستحيل عليها أن تقوله ، فلم أجد بداً من أن أقوله أنا حتى لا أوردها موارد العطب ،

ولا اطلب منك الآن رداً .. بل كل ما عليك هو أن تسلك أحد الطريقين : إما أن تمكث مكانك حيث أنت .. ثم تخبرها حين تأتي أنك قد عرفت وبالرغم من ذلك ستزوجها ، أو تولى منها فراراً فتخرج بلا رجعة .

ثم أخذ الضابط الكهل عصاه وغادر البيت ، تاركاً صاحبنا وحيداً غارقاً في أفكاره .

وبدأت الأفكار تتزاحم في رأس صاحبنا .. خمسة وأربعون ، أي أنه عندما يبلغ الأربعين ستكون هي في الخمسين .. وبدأ يتخبط في أفكاره ، ولم يشعر قط أنه عاجز عن التفكير قدر ما شعر في تلك اللحظة .

لقد كان يريد ما أكثر مما يريد أي شيء في هذه الحياة ، ولكن هل من الصواب له ولها أن يتم الزواج ؟ .

ولم يشعر إلا وقد وقف في سكون ، وأخذ معطفه كالهارب من قيد أو كالفار من عاصفة على وشك الهبوب .. وتحرك صاحبنا مغادراً الدار في صمت وسكون .

★ ★ ★

ودهشت كثيراً عندما عادت إلى المنزل ، فقيل لها : إن الصديقين قد حضرا ، وإن الصديقين قد رحلا .. ماذا حدث .. هل يمكن أن يكون قد حدث شجار بينهما ؟

وجلست تفكر في هدوء .. ودق جرس «التليفون» فقامت إليه وأمسكت بالسמעה في لهفة ، ولم تقل شيئاً .

ولكن وجهها كان. يقول كل شيء .. كانت فى شحوب الموتى .. وكانت الشفتان ترتجفان فى صمت بليغ ، ولولا أن أرتمت بجسدها على المقعد لمادت الأرض من تحت قدميها .

لقد أخبرها صاحبنا أنه علم .. وأن الأفضل له ولها أن ينتهى الأمر واعتذر لها .

ووضعت السماعة .. وشعرت بقلبها كأن يدين تعصرانه عصراً

لقد برق الأمل مرة فى حياتها ثم خبا إلى حيث لارجعة ولا عودة لأنه قد برق متأخراً .

ورفعت رأسها فإذا بالمرآة أمامها .. فسالت دمعان على خديها وتمتمت :

- يا للعالم الهائلة التى تمنحنا الهبات عندما لانريدها ، فلا نحس أنها قد منحتنا شيئاً .. فإذا بتنا فى حاجة إليها سلبتنا ما وهبت واسترجعت ما منحت . وأورثتنا بدلاً منه نداماً وحسرة .. كم أبصرت بالشباب يفيض فى هذه المرأة فما شعرت له بمتعة أو نشوة .. لأنه كان وحيداً لا يجد من يؤنس وحشته .. واليوم وقد امتدت الأيدي لتقطف زهراته إذا بها قد ذبلت وتساقطت أوراقها .. لقد ولى الشباب وذهب العمر .

وأطربنى الشباب غداً ولى فليت سنيه صوت يستعاد

وأحنت رأسها على صدرها وأخذت فى بكاء صامت .

وبعد يومين زارها صديقها الضابط . ودخل عليها فتكافت

الابتسام . فربت على يديها برفق ثم قال :

- كيف أنت الآن ؟

- لقد أزيح العباء .. ولكن بقيت العظام المحطمة .
- هوّنى عليك .. هذا أفضل كثيراً مما كان يمكن أن يحدث .
- ولكن الوحدة قاسية .. ولم أشعر بقسوتها قط قدر ما شعرت بها الآن .

- إذا كانت المسألة مسألة وحدة قاسية فيمكن حلها فى التّو
واللحظة سأسألك أن تتزوجينى .. وستكون هذه الفرصة الأخيرة لك ..
فلن أسألك بعد هذا .. فأياك أن ترفضى .

- ولكن .. هل تحبنى ؟

- نعم .

- بالرغم من كونى فى الخامسة والأربعين ؟

- أنا أيضاً فى الثالثة والخمسين .. أجيبى .. نعم أم لا ؟

- نعم .

وأسند الكهل رأسه إلى المقعد ونظر إلى السقف .. وقال كمن
يحدث نفسه :

- ما كان أغنانا عن أضاعة السنين الطوال لو قبلت أول مرة ..
على أية حال لا بأس فى ذلك ولا حرج .. لقد فاتنا الربيع .. فلنتمتع
بالخريف ..

★ ★ ★

العنوة

حينما طرق اسمها أذنيه ، خيل إليه لأول وهلة أنها قد تكون زوجة صديقه القديم .. الطبيب الشاب .. ولكن عندما رفع بصره إليها تبين له أنه قد أخطأ الظن .. وأن المسألة لاتعدو أن تكون تماثلا في الاسم .. فقد كانت صاحبتنا تبدو وكأنها أكبر من صديقه بعشر سنوات .. وقد بدا عليها التعب والأعياء .. وظهرت بعض شعيرات بيض تتسلل من خلال شعرها الأسود الداكن .

وابتسم لها في رفق .. ثم أشار لها بالجلوس على مقعد بجوار مكتبه .. فقالت :

- هل تسمح لي بالتدخين ؟

سألته وقد مدت يدها إلى حقيبتها وتناولت منها علبة سجائر فضية وهمت بفتحها .

فأجابها :

- ولكن أجد هذا واجبا على .

ثم دفع إليها بعلبته .. واستطرد :

- وأظن أنها من نفس النوع الذى تدخنين .

وتناولت منه سيجارة . وبعد أن أشعلها لها عاد إلى مقعده ، واضطجع إلى الخلف محدقاً فيها ، منتظراً إياها أن تبدأ الحديث .

وجذبت من سيجارتها جذبة قوية ، ثم نفثت دخانها فى الهواء بشدة كأنها تنفس عن ضيقها ، وظلت ترقب الدخان فى الجو حتى تلاشى .. وبوجه أشبه بالمحموم نظرت إليه ، ثم بدأت تتحدث وكأنما الألفاظ جمرات تحرق صدرها :

- لقد جئت أستشيرك ياسيدى .. بخصوص زوجى .

وأشار برأسه .. طالباً منها التوضيح .. فقالت :

- أريد الطلاق .

ومضت بعد ذلك فترة صمت ليست بالقصيرة .. وبدأ عليها كأنها لاتقدر على إتمام حديثها . وسرح هو ببصره خلال النافذة الزجاجية التى أمامه ، والتى بدت من خلفها تلك الأشجار اليابسة التى قد نفضت عنها أوراقها ، فظهرت أغصانها جافة عارية ، تعصف بها الريح .

وتتابعت فى ذهنه ، صورة أولئك المطلقات ، اللاتى عمل فى قضاياهن حزينات بائسات ، كسيرة قلوبهن .. تعصف بهن الحياة .. كما تعصف الريح بالأغصان العارية ، لا فرق بينهما إلا أن الأولى قد ذهب ربيعها إلى حيث لا عودة ولا مآب .. والثانية سيعقب خريفها ربيع يعيد إليها النضرة ، ويسكب فيها من جوفه ماء الحياة .

وطال الصمت .. وهى مطرقة واجمة .. فقال مشجعاً إياها على إتمام الحديث :

- ولكن .. أليست هناك وسيلة لإصلاح ذات البين ؟

- لا ياسيدى .. لقد بلغ السيل الزبى ، ولم يعد فى طاقى أن أحتمل .. لقد احتملت كثيراً .. فليست هذه هى المرة الأولى ، التى أحاول الانفصال فيها عنه ، وقد عفوت كثيراً .. ولكن فى هذه المرة لابد أن ينتهى الأمر بيننا .

- ولكننى ليم أفهم بعد سبب الخلاف .

- امرأة أخرى !!

أجابته السيدة بحدة .. كأنما لايمكن أن يكون هناك سبب لخلاف بين زوجين إلا إذا كانت هناك امرأة أخرى .. ثم تمت :
- لقد كان ذلك دائماً هو السبب .. دائماً كانت لديه امرأة أخرى .. وفى هذه المرة الأخيرة كانت شقراء حمقاء ، بدأ يطارحها الهوى ، ويبادلها الغرام . غير عابىء بشيء .. مدعياً أن الأمر لا يعدو المرح والتسلية .. جاوز الأربعين .. ويدعى بعد ذلك أن المسألة مسألة لعب وتسلية ؟

وضحكت ضحكة عصبية ساخرة .. ثم استمرت قائلة :

- منذ ستة شهور وهو يعرف أنى على علم بأمره .. وينتظر منى بعد ذلك ألا أعاباً ولا أهتم .

وأخذ الرجل يرمقها وقد عاد الظن يساوره مرة أخرى بأنها قد تكون زوجة صاحبه الطبيب فسألها :

- ولكن ما الذى جعلك تقصديننى ؟

- ياسيدى عندما ناقشته الحساب آخر مرة .. قال : إنه ليس بى
مايشيره ويفتنه .. وإنه مضطر أن يبحث عن هذه الاشارة والفتنة فى
الخارج . فلم أطلق صبراً .. وصممت على أن أضع حداً للمسألة .
فقصدت إليك ، لأن اليأس والقنوط قد ملأ نفسى .

وأطرقت ، ثم قالت فى نبرة حزينة وفى صوت أشبه بالهمس :
- قد يكون على صواب فى قوله .. ولكنى عندما تزوجته لم
أكن كذلك ؟

واغرورقت عينها بعبرات الاستكانة واليأس .
ووجهم الرجل ، وقد أحزنه أن تنزل السيدة عن كبريائها وقال :
- الظاهر ياسيدتى . أننى لم أستطع أو أوضح لك سؤالى ، لأنى
قصدت أن أسألك عما جعلك تقصديننى .. أنا بالذات .. ولم تقصدى
محامياً غيرى .

- فهمت ما تقصد ياسيدى .. كان يجب أن أوضح لك
الأمر .. سمعت عنك ، أول مرة ، من زوجى الطيب .. وكان ذلك
منذ عدة سنوات .

إذن فقد كان محقاً فى مبدأ الأمر !! عندما ظن أنها زوجة صديقه
القديم .. وقبل أن يتمكن من مقاطعتها ، كانت قد قطعت شوطاً بعيداً
فى تكملة حديثها ، توضح جلية الأمر :

- نعم ياسيدى .. كان ذلك من نحو ثلاث سنوات .. وقد اشتد
بيننا الخلاف .. وهددته بالانفصال .. وكنت أظن ذلك سيزعجه ،
ولكنه كان خبيثاً ماكراً ، فقد أبدى منتهى البرود ، بل وأكثر من ذلك
ذكر لى اسمك ووصفك بأنك رجل ماهر ، وأنت خير من أركن إليه

فى قضيتى .. وهكذا عرف كيف يسكتنى ويوقفنى عاجزة ، وصحت به بغاضبة : إننى لن أسعى إلى الطلاق بناتاً ، حتى لا أتركه حراً يصاحب من يهوى . كم كنت حمقى حينئذ . فلو كان الطلاق قد تم وقتئذ ، لما كان هناك ما ينغص عيشى كل يوم وكل ساعة .

ودقق صاحبنا النظر فيها فوجد أنها تظهر أكبر من حقيقتها ، وأن آثار الفتنة والجمال مازالا يبدوان من خلال تقاطيعها التى حطمتها السنون الصاخبة ، والحياة القلقة المملأى بالمشاحنات والشكوك . ثم قال :

- هل نصحك زوجك هذه المرة بالمجىء إلى ؟

لا ياسيدى .. فهو ليس أبله إلى هذه الدرجة .. إنه لم ينصحنى فى المرة السابقة إلا لعلمه أنى لن آتى إليك ، ولو علم أنى سأقصدك الآن لمنعنى من ذلك بلعبة من لعباته ، أو لأتعننى بالعدول فهو ماهر فى الإقناع على الأقل بالنسبة لى .. وهو لايسره الطلاق قطعاً ، لأنه لا يرغب فى الارتباط بأية واحدة من عشيقاته .. ووجودى معه يجعله بمنأى عن طمعهن فى الزواج منه ، فأنا عنده بمثابة الدرع أقيه منهن ، وهو شديد الثقة فى سيطرته على نفسى ، واستحواده على قلبى .. وله كل الحق فى ذلك ياسيدى ، فإننى على يقين من أنه حتى فى هذه اللحظة التى صممت فيها على الافتراق عنه أحس أنه قادر على أن يطوينى ببريق ألفاظه كما يطوى السلسلة على أصبعه ، لأنى أحبه ياسيدى كما لم تحب امرأة زوجاً من قبل ، بل إنساناً كائناً من كان ، وسأحبه ما دام فى جسدى عرق ينبض .

ثم عضت على شفتيها فى حنق وهزت رأسها وأضافت :

- وهو يعلم كل هذا .

- ياسيدى .. لشدّما يحزننى ، أن أقف حيالك مكتوف الأيدى عاجزاً عن مساعدتك ، لأن زوجك ليس فقط من زبائنى ، بل هو أيضاً صديق قديم لى ، وإنى لأذكر تلك الساعات الطويلة التي قضيناها فى الريف سوياً ، حيث كان يجد أحدنا من الآخر مؤنساً فى وحشته ووحده ، ولن يمكننى قط أن أتدخل فى مثل هذا الأمر .. وكل ما يمكننى عمله هو أن أدلك على شخص آخر يمكنه أن يقوم لك بالمساعدة التى تطلبينها .

وصدمت السيدة بهذا الحظ العائر ، ولم تستطع التحمل ، فأجهشت بالبكاء .. وأحزن الرجل ألا يستطيع مساعدتها . فقام إليها مهدئاً إياها ، وربت على كتفها برفق وقال :

- ياسيدتى هونى عليك .. فى استطاعتى أن أساعدك كصديق .. وفى الوقت نفسه سأدلك على من تستطيعين الوثوق به .. فقط أريد أن أسألك سؤالاً .. كصديق ، لا كمحام : هل لديك دليل مادى على خيانة زوجك .. ؟

وكفت السيدة عن البكاء .. ورفعت رأسها . وقالت :

- دليل مادى ؟ لا أظن ذلك .. ولكنى بالرغم من ذلك متأكدة من خيانتة ، فكل أحواله تنبئ عن ذلك .. هذا التأتق فى الملابس .. والعودة فى ساعة متأخرة من الليل وتلك الظروف ذات اللون الجميل ، والخط النسائى ، وصورتها الملقاة فى درج مكتبه ، كل ذلك لا يكفى !؟

- قد يكون كافياً لإثارة شكوكك .. ولكنه لن يكون كافياً لإثبات خيانتة ، فليس فى شىء مما ذكرت دليل حاسم . وإنى أرى

أن تهدئي من غضبك ، وتركي العاصفة تمر ، فذلك خير من الفضائح
التي ستدمر حياتك قبل حياته .

فقلت بعناد وإصرار :

- أنا أعلم كل هذا وأعرف نتائجه ولن يثنيني عنه شيء .. فقد
علمتني الساعات الطويلة التي كنت أنتظره فيها وهو يتمرغ بين ذراعي
عشيقته ، ألا أعبأ بشيء .

★ ★ ★

وفي ذلك المساء كانت عربة الزوج الطبيب قد وقفت في ناحية
مظلمة ، وقد جلس بها الرجل الأنيق المنظر ، الوسيم الطلعة ، بادياً عليه
القلق وأخذ ينظر في ساعته بين حين وآخر .

وأقبلت الفاتنة الشقراء تسترق الخطى .. تتلفت ذات اليمين
وذات اليسار . ودلفت إلى العربة ونفذ عيبرها إلى أنف الرجل فملأه
نشوة وغبطة .

وتحركت العربة ، وقد التصق العاشقان ، وأسندت المرأة رأسها
على كتفه . وقالت هامسة :

- هذه هي اللحظات المضيئة في حياتي .. اللحظات التي أحس
فيها أن الظلمات الدامسة قد انقشعت من حولي ، والتي أحس فيها
بالهدوء والاستقرار حينما تمس رأسي بكتفك .. وأراني قد رسوت على
مرفأ يؤمنني من خوف ، ولكن الحياة ضئيلة بهذه اللحظات .. فهي
تلوح لي بها كأنها برق يلمع .. كم أود لو قضيت العمر كله جالسة
إلى جوارك .. وتسير بنا العربة فلا تتوقف إلا آخر العمر . ولكن الطريق
شائك زاخر بالعثرات التي تأبى إلا أن تعيدني إلى الظلمة مرة أخرى ،

وتترعنى من الأحلام الحلوة فتدفع بى إلى الحقائق المرة ، وتذكرنى بأنى لا بد أن أعود إلى الدار بعد نصف ساعة .

ولم يكن الرجل - فيما بينه وبين نفسه - بشديد التأثير بمثل هذه الأحاديث فقد أضحت من فرط ما تعود سماعها من مختلف العاشقات ، غير ذات موضوع فى نفسه ، وإن كان يتقن دائماً الظهور بمظهر الهائم الولهان .

وهكذا مرّ بأذنيه حديث المرأة العاشقة مروراً عابراً ، فلم يصل منه إلى رأسه إلا كلمة «عودتها بعد نصف ساعة» ، فصاح فى كثير من الدهش والاستياء :

- لا تكونى حمقاء بلهاء ، فتهدمى تلك القصور التى بنيتها فى رأسى ، وتفسدى علينا ليلتنا الحالمة ، أترك قد أتيت لتشعلنى فى نفسى نيران الشوق والحنين ، ثم تركينى أكتوى بشواظها .. أتضنين على بسويات أطفئ فيها من ظمأ نفسى وأروى منها غلة قلبى .. ثم تدعين بعد ذلك هوى وجباً .

وسرحت المرأة ببصرها قليلاً ، ثم قالت كمن تحدث نفسها :

- آه من هذا الكهل ، لشد ما يغيظنى منه أنه كصيبة المدارس يريدنى أن أفعل له كل شئ ، أطعمه ، وألبسه ثيابه ، وأوقظه ، وإذهب به إلى الفراش كل ليلة .

ونظرت إلى صاحبها .. وبدأت الأفكار تدور فى رأسها بسرعة البرق .. هذه الدنيا الساخرة .. لم ألقَ بها فى أحضان هذا المحامى الكهل ؟ وأبعدت بينها وبين صاحبها هذا الذى تجد فيه كل ما تمنى ؟

هذا الذى استطاع أن يغمرها فى بحر من السعادة .. لم يستطع زوجها أن يذيقها منه قطرة .

وكان صاحبنا خبيراً بأمور النساء .. فعرف ما يدور بخلدها .. وهمس فى أذنها :

- لشدة ما تشابه مشكلاتنا .. فزوجك .. وزوجتى .. هما بيت الداء وأصل العلة .. هذه الفتاة العجوز .. كم تشبه ذلك الكهل الأحمق ؟ .. لأننى أعرفه تماماً .. فقد عملت معه فى مبدأ حياتى فى الريف ، وقتما كان يعمل محامياً هناك .. ولا أدرى لعمرى : ما الذى أغراك على الزواج به .. لقد كنت إذ ذاك فى الرابعة والعشرين منذ ست سنين خلت .. وكان لديك مايجعل الدنيا كلها تحت قدميك الجميلتين .

وصمت الرجل لحظة ثم أردف :

- لن أدعك تفسدين على ليلتى .. فلا أظنك قد بلغت بك القسوة هذا الحد الذى تحطمين به الكأس الحلوة التى أذقتنى منها قطرة لم تعد لمس الشفاه .

- ولكنى قد أخبرته أننى لن أتغيب أكثر من الثامنة وأننى ذاهبة لزيارة إحدى صديقاتى !

- لا بأس فى ذلك .. يمكنك أن تتصلى به الآن وتخبريه فى التليفون أن صاحبك قد حجزتك للعشاء .

وفى الساعة الحادية عشرة عندما عادت إلى البيت وقد التهبت وجنتاها كان زوجها قد جلس على أريكة يقلب صفحات كتاب بين يديه .. ورفع إليها رأسه ثم قال :

- سهرة ممتعة ولاشك ؟

- بعض الشيء .. لقد ألحت علي كثيراً .. فلم أستطع إلا البقاء .. وأنت ماذا عندك من الأخبار ؟ .

- عندى قصة طريفة ، تستحق أن أرويها لك .. وإن كنت أراها مبعثاً للحيرة والأسف .. فقد حضرت إلى اليوم امرأة فى منتصف العمر قد وخط الشيب رأسها وكسا الحزن وجهها ، وكانت تريد الطلاق من زوجها .. لأنه - كما تقول - مصاب بداء يقض مضجعها ويدمر حياتها .. وهذا الداء هو تلهفه على حب غيرها من النساء .. هو لا يقامر ولا يشرب ولكنه مدمن نساء .. فما خلت حياته معها فى أى لحظة من امرأة أخرى وهو لا ينكر ذلك بل يعتذر لها بأنه فى حاجة إلى من تعطيه المتعة وتهيب له الفتنة والإغراء .. وأنها لم يعد فى استطاعتها أن تهب له ما يريد .. وقد يكون الرجل على حق .. فأغلب ظنى أن كل الرجال كذلك . فهم يحسون أنهم فى حاجة إلى امرأتين لاتستطيع امرأة واحدة مهما بلغت من القدرة والجمال أن توفرهما لهم .. وذاتك هما بيت هادىء ، ومتعة مثيرة ، أو على الأصح ، زوجة وخليلة ، ولا الخليلة تستطيع أن تكون زوجة ، ولذا فلا بد منهما معاً .. هذا هو إحساس جميع الرجال بلا استثناء ولكنهم مع ذلك يختلفون فى مسلكتهم فى الحياة ، لأننا نجد منهم رجلا استطاع أن يكبح جماح نفسه فشغلها بشئون الحياة عن طلب المتعة وقتل فى نفسه تلك الرغبة الملحة فى التطلع إلى النساء ، ورجلا وجد أن عمره أقصر من أن يضيقه فى كبح جماح نفسه فأطلق لها العنان لتذهب من اللذات جهدها .. فهو يرى أن هذا حق لها ، ورجلا بين هذا وبين ذاك ، فهو يقتنص الفرصة لينهب اللذات المختلصة والمتع المسروقة دون أن يحس به أحد ، فهو يستتر ليوفق بين حقه فى المظهر وحق نفسه عليه ، وهذا الأخير هو خير أنواع

لرجال ، لأن الرجل الثاني طائش أحرق .. أما الأول ، فلو أفلت منه
لزام مرة واحدة ، فسيودى به إلى التهلكة .

لنعد إلى قصتنا ، لقد قالت إن السيل قد بلغ الزبي ، وإنها لم
نعد تحتل . ففي هذه المرة قد رأت صورتها في مكتبه ، شقراء حمقاء
كما وصفتها وقد لا يكون في القصة حتى الآن شيء من الغرابة ، ولكن
أغرب ما في الأمر أن زوجها صديق قديم لي ، فهو الدكتور (...) الذي
كان يعمل في بلدة (...) وتجدينتي حائراً بين الرجل وزوجته ، فقد
حاولت تهدئتها فلم أفلح ، على أنها ستحضر إلي في الغد ، وسأحاول
معه مرة أخرى .

ولو رأى صاحبنا وجه زوجته حين أخذ يقص عليها القصة لهاله
الأمر ، ولكن لحسن الحظ كانت الزوجة تخفي وجهها خلف جريدة ..
أخذت تقلب صفحاتها .. وبعد أن تماكنت أعصابها سألتها في نبرات
حاولت جهدها أن تكون هادئة :

- ولكن هل أمكنها الحصول على الصورة ، أعني صورة
العشيقة ؟

- أغلب ظني أنها لم تأخذها وإلا لقات لي .

وكانت إجابته ، كأنها العفو بعد حكم الإعدام .

★ ★ ★

وفي نفس المساء تسللت الزوجة .. ونزلت إلى حجرة التليفون
بالدور الأسفل . وأغلقت على نفسها الباب وطلبت صاحبها الطبيب
وقصت عليه جلية الأمر .. ولشد ما أحزنها وأوجع نفسها .. أن صاحبها
لم يدهش قط . وأجابها ببرود :

ليالي ودموع أطياف

- لم يكن هناك داع ألبتة ، لإزعاج نفسك بمثل هذه الكيفية . وماذا بالله عليك كنت فاعلة لو كانت زوجتي مستيقظة وردّت عليك بنفسها .. اذهبي إلى فراشك الآن . وسأعرف أنا كيف أعيدها إلى رشدها في الصباح . إنني أشد الناس خبرة بها وليس أسهل عليّ من أن أعيدها إلى حظيرتها .. فهذه ليست أول مرة .. أتمنى لك ليلة سعيدة .
وعندما وضعت السماعة كانت كالذي أفاق من حلم معسول .. إذن فهو لا يرغب في طلاق زوجته ولا يهمه كثيراً أن يتزوجها هي .. وأن الأمر عليّ حد قول زوجها : لا يعدو التسلية .

وفي الصباح .. دق جرس التليفون .. فإذا بسيدة تطلب زوجها المحامي .. وردّ الزوج :

- حمداً لله ، فلا شك أن هذا أفضل بكثير من الخلاف .. وفقكما الله .. كلا .. لا إزعاج هنالك ألبتة .. يسرني أن أسمع عنك كل خير .

ووضع الزوج السماعة ، ثم التفت إلى زوجته ضاحكا :

- مسكينة .. لقد استطاع الماكر أن يقنعها بكلماته المعسولة .. كان الله في عونها .. إن حياتها سلسلة متكررة من الخصام والنضال .. مع هذا اللعين .

خرج صاحبنا إلى مكتبه .. وأحست صاحبتنا كأنما كانت في بحر خضم عادت منه إلى شاطئ النجاة .. ولم تعد بعد ذلك تطمع في أكثر من زوجها .. فقد علمت أنه هو المرفأ الذي تستطيع أن ترسو عليه بسفينة حياتها آمنة مطمئنة .. وعلمت أن تلك اللحظات التي ظنتها مضیئة لو تكن سوى أمل يلمع .. وسراب يبرق .

يَحْنُونُ الْهَوَى

لم يكن فيه عيب - إن صح أن يسمى هذا عيباً - إلا غرامه بالغرام ، وحبّه للحب .. لم يهو في حياته امرأة لذاتها ، بل كان يهوى الهوى نفسه .. كان كل ما يطربه هو ذلك الجو الذى يغشى مسرح الحب ، وتلك الهالة المضيئة التى تحيط بالعاشقين ، فتحجب عنها كل بغىض كرهه ، وتخلق من القبح حسناً ، ومن المرارة لذة ، ومن الألم متعة .

لم يكن هناك فى الدنيا أكثر عدداً من معشوقاته ، فقد كان يوقع نفسه فى هوى كل حسناء يصادفها ، كأنه الفراش يلف حول الضوء .. غير أنه كان يفضل الفراش بأنه لا يحترق - أو على الأصح - بأنه حتى الآن لم يحترق .

كان يعتبر نفسه ضحية لكل حسناء ، وصريع كل غانية .. وكان يشعر أنه مصاب بداء الحب وأن الداء قد أزمّن به ، فلم يعد لديه أمل فى برء ، أو رجاء فى شفاء ، وأن جراثيم الهوى قد توالدت فى قلبه وتكاثرت حتى لم تعد هناك ذرة فى قلبه إلا وقد علقت بها جرثومة

من جراثيمه .. بل لقد خيلَ إلى في نهاية الأمر أن قلبه نفسه قد تحوّل
فصار جرثومة كبرى للحب والهوى .

وكانت عل غرامياته تتخذ شكلاً واحداً لا يتغير ولا يتبدل ولا
يكل هو منها ولا يمل .. يبدأ الدور بأن يرى الفتاة ، فيذهل من فرط
حسنها ، أو على الأقل هذا هو ما يخيل إليه دائماً .. ويرى فيها نوعاً
من الجمال لم يره في غيرها من قبل ، وتروعه منها شفتاها أو عيناها ،
ويدهشه بروز ثديها أو امتلاء ساقها أو أى شيء فيها ، فيثبت عليها
بصره ، ويظل يتبعها بعينه كي يشبع نهمه الذى لا يشبع ، ويروى غلته
التي لا ينطفئ لها ظمأ ، ثم يفارقها .. فيبدأ عيشه فى قصور من الأحلام
شاهقة شامخة ، ويرتع فى مرعى من الأمانى خصيب ظليل ، ويهيم معها
فى جو أتقن هو صنعه من فرط ما عاش فيه .

ثم يبدأ بعد ذلك فى نصب الشراك حولها ، وتلك هى أقصى
لذته ، فليس أمتع عنده من الجرى وراءها أو انتظارها ، أو محاولة
لقائها ، أو مشاغلها ومشاغبتها ، لا يجد فى ذلك عناء أو تعباً ، إلا كما
يجد الطفل فى لعب الكرة أو «الاستغماية» ، وقد يلقي فى هذا الدور
من «عملية الحب» شتى صنوف البصد والإعراض ، والسخط
والغضب .. ولكنه دائماً يؤولها لصالحه .. فهى إما «لدلال» أو لإخفاء
الهوى. أو لأى شيء مما يرضيه ويسعد قلبه .

ويدأ بعد ذلك دور الشك .. أتجبه الفتاة أم لا تجبه ! .. وهو
يجد فى شكه هذا لذة أحب إلى نفسه من لذة اليقين .

وقد يعشق فى نفس الوقت اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً . فقد كانت
لديه القدرة على أن يقوم بعملية الحب هذه عدة مرات فى وقت واحد ،

دون أن تتعارض إحداها والأخرى - وهو في كل واحدة منها مخلص تمام الإخلاص .. فهو يستطيع أن يوزع نفسه وعقله وقلبه بالتساوي بين حبيبائه دون أن يجد نفسه مقصراً نحو أية واحدة منهن . بل إنه ليجد في نفسه القدرة على عشق جميع نساء العالم - الحسنات منهن - في وقت واحد دون أية مشقة أو تعب .

وهكذا يظل الفتى يرتع وينعم في جو من الشعر والهوى حتى تحين الخاتمة ، وهي دائماً تنتهي إلى أحد أمرين : إما أن تحبه الفتاة وتلين له ولا يجد صعوبة في لقائها فتذهب عنها تلك الهالة التي كانت تحيطها وإياه .. وتذهب معها تلك الفتنة العجيبة ، وتنشع عن رأسه تلك السحب الملونة الشبيهة بالشفق الأحمر فتترك حسناء مجرد مخلوقة ، وهو لا يحب المخلوقة لذاتها ، بل يحب ضوء الهوى الذي يشع حولها ، ويعشق ينبوع الغرام الذي يغمرها ، فلا يكاد ينالها حتى ينطفئ الضوء وينضب ينبوع فيفقد متعته فيها ، ويتركها إلى غيرها ، وسرعان ما ينغمس في عملية غرام أخرى .

وإما أن ينتهي به الأمر - وهذا ما يحدث غالباً - إلى أن تصده الفتاة ولا تأبه له ، وتستمر في إعراضها ، لاتكاد تشعر به ولا تحس له وجوداً . ويستمر في نضاله وجهاده مستعبداً في ذلك التعب ، مستلذاً الألم حتى يضيق بها ذرعاً ، فينتقل إلى غيرها ، ويبدأ غراماً جديداً .

وهكذا لم يكن رأس صاحبنا يخلو لحظة واحدة من فائنة تملأ عليه فراغه ، وتشغل تفكيره ، وكان دائم التحليق في جو لذيد ممتع مشبع بالهوى ، ممتلىء بالحب .

وفي ذات ليلة عاد الفتى إلى داره موجه القلب كاسف الفؤاد ، عقب فشله في إحدى عمليات الغرام التي كان يخوض غمارها ، وارتدى

فى فراشه فى ضيق ويأس ، فقد كانت هزيمة الليلة هزيمة منكورة ..
 وشعر للمرة الأولى بخسائر المعركة وجراحها ورضوضها ، ولم يجده
 نفعاً أن يعزى نفسه بتعويضها بالانتصار فى ميدان آخر .. فقد كان قلبه
 يوحى إليه بأن الميدان الذى منى فيه بالهزيمة المنكرة هو ميدان رئيسى
 لا يمكن تعويضه . وبدأ الفتى يستعيد إلى رأسه غرامياته الناجحة علّ فى
 ذكرياتها بعض ما يخفف عنه اللوعة .. واحتشدت فى رأسه صوت
 مئات الفتيات وعصفت به الأفكار ، واستعصى عليه النوم فقام من
 مضجعه متاقلاً ، واتجه إلى الشرفة وأخذ يتطلع إلى الفضاء الفسيح وملاً
 بالهواء صدره ثم أخرجته فى زفرة قوية .. علّ الهواء يأخذ معه فى
 خروجه بعض أحزان قلبه .

وثاب إلى الفتى بعض هدوئه وأحس ببعض السكينة تعود إلى
 نفسه . فراجع إلى مضجعه متاقلاً ، ولكنه لم يكد يقرب الفراش حتى
 شعر بنور الغرفة قد أضىء فجأة .

ولم يكن الفتى جباناً أو رعديداً ، ولكنه كذلك لم يكن يخطر
 على باله أن فى الحجرة مخلوقاً غيره ، فأصابه الخوف وصاح فرعاً :
 - من ؟

ولم يجبه صوت .. بل أجابته ابتسامة !!

ابتسامة ارتسمت على وجه الزائر الذى تطفل عليه فى منتصف
 الليل فافتحم عليه مضجعه .. ابتسامة تهدئ الروع ، وتذهب الخوف
 عن أشد الناس خوفاً .. ابتسامة تنزل على القلوب برداً وسلاماً .

وكان أول ما فعله الفتى ، بعد أن رأى زائره ، أن رفع يديه إلى
 عينيه «ففركما» حتى تأكد أنه مازال فى اليقظة ولم تأخذه سنة من
 النوم .

كان زائر الليل من ذلك النوع الذى يرضى الفتى التنازل عن نصف عمره فى سبيل أن يزوره ليلة .. فقد كان يعتبرها ليلة القدر .. التى هى خير من ألف شهر .

وذهب أثر الصدمة من نفس الفتى وبدأ يعود إلى وعيه .. وأخذ يشمل الزائر بنظرات فاحصة من أخمصه إلى قمة رأسه .

كان الزائر فتاة .. أى والله فتاة .. مافى ذلك ريب ولاشك . وفتاة من النوع الذى لولا خوف الإنسان أن يتهمه الناس بالوحشية لأكلها .. نعم لأكلها . ولشعر بعد ذلك بالجوع كأنه أكل حفنة من «غزل البنات» أو «البسكويت البانيليا» .

وبدأ رأس الفتى يدور فى سرعة عنيفة ، بعد أن تأكد تماماً أنه فى حالة اليقظة ، وأن التى أمامه هى حقاً فتاة .. وبدأت تتوارد على ذهنه ألوف الأسئلة السريعة الخاطفة التى لا يستطيع عليها إجابة ولا تفسيراً .

من تكون الفتاة ؟ .. سارقة ؟ .. غير معقول .. عاشقة ولهى .. برح بها الحب وأقضى الهوى مضجعها .. فلم تطلق على فراقه صبراً فقامت تتسلل إليه فى جنح الليل وتحت ستر الظلام ؟ شىء لا يصدق عقل ، حتى ولا عقله هو ! .

ضيقة أو صديقة للأسرة ، تقضى ليلتها فى المنزل ، وقد أخطأت الحجرة ؟ . لا يظن .. فكل ضيوف الأسرة وأصدقائها قد قبح الله خلقهم . فلم ير فى الدار مرة واحدة خلقة حسنة أو وجهاً جميلاً ، وكأن أهله قد اشتروا فى أصحابهم القبح والدمامة ، حتى يظهروا هم فى نظره أجمل الناس .

إذن من تكون .. خادمة جديدة ؟ «ياليت» !! ولكن ذلك غير معقول أيضاً ، بل هو من رابع المستحيلات .

طافت برأسه هذه الأسئلة فى سرعة البرق .. والفتاة أمامه تبتسم فى سحر ودلال دون أن تنبس ببنت شفة .. وأنعم فيها النظر مرة أخرى فأذهله زيتها وملأت ملابسها نفسه دهشاً وعجباً .

كانت الفتاة ترتدى زياً عجيباً أشبه بالأزياء التاريخية ، فكانها على خشبة مسرح أو فى مهرجان .

ولم يطق الفتى بعد ذلك صبراً .. فانطلقت الأسئلة تندفع من رأسه إلى لسانه ، يستفسر عن تكون الفتاة ، وعن سبب مجيئها ، وعن سر ملابسها ، وعن مدة إقامتها . وعن .. وعن ..

ونظرت إليه الفتاة فى هدوء وأجابته عاتبة فى صوت عذب رقيق :
- أى لقاء هذا الذى تلقون به زائريكم .. أمان كلمة تحية أو ترحيب ؟

وشعر الفتى ببعض الخجل ، فقد أنساه منظر الفتاة وزيتها العجيب أن يحييها ويرحب بها ، فأخذ يعتذر فى كلمات مدغمة مبهمة .. وأردفت الفتاة :

- ولكن الذنب فى الواقع ذنبى .. إذ كان يجب أن أسرع بتقديم نفسى حتى أزيل دهشتك فلاشك أن زيارتى قد أذهلتك حقاً .. لأنك لم تعتد أن تزورك فتاة فى منتصف الليل ، أو بالأحرى لم تعتد أن تزورك روح فتاة عاشت قبلك بأجيال سحيقة منذ عدة قرون خلت .
وقاطعها الفتى ضاحكاً فى سخرية :

- لعلك لاتنوين أن تدخلى فى روعى أنك روح أو شبح !!
ولكن الفتاة لم تضحك بل نظرت إليه نظرة ملؤها الجد والرزاة
وأجابته :

- أنا لا أنوى أن أدخل فى روعك شيئاً ، ولا أنوى مجادلتك ..
لأن المسألة لاتحتاج إلى مجادلة .. وليس عليك لكى تتأكد مما إذا
كنت جادة فى قولى أم هازلة .. أى إذا كبت روحاً أو جسداً .. إلا
أن تتقدم منى وتحاول إمساكى أو احتضانى .

وضحك الفتى فقد خيل إليه أن الفتاة العابثة تحاول استدراجه
لاحتضانها ، ولم يكن فى حاجة إلى هذا الاستدراج ، فليس أحب إلى
نفسه من ذلك .. فتقدم إليها بثقة واطمئنان .. ثم لف ذراعه حولها
واحتضانها فى رفق ولين .

وكانت صدمة للفتى لم يلق مثلها فى حياته ، فقد لف ذراعه فى
الهواء واحتضن الفراغ !!

لم يجد هناك مايحتضنه ، فقد كانت لاشيء ، وكأنها مصنوعة
من دخان أو كأنها خيال فى الماء !!
وتكلمت الفتاة :

- لاترع ، ولاتخف .. كان يجب عليك أن تصدقنى حتى
لاتعرض نفسك لهذه التجربة المضحكة .

وكان الفتى قد أخذ يتمم فى ذهول كأن به مساً من جنون :
- روح !! .. أنت روح !؟

وهزت الفتاة رأسها فى استنكار كأنها قد ضاقت بالفتى ذرعاً
وأجابته :

- إذا كنت تنوى أن تمضى الليلة فى مثل هذا الدهول
والتعجب ، فخير لى أن أنصرف .

وعاد الفتى إلى وعيه بعض الشيء ، فصاح بالفتاة :

- لا .. لا .. أرجوك .. يجب أن تلتصق لى بعض العذر ..
فإننى فى الواقع لم أتشرف بزيارة أرواح قبل الآن ، بل لم يخطر لى
على بال قط أن هناك أرواحاً بمثل هذه الفتنة والإغراء .. فقد كنت
أتخيلها أشباحاً ، لا يصيبنا منها إلا الرعب والفزع .

وقهقهت الفتاة ثم اتجهت إلى أحد المقاعد فجلست عليه ،
وطلبت من الفتى أن يجلس بجوارها ، ثم بدأت الحديث فى صوت
تغشاه رنة الأسى :

- ما كان يجب أن أخلق إلا الآن .. هذا هو العصر الذى كنت
أود أن أعيش فيه .. عصر الحرية والنور .. عصر الحب والهوى ، لقد
كان الزمن الذى عشت فيه غريباً علبى ، وكنت غريبة عنه .. كان الناس
فى ذلك الوقت يحسون بأنى مخلوق شاذ ، وكنت أحس أنا بأنهم
سخفاء مجانين .. لقد كانوا فى ذلك الزمن يحرمون الحب ويعتبرون
الفتاة العاشقة مجرمة أثيمة .. وكان على الفتاة ان تتزوج من يحبه أبوها
لامن تحبه هى .. تصوّر يا صاحبى أنهم قتلونى بسبب الحب .

وصاح الفتى فى فزع :

- قتلوك !!

ولكنه عاد إلى نفسه وذكر أن الفتاة ليست إلا روحاً ، وأنه ليس
هناك عجب فى أن تكون قد قتلت .. فأشار إليها أن تستمر فى
حديثها .. واستمرت الفتاة تقول :

- قتلوني لأننى أحببت .. وفى زمنكم هذا يخيل إلى أنكم لاتفعلون شيئاً غير الحب .. لقد كان كل ما فعلت هو أننى أحببت ذات مرة ورفضت الزواج إلا ممن أحب ، وهنا كانت الكارثة ؛ لقد أصر أبى على قتلى ، ففررت منه واستغثت بحاكم المدينة . فأغاثنى .. ولكن أبى سرعان ماتبعنى إلى هناك .. فقص على الحاكم القصة .. فلم يكن من الحاكم نفسه إلا أن أمر بقتلى .. لقد كانوا وحوشاً فى ذلك الوقت .. على أية حال دعنا الآن من هذه الذكريات المريرة ، ولنتحدث فيما لايجلب للنفس الحسرة والألم .. لتحدث فيما نحن فيه الآن ، فلشد ما يسرنى أن أكرر لك الزيارة ، وأن نكون أصدقاء ، وإن شئت عشاقاً ، لأننى ظمأى إلى الهوى ، وليس هناك ينبوع يفيض بالهوى كما تفيض به أنت .. وإننى أحس أن كلا منا سيسعد بصاحبه ويسعده .. فأنت تريد الحب وجوه المشيع بالسحر .. إنك لاتريد المادة ، ولاتريد شيئاً له نهاية .. وهذا هو ما سأهبه لك .. سأعطيك كل شيء وأعطيك لاشيء .

وتكررت زيارة الفتاة للفتى ، ونشأ بينهما حب جارف قياض .. وكانت الفتاة عجيبة حقاً ، عرفت كيف تملك على الفتى مشاعره . وكيف تبعد عن نفسه السامة والملل ، وتنزعه من عالم الإنس إلى عالم الروح .. فهيأت له كل ما يسليه ويطربه من بين الأرواح .. فكان الفتى أحياناً يجد نفسه فى حجرته وسط عشرات الراقصات وآلات الطرب وأصوات الغناء من العهود الغابرة والأزمنة الخالية .. حتى إذا مل الضجيج وجد نفسه وحيداً مع فاتنته فى جو ساحر شعرى .. وهكذا ظل الفتى ينتهب اللذات من الليالى الحاملة التى أغرقته فيها الفتاة .. وعجب الناس لما أصاب الفتى من زهد فى الغرام ومن تبكير فى العودة إلى مضجعه ، ومما كان يبدو عليه من استغراق فى التفكير وحب

للوحدة ، ومن ذهول وشروود حتى لقد خيّل إليهم أنه تنسك واتخذ مسوح الرهبان .

وقاض الهوى بالفتى .. وبدأ يحس أنه لم يعد يقنع من الفتاة بالروح دون الجسد . ولم يعد يلذ له ذلك الجو الذي كان يلذ له من قبل ، بل شعر أنه يريد الفتاة ذاتها .. يريد أن يطبق عليها يديه فيحس بحرارة جسدها ويلمس نعومة بشرتها .. لقد ملّ وكره أن يعيش مع لاشيء ، ويعشق الهواء والفراغ .

وصارحها الفتى ذات ليلة بحقيقة شعوره ، فأطرقت في حزن وأسى وأجابته :

· - كم كنت أخشى ذلك ، ولكن كان يجب على أن أتوقعه ، ليس في استطاعتنا الآن يا صاحبي إلا أحد أمرين : إما أن تصير أنت روحاً فيذهب عنك ذاك الشعور البشرى ، وأما أن أصير أنا جسداً فأستطيع أن أهب لك ما تشاء من اللذة الملموسة .. ويخيّل لى أن من الأنانية والجنون أن أسألك أن تقتل نفسك فتكون روحاً ، فلم يبق أمامى إلا أن أحاول أن أكون جسداً .

وسألها الفتى فى يأس :

- ولكن كيف يمكنك ذلك ؟

- سأحاول أن أبادل إحدى الأرواح فلعلها تفضل الصعود إلى السماء وتتنازل لى عن جسدها لأعيش فيه .

واختفت الفتاة فلم يعد الفتى يراها بعد ذلك .. ورآه الناس وقد تبدّل ذهوله وشرووده إلى حزن وكآبة وبأس وقنوط ، وبدأ كأنه قد جن فعلاً .

وفى ذات يوم صادف الفتاة التى كانت آخر من عشق .. والتى
منى فى عشقتها بالهزيمة المنكرة .. فحاول الابتعاد عنها .. غير أنها
استدعته ببصرها ، ونادته بعينيها ، فلم يتردد فى الذهاب إليها .

ودهمش الفتى عندما وجد أن هزيمته السابقة مع الفتاة قد انقلبت
انتصاراً ، وأن جسد الفتاة قد بات لهفة ، وإعراضها قد صار ولهاً وشغفاً .
وانغمر فى غرامه الجديد ، ونسى زائرة الليل التى كاد يجن بها ،
وشغلته عنها معشوقته القديمة الجديدة .

وكان غرام الفتى فى هذه المرة من نوع جديد .. نوع ملك عليه
نفسه .. وعلمه أن هذا هو الحب .. وأن ما مضى مما كان يظنه حباً ..
لم يكن إلا فنون لهو وعبث .

لقد كان الفتى لا يبصر فى دنياه غير فاتنته الجديدة .. وكان رأسه
مليئاً بها .. يراها نسيج وحدها .. فما شع السحر إلا من عينيها .. وما
تدفقت الفتنة إلا من شفيتها .. وما سطع الجمال إلا من وجهها .

لقد كان تيار الهوى فى هذه المرة جارفاً فياضاً .. فاندفع معه
الفتى بلا روية ولا تفكير .. وانتهى به الأمر إلى طلب الزواج من الفتاة .
وفى ليلة الزفاف أبصر عروسه وقد ارتدت ثوباً شديد الشبه بذلك
الذى كانت ترتديه زائرة الليل .

ودخلت العروس إلى حجراته فأدهشه شدة الشبه بينها وبين زائرة
الليل .. وزاد فى دهشه أنها كانت تبدو وكأنها تعرف كل تفاصيل
الحجرة ودقائقها ، حتى بات يخشى إذا ما ضمها إليه أن يجدها روحاً
لاتشبع من شوق ولا تروى من غرام وشغف .

وتقدم إليها متردداً .. ومد يده في بطاء وتحسس ذراعها البض
وجذبها إليه في لين ورفق .. كأنما يخشى عليها أن تتطاير في الهواء ..
وضم جسدها إلى جسده .. وشفتيها إلى شفتيه .. ليتأكد أنها حقيقة
وليست وهماً أو طيفاً .. فأحس من جسدها بدفء .. ومن شفتيها
بحرارة .. ومن أنفاسها بلهيب يستعر .. لقد كانت هذه المرة امرأة
تشبع من جوع ، وتروى من ظمأ .

وسمع الفتاة تهمس في أذنه قائلة :

- لا أدري ما الذى جعل حبك ينشب مخالبه فى قلبى فجأة ..
ولا أدري ما الذى قلب ذلك البغض حباً وولهاً .. !!

وتتمم الفتى بصوت لم تسمعه الفتاة :

- لا بد أن صاحبتنا قد وجدت من يبادلها المكان ، فحلّت هي
فى الجسد . وصعدت الأخرى إلى السماء .

ورأى الناس الفتى بعد ذلك قد عاد إلى حاله الطبيعية .. فلم يعد
يُرى مشدوهاً أو مذهولاً ، ولم يعد يسجن نفسه فى مضجعه .
وذهب كل ما به من يأس وقنوط ، وحزن واكتئاب .

★ ★ ★

عَرِيَّةٌ حَلَام

.. كان ذلك فى ليلة من لىالى الشتاء والريخ تصفر فى الفضاء
وتعول وترن .. ولسان من لهب النار يرتجف فى مهب الريخ

والقمر يظهر بين آونة وأخرى ، فيستقر بضوءه الفضى المتألىء
نواحي «المركب» وجوانبها .

وفى مؤخرها بدا وجه الملاح أغبر مشعثاً ، وخشنا جافاً .. وكان
من لحظة إلى أخرى كمن يتمتم كلمات غير مسموعة .
وهبت الريخ ثانية صرصرأ عاتية ، انكمش لها الملاح ودفن رأسه
ركبته ، ثم عاد ورفعها وفى عينيه بريق ولمعان .

كانت ترقد هنالك تلك المرأة التى حملها من (البلد) ليذهب بها
مصر مع مايشحنه من فول وقمح .. كانت رثة الملابس باليتها ،
أها البلى والفقر من صنوفه أثواباً .. ومع ذلك - والحق يقال -
ت فتانة مغرية جذابة . ولم يحل ثوبها المهلهل الرث دون إظهار
بيتها وإغرائها .

أما ذلك الطفل الذى كانت تحمله فهو لا يدرى عنه شيئاً ألبتة ..
ربما كان ابنها .. وربما كان أحد أقاربها ، وربما لم تكن لها به صلة .
على أية حال فإن الطفل لايهمه قليلاً ولا كثيراً ، إنما تهمة
المرأة .. إنها بيت القصيد .. إنها قنيصة المطاردة وصيد الصائد المكتنز
السمين .

وعادت الأفكار تتخبط فى رأسه .. وأخذ الشيطان يهمس فى
أذنه :

- ماذا يهمك يارجل ؟ .. قم وأقض منها وطرك .. وخذ منها
مأربك .. إن الحياة لذة واستمتاع .. مم تخاف وماذا تهرب ؟ ..
أتخاف أن تصيح ؟ لتصح ولتصح ، ولتستجد وتستغيث .. فلا منجد
ولا مغيث .

وكأنما سرّه حديث الشيطان . فنفض عن نفسه ما اعتراه من
خمول ، وهب واقفاً ، وأخذ يقترب فى خطوات بطيئة مضطربة .
والطفل !! .. تالله إنه لم يخطر له قط على بال .. تَبّاً له ذلك
المخلوق الصغير .. لو لم يكن هناك لقضى الأمر .. اللعنة عليه .
ما أغباه وأضيق عقله . ماذا يهمه من الطفل ؟ لينحه جانباً ..
وقهقه ضاحكاً وهدأ نفسه . ثم عاد يتقدم .

ونظر فإذا بكتلة مغطاة بلحافه القديم الرث .. عجباً إنه لا يدرى
أين قدم المرأة وأين رأسها .. بل إنه لا يدرى أين الطفل وأين المرأة ..
وانتظر برهة ، ثم مد يده وأزاح الغطاء قليلاً ، فظهر له وجهها ..
واستمر فى إزاحته شيئاً فشيئاً حتى ظهر شعر الطفل وقد احتضنته
المرأة .

وانتفض قليلا من رؤية رأس الطفل ، فنهز نفسه :

- أتخاف الطفل ؟ .. ما أجبنك .. تقدم يا رجل !

وتشجع الرجل ثم أزاح الغطاء قليلا .. آه .. وخرجت من صدره
صبيحة مكتومة تشبه الحشرة .

ما هنالك ؟؟ . إنهما عينا الطفل تبرقان في الظلمة وتحدجانه في
قسوة ويحه !! أتأنتك عينا طفل ؟ . كلا وربى . إن عيون الجن لأقل
منها إرهاباً وأخف أثراً ! .

وخطر له أن يضع أصبعيه في العينين وينتهي منهما ، ولكن الجرأة
لم تواته .. فأعاد الغطاء ، وتراجع رويداً رويداً .

لو لم يكن هناك ذلك الطفل اللعين ، أو لو كان أعمى ..
وضحك بوحشية .. أ يخاف من طفل لا حول له ولا قوة ؟!

وقال لنفسه :

- اللعنة على ابن الخبيثة .. ماذا علّى لو خنقته ورميت بجثته
في الماء ؟

وللمرة الثانية قام إلى المرأة ، وييد مرتجفة أخذ في إزاحة الغطاء
حتى ظهر شعر الطفل فوجهه .. وإذا بعينه تحملقان في وجه الملاح .

لعنة الله عليه .. ألا ينام ؟ . إذن فسيعرف كيف تخدم أنفاسه
إلى الأبد .. ومدّ يده وقبض على عنق الطفل وشدّ عليه حتى لا يجعله
يصيح أو يصرخ ، وصدرت من صدر الطفل حشرة ونظر إلى الرجل
بغربة .

وارتجف الرجل وارتعدت أوصاله .. لِمَ ينظر إليّ هكذا ؟ .. لعله
قد أدرك ما يود الرجل إتيانه .

ورفع الطفل من عنقه وسار به إلى آخر السفينة .

وأغمض عينيّه ، وضغط على عنق الطفل ، وعاد نفس الطفل
يتحشرج في صدره ، وهبت الريح أشد ما تكون صفيراً وعويلاً ، وأنيباً
ورنيباً ، وارتفع لهب النار بعد أن كاد يخبو ، وبدأ على ضوءه وجه
الملاح قاسياً شريراً ، وما زالت يدها تضغطان على عنق الطفل .

وتدلى لسانه حتى آخره ، ومال عنقه ، فتنفس الرجل الصعداء ،
ورفع جثة الطفل وألقاها في لجة البحر ، وطاح الرشاش وانداحت دوائر
الماء ثم سكن الرشاش وعاد سطح الماء كما كان أملس هادئاً ، وابتلع
اليوم الجثة .

والآن ليقدم على ما يريد دون خوف أو وجل ، فقد خبت عينا
الطفل ولم يعد هناك ما يرهبه أو يخيفه .. واقترب من المرأة ، ولكن
كان يخيل إليه أن رجله قد ثقلتا ، فأضحى يجرحهما جرأً ، ثم رمى
بقطعة خشب إلى النار فارتفع لهيبها .

ونظر إلى كفه فإذا عليه بقعة حمراء .. «دم» !! وارتجف من
قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، وعلت بصره غشاوة فحجبت عنه
النيران .. وما لبث أن عاد إلى نفسه .. وبسرعة البرق وبمنتهى الشدة
أسك بالقطعة التي عليها بقعة دم ونزعها بجنون فتمزقت وانفصلت عن
ثوبه ، ثم رمى بها في اليم فابتلعها كما ابتلع من قبلها جثة الطفل .
واقترب ثانياً من المرأة .. وأزاح الغطاء رويداً .

يا لله !! إنها ما زالتا هنالك .. تحملقان فيه .. وتحذجانه بقسوة ، وحاول أن يضحك من ذلك الخاطر الثقيل ، ولكن شفتيه تصلبتا ، وأخذت يده في الارتعاش .. عجباً ! لماذا يخاف ؟ ومم يرتخف ؟ .. كل شيء على مايرام .

وحاول أن يبعد عن نفسه ذلك الخوف ولكن عبثاً .
وبحركة آلية ازاح الستار ثانياً .

ويل له .. إن عيني ذلك الطفل اللعين ما زالتا تحدقان فيه .. نعم لاشك أنهما تكادان تلتهمانه .

وتقلصت يده وشفته ، وخجل من ذلك الخوف .
لم تعد هناك عينان .. فقد ذهبتا قطعاً وخبا لمعانهما .. ولكنه الوهم .

ولكى يتأكد من ذلك مدّ يده وجس مكانهما ، ولكنه لم يلق شيئاً ، وعاوده الاطمئنان بعض الشيء .. ومع ذلك فإنه لا يكاد يبصر مما أمامه سوى هاتين العينين فأعاد الغطاء وابتعد بسرعة هارباً . إنه لا يستطيع .. إنه لا يجسر .. تلك العينان اللعيتان تكادان تلتهمانه .

رباه !! .. إن العينين تتبعانه إلى حيث يذهب ! ..

وخبأ وجهه بيديه حتى لا يراهما . ثم نظر من خلال أصابعه فإذا بالنار قد ارتفعت واستعرت .. ثم انقسمت إلى قسمين ، واستدار كل منهما ، وإذا بهما عينان تحملقان في وجهه ، وإذا بالسفينة قد أضحت كلها عيوناً وأشباحاً تصرخ فيه صراخاً مفزعاً كأنها صاعقة توشك أن تنقض عليه .

وفجأة ، ودون أن يدري ماهو فاعل ، رمى بنفسه فى لجة الماء فوق الأمواج كأنما حملة إعصار ، وظل يسبح بجنون ليعيد نفسه عن السفينة وليفر من تلك الأشباح والعيون .. وأخيراً وبعد أن أنهكه التعب وخارت قواه التفت خلفه ، فإذا بالسفينة تعلو وتهبط والنار كما هى . لعنة الله عليه .. ماذا اعتراه ؟ وماذا أخافه وأرهبه حتى يلقي بنفسه فى الماء ويترك سفينته خاوية خالية ؟ .. وارتجف من برودة المادة وارتعد .. وأخذت الأفكار تتوارد على رأسه بسرعة البرق .. لقد قتل الطفل ، فماذا يقول للمرأة إذا سألته عنه ؟ .. وبم يجيبها ؟ لابد أنها شاكية ، ولابد أن نصيبه القتل والإعدام . إذن ليقتلها هى الأخرى .. كلا .. كلا .. سيكون الجزاء مضاعفاً لاشك فيه .. إذن فليختصر الطريق وليقتل نفسه مادامت هذه هى النهاية المحتومة وليحدث بعد ذلك مايحدث ، وبعض الجرم لاشك أهون من بعض .

وغطس فى الماء .. وظهرت على السطح عدة فقائيع ، ولكن حب الحياة عاوده ، فرفع رأسه من الماء وهو ينتفض ويرتجف . لقد عزم على أن يعود ثانية .

إن أقصى ما ينتظره هو الموت .. فلم يتسرع ويحكم على نفسه به ؟ .. وبكل ما تبقى من قواه سبح تجاه السفينة وقد لاحت له نيرانها عن بعد ، واقترب من السفينة ، فإذا بالمرأة قد استيقظت وأخذت تضج بالبكاء والعويل ، وهنا مرّ بفكره خاطر كاد يطير له من الفرح والسرور .. لم لايقول للمرأة بأن طفلها قد تدرج ووقع من السفينة ، ثم رمى هو بنفسه فى الماء لينقذه فلم يفلح ! ..

وتقدم الملاح ، كمن حكم عليه بالإعدام ، ثم جاءه العمو .. فصاحت به المرأة قائلة :

- أين ولدى ؟ أجبنى ؟!

إذن فلقد كان الطفل ولدها ، لا بأس في ذلك ولا حرج . لن
غير هذا من الأمر شيئاً ، وكل ما يجب عليه أن يكون ثابتاً ، رابط
جأش .

وأمسك بحافة السفينة ، ثم وثب إلى الداخل ، وقال :
- لقد ذهب .

- ذهب ! أتعنى غرق ؟ ..

وأمسكت به تهزّه هزّاً عنيفاً ، ثم صاحت :

- تخبرنى أيها الرجل .. لِمَ غرق ؟ وكيف ؟

- هوّنى عليك .. لقد كان هناك (وأشار إلى المكان الذى كانت
ام فيه) وكنت جالساً فى مؤخر السفينة .. ولم أشعر إلا وصوت سقوط
سء فى الماء يقرع أذنى .. لم يكن يخطر على بالى قط أنه هو ..
سدقيني إنها الحقيقة .. ورميت بنفسى فى الماء .. ولكن الأمواج
كانت قد حملته بعيداً .. كفكفى دمعك ، وخففى من حزنك
لوعتك ، إنها دنيا فانية .. كلنا إلى التراب نصير .

وأخذت المرأة تبكى فى تشنج ، فأخذ يهدئها .

وفجأة رفعت إليه وجهها وأخذت تقول فى صوت متقطع :

- ويلي .. لقد كان هذا جرمى .. إني المذنبه الآثمة .. إنك
تدرى من الأمر شيئاً .. (وحملق الرجل فى وجهها ، لعل المرأة قد
جنّت ، وكاد يصيح بها : يا مسكينة ! إنك أنت التى لاتدرين من الأمر
شيئاً) .. إن ذلك الطفل لا أب له .

وعادت المرأة تهتز من البكاء واستمرت :

- لا تكن قاسياً فى الحكم على .. لم أكن وحدى المذنبه ، فقد
أخذنى الرجل بالقوة ، وكنت ضعيفة فاستسلمت ، وأخيراً تركنى ..
لقد كان وحشاً ، ولما ذهبت إليه بالطفل صاح بى : اذهبى .. ألقيه
على قارعة الطريق .. اقتليه .

وسكت برهة ثم تابعت حديثها بقولها :

- وانسلت من أهلى وركبت معك حتى ألقيه بعيداً فى غير
بلدنا ، وإلا لو عرفوا .. لكان القتل نصيبى .

وقال الرجل :

- وأخيراً ؟!

- وأخيراً !! .. لقد حدث مارأيت .. لقد أنقذنى الله ، وأراد
ألا تلوث يدى بدمه فوكل إلى اليم تلك المهمة البغيضة الشاقة .

ومسحت دموعها بكمها ، ونظر إليها الرجل على ضوء النيران
المشتعلة فأبصر فيها الكثير من ضروب الفتنة والإغراء .. وبدا له صدرها
ممتلاً مكتنزاً واستطاع أن ينفذ ببصره من خلال ثوبها الأسود
الشفاف .. فىرى بعين الوهم تفاصيل جسدها الناضج قطعة قطعة ..
فبدأت لهفته إليها تطغى على كل ما عداها من مختلف المشاعر التى
تضطرب فى نفسه .. لقد تبخر عن نفسه شعوره بالجرم الذى ارتكب ،
وخمدت فيها نار الندم الذى أحس به منذ لحظات ، ولم يعد يحس
للمرأة رحمة ولاشفقة .. لقد سيطر على نفسه شعور واحد ، هو رغبته
فى اقتناصها طوعاً أو قسراً .

لقد تملكه شيطان الفجور ، وهياً له الغنيمة هينة لينة ، فودّ لو
أمسك المرأة بين يديه ثم مَرَّقَ عنها ثيابها ، وتحسس ذلك الجسد الناعم
الدافئ وضمه إليه بشدة وعنف ملقياً بشفتيه فى أتون شفتيها .

وتصاعد الدم حاراً فى رأسه وأحس بوجهه على وشك الالتهاب ،
وعصفت بنفسه نيران الرغبة التى تتأجج فى صدره ، ونظر إلى وجه
المرأة ، والتقت عيناها ، فارتجفت من نظرته وارتعدت ، وساد
السكون برهة ، ثم انقض عليها فجأة ، فقاومت ، ثم استسلمت .. وبين
عشية وضحاها كان قد قضى منها وطره .

وتركها وذهب إلى مؤخرة السفينة متظاهراً بإصلاح النار ، والندم
يقرع ضميره ، ويخزه وخزاً شديداً . ثم جلس ودفن رأسه بين ركبتيه
وأخذ يفكر .

يا لسخرية الحظ وهزؤ الأقدار ! رأيتم أعجب من هذا ! .. لقد
أزهق الرجل روحاً .. ثم أتى بأخرى بديلاً عنها .. ذنب أعظم من
ذنب ، وجرم شر من جرم .. ربما قد أراح بإزهاق الروح الأولى ..
ولكنه أجرم على أية حال ، بل إنه أفضح جرم يعتبره الإنسان والقانون ،
أما الجرم الثانى فهو فى عرفه أشد وأنكى ، ولو كان الإنسان يتغاضى
عنه ويتناساه ظلماً منه وجوراً .. قتل الإنسان ما أكفره وأظلمه .. يصبح
ويمسى وهو يرتكب هذا الإثم دون أن يؤنبه ضميره أو يخزه ، بل إنه
ليسر به ويفتخر كأنه لا يدرى أنه قد ارتكب من الذنب أفحشه ، وأتى
من الإثم أشده وأعظمه . لا بد أن يكون فى هذه الدنيا خطأ .. وإلا
لم يترك القانون ذلك المذنب الذى يأتى بروح لا لشيء سوى ملاقة
الشقاء والتعب والمصائب والخطوب ، ثم يعاقب ذلك الذى يخلص
الأرواح من كل ما تلاقيه من أرزاء ونكبات .. هى غباوة من الإنسان

وحقق .. على أية حال فقد أتى الذنبيين . وارتركب الجرمين ، فهو مجرم
في عرف نفسه ، وفي عرف القانون ، ومع ذلك فسيتمتع بحياته وحرية
كأنه ما ارتكب فعلاً إذا ، ولا أتى أمراً نكراً .

ورفع بصره إلى المرأة ، فأخذته الشفقة عليها .. واستمر يحدث
نفسه :

- مسكينة تلك المرأة ، لا ذنب لها قط .. فعليها ينصب كل
عقاب ، وفي عنقها تقيد كل جريدة .. هي الطريدة .. هي المنبوذة ..
لا . أما المجرم الحقيقي فسيظل يكرر جريمته في كل يوم وفي كل
حين ، لا يردّه عن إثمه راد ، ولا يردعه عن غيه رادع . لقد حملها
طفلاً ، هو في الواقع ابنه ، وبعد سنة يظهر ذلك الطفل على وجه الأرض
دون أن يدرك من أمره شيئاً .. ومن يدري ربما تكررت مأساة اليوم ،
وربما قتل ابنه رجل آخر .

وهنا عض على أسنانه من الغيظ والحنق .
لا بد أن ينقذ ابنه .. إنه ابنه فوق كل اعتبار .
وتذكر منظر الطفل وعينيه فارتعجف ، وذرفت من عينيه دموعان ،
ونظر إلى المرأة فإذا بها تهتزم بالبكاء .
وانتفض ، ثم قام كمن نوى أمراً .
واقترب من المرأة ، وربت على كتفها ، فرفعت عينيها إليه ،
فقال :

- لا تبكي .. كفى عن هذا الحزن والأعويل .. سيتهى كل شيء
على ماتحين وما تشتتهين .. ستزوج .. أيرضيك هذا ؟ .

وتنهدت المرأة ، وفغرت من الدهشة فاها ، فأخذها من يدها
وضمها إلى صدره فى رفق وحنو قائلاً :
لاتخافى ولا ترتعدى هكذا .. اقتربى من النيران .
وغطى كتفها بثوبه .. وهبت الريح نسيماً ، وداعبت لهب النار ،
فاشتد وهجها .

★ ★ ★

وصل المركب إلى ساحل روض الفرج ، وأفرغ ما فيه من
شحنة ، ثم قفل راجعاً إلى (البلد) .. وذهب الملاح فخطب المرأة
من أهلها . وتم زواجهما .. وبعد سنة رزقهما الله طفلاً .. ما نظر أبوه
إلى عينيه إلا ارتعد وارتجف ، وتذكر تلك الليلة الليلاء فسقطت من
عينيه دمعة حزن وألم .

★ ★ ★

الأسى

حملت إلينا الريح نغماته ، فما كانت نغمات ، بل هي زفرات
وأناث ، وسرى إلينا في سكون الليل غناؤه ، فما كان غناء ، بل هو
عويل وبكاء ، ونفذت إلى قلوبنا ألحانه ، فما كانت ألحاناً ، بل كانت
أحزاناً وأشجاناً .

عجبت له كيف تحركت أصابعه على القيثارة ، فأسالت الدموع
وأثارت اللوعة ، وحركت في النفس الشجو والشجن .. وكيف اهتزت
الأوتار في يده ، فما انبعثت منها غير همسات خفيفة يملؤها الأسى
والألم .

ترى مارّعه في الحياة ، فتقطع ما بينه وبين الأمل والرجاء ؟ .
وماذا أضنى نفسه فأطار منها البشر والمرح ، وملأها بالجزع والشقاء ؟
لم أكن قد رأيته بعد . ولم أكن أعرف عنه إلا تلك النغمات
العجيبة الحزينة التي كانت تحملها إلّى نسمات الليل ، فتنفذ إلى نفسي
حتى تكاد تبكي . وسألت عنه فقليل لى إنه موسيقى عجوز ، مسه

خبل ، وأخنى عليه الدهر ، فهجر الناس والحياة ، وعاش فى كوخ يعزف لنفسه تلك النغمات الحزينة التى أسمعها كل ليلة .

وأصابنى الأرق ذات ليلة ، فخرجت أهييم فى ظلماتها ، وتسلفت من الدار حتى لا أزعج أصحابها الذين أنزل ضيفاً عليهم ، وأخذت أسير على غير هدى .. فقد كنت غريباً عن المنطقة ، قليل المعرفة بدروبها ، ولم يطل بى السير حتى بدأت النغمات تتصاعد إلى سمعى ، وكانت فى هذه المرة جليلة واضحة . فأدركت أنى لابد قد اقتربت من كوخ الموسيقى العجوز .

وساقتنى قدمائى إلى حيث ينبعث النغم ، وكان الصوت كلما ازداد وضوحاً ، يزداد نفوذاً إلى القلب ، وتأثيراً فى النفس .. وبدت لى قدرة صاحبه ومهارته الهائلة .

ولاح لى شبح الكوخ ، ثم أخذ يبدو لى شبح العازف نفسه ، وقد جلس أمامه فوق مقعد حجرى ، ملتفاً بعباءة فضفاضة سوداء ، وقد انحنى على قيثاره منهمكاً فى العزف .

واقتربت منه برفق ، وحييته فى أدب .. فما التفت إلى . ومارد التحية ، بل استمر فى عزفه كأن لم يقترب منه أحد !

وأسقط فى يدى ، وشعرت ببعض الحيرة .. وتلفت حولى ثم هممت بالانصراف . ولكن صوتاً أجش صاح بى من داخل الكوخ . يستوقفنى :

— من هناك ؟

وأطل صاحب الصوت برأسه ، فإذا به عجوز أبيض الرأس ، معروق الوجه ، وعاد يسألنى :

- ألك حاجة ياسيدى ؟
- لاشىء ألبتة ، لقد أشجاني اللحن ، وساقنتى قدماى من حيث لا أدرى إلى مبعثه ، وكنت أريد أن أهنيء صاحبه ، ولكنه لا يكاد يحس وجودى !
- هو لا يكلم أحداً ، ولا يحس وجود أحد .. فخير لك ألا تتعب نفسك معه .
- ولكن أهناك مايمنع من الاستماع إليه ؟
- كلا .. استمع ما شئت .
- وتكرر ذهائى إلى الكوخ بعد ذلك ، نشأت بينى وبين العجوز صداقة وألفة .
- واستمر الفنان فى شذوذه وغبابة أطواره ، وهو دائب الصمت والوجوم ، شارد النظرات ، تائه الفكر ، لا يفعل شيئاً إلا العزف الحزين على قيثاره ، ولم يكن يعيرنى أدنى التفات أو اهتمام ، فكأننى غير كائن . وكنت أعجب فى نفسى لهذه العبادة الثقيلة السوداء التى يتدثر بها ، فقد كان الوقت صيفاً ، وحرارة الجو تجعل المزمء لا يكاد يطيق ثيابه .. بله تلك العبادة الصوفية التى تزهب الروح ، وتخمد الأنفاس .
- وسألت صاحبى العجوز :
- فيم تدثره بهذه العبادة التى يزرع تحتها ؟
- إنه يخشى البرد .
- برد !! .. أفى هذه الليالى يخشى البرد ؟ .. فماذا يخشى إذن فى ليالى الشتاء ؟

- ليست المسألة مسألة صيف أو شتاء .. فهو ينفذ وصية زوجته ، إذ أوصته ألا يخرج دون عباءة حتى لا يصاب بالبرد .
وقهقهت ضاحكا ولكن العجوز لم يضحك بل نظر إلى وقال
فى هدوء :

- لو علمت قصته لندمت على هذه الضحكات !
وساد السكون برهة ، ثم بدأ الرجل يتكلم فى صوت حزين
قائلا :

- منذ بضع سنين ، كان صاحبنا فتى فى عنفوان الشباب ،
وكان موسيقياً نابغاً ، وفناناً عبقرياً ، وكانت ألحانه فى كل قلب ،
وأغانيه على كل شفة .. إذا غنى ، فكل مافى الكون روح يتغنى .. وإذا
صدحت أنغامه ملأت النفوس طرباً ، والأفئدة متعة وحبوراً .. فكأن
الدنيا كلها قد مسها سحر .. فإذا الجماد يرقص ، والحيوان ينطق ،
والطير نشوان ، والشجر والزهر يثملان .

والنجوم خافقات مثلما تهفو القلوب
والغيوم مهجة كما دت من الوجد تذب

ونفخ صاحبنا الروح فى الناس ، وصقل الكون فى نظرهم ، وملا
الدنيا أمامهم رونقاً وبهاء ، وعلمهم الحب ، فإذا بالناس جميعاً عشاق
محبون .

وأخيراً وقع هو فيما أوقع الناس فيه ، فإذا به فى غمضة عين ..
صب هائم !

ولاعجب فى أن يحب الفتى ، ولكن العجب العجيب فى أن يكون
غرامه فاشلاً . فبقدر ما كان الفتى يبدو للناس ماهراً فى اقتناص القلوب

عالمًا بفنون الغرام وأساليب العشق والهيام ، إذا بالعجز يتملكه ،
وبمهارته تخونه ، عندما سقط فى الهوى فعلا ، وإذا به أمام الفتاة التى
وقع فى شركها ، قد أضحى كالطفل الأبله الخجول ، وإذا بكل فنون
الغرام ، وأساليب العشق ، قد تطايرت من رأسه .

وبات العاشق المستهام يتقلب فى غرامه على جمر الفشل
والحرمان .. وأضحت روحه قلقة حائرة تتأرجح بين اليأس والرجاء ،
حتى جاء يوم علم فيه أن أمله قد ذرته الرياح ، وأن حياته قد انطفأ
سراجها ، وخبا نورها ، إذ جاءه نبأ بأن فتاته ستزف إلى ثرى من أثرياء
المدينة .

وفى ليلة الزفاف ، أحس الفتى شيئا يدفعه إلى الذهاب هناك ..
فحمل قيثاره ، وتوجه إلى الحفل الصاخب ، ورآه القوم فضجوا
بالتفاف ، وسرت فيهم النشوة والفرحة .

وشدا الفتى فأسكر الناس ، وملأ النفوس طربا .. وأمسك بقيثاره
فأفنى نفسه فيه ، وسالت روحه من بين الأوتار ، فإذا بها نغمات عذبة
رقيقة .

وقبيل الفجر نهض ممسكاً بقيثاره وهمّ بالإنصراف ، ونفسه
الملتاعة تجيش بالحزن والأسى .. فإذا بالفتاة العروس تقبل عليه ، وقد
حملت بين يديها عباءة من الصوف ، فأعطتها إياه وهمست قائلة :
- أخشى أن يضرّ بك البرد إذا خرجت فى الهواء .. فخذ هذه
العباءة ثقيل شرّه .

وبهت وجه الفتى وأجاب مشدوهاً :
- ولكن أيهمك أمرى إلى هذا الحد ؟ .

وبدت في عينيها نظرات رقيقة تفيض بالعطف والحنو .. جعلت
الفتى يحس كأنه في حلم ، وأجابت في صوت هامس :
- بل وأكثر من ذلك !

وكاد الفتى يجن ، فما كان يخطر بباله قط أن الفتاة تحنو عليه
أو تحبه ، ولكن أى فائدة في أن يعرف ذلك الآن ، وقد أصبحت منه
على مدى الجوزاء ، وأحس أن رأسه يوشك أن ينفجر ، وهمس في
صوت مبجوح :

- لِمَ لم تخبريني قبل الآن ؟!
- وماذا كان يجديني أن أخبرك ، وأنت تعشق كل نساء
المدينة ؟!
- يا للحمقاء .. إننى لم أعشق غيرك ، ولم أهو سواك !
وبرق السرور في عينيها ، ولكن سرعان ما اختفى ، ليحل مكانه
حزن عميق .. وهزت الفتاة رأسها ، ثم همست في يأس :
- لقد ذهب العمر سدى !

ولكن الفتى كان قد اعتزم ألا يترك عمره يذهب سدى ، فنظر
إلى الفتاة ، وقد لمعت عيناه ، وقال في عزم وإصرار :
لا يا صاحبتى ، ولم يذهب سدى .
وفي سرعة البرق حملها بين ذراعيه .. ولم تمض لحظة حتى
كان قد وضعها في عربته ، وانطلقت تسابق الريح !
وابتعد الفتى بغنيمته عن المدينة ، وأخذ يجد في السير حتى شعر
أنه بات بمنأى عن القوم ، ومأمن من مطاردتهم .

وكنّت أقطن وحيداً في هذا الكوخ فمرّ بيّ العاشقان ، ووقف
الفتى يسألني عن مكان يأوي إليه ، فعرضت عليه أن يستريح برهة حتى
أدله على ما يطلب .

وجلسنا نتحدث .. ولم يستطع الفتى لفرط سعادته أن يكتّم عني
نبأه فسرّد قصته ، والبشر يترقرق في وجهه ، والفرح يبرق في عينيه ،
وكنّت أسمع عن الفتى الفنان من قبل ، فسرّني أن أراه ، وأسعدني أن
أستمع إليه وأن أصادقه .. وتمنيت لو رضى أن يعيش معي ، فيؤنس
وحدتي . ولقد سألته ذلك فقبل على الفور ، وعاش الزوجان الجميلان
في كوخي الحقيق ، فملأه بهجة وحبوراً وسطع ضوء الحب فيه ، فإذا
به كأنه قصر يتلأل .. وفاض النعيم علينا فإذا بنا في «جنة راق بها
الحسن وراع» .

وانغمس الفتى في نشوة من الغرام ، وفيض من المتعة ، وكان
ولعه بالفتاة يكاد يبلغ حد العبادة .. فكانت عيناه لاتبصران سواها ،
ولسانه لايشدو إلا بها !

ومرت الأيام والشهور ، فإذا بغرام الفتى تهدأ تائثرته ، وتخمد ناره
وخيّل إليّ أنه قد بدأ يمل حياة العزلة والهدوء ، وأنه قد عاد يحن إلى
نسيج المدينة وضوضائها ، ويتلهف إلى هتاف الجماهير وصياحهم .
وبدأ ملل الفتى يزداد وضوحاً ، وأصبح لايحاول إخفاء سآمته
وتبرمه ، وأخذ يكثر من الخروج ، ويهمل الفتاة !

وعلمت أنه يتردد خفية على امرأة جميلة عابثة ، تقطن في دار
لا تبعد عنا كثيراً ، وأنه قد وقع في حبائلها .. ورأيت مسحة من الحزن
قد كست وجه الفتاة ، ولكنها كتمت لوعتها ، وتذرّعت الصبر .

وكثير غياب الفتى ، حتى أصبح يقضى الليالى بأكملها بعيداً عن الكوخ ، وأخيراً ذهب الفتى ولم يعد .

وطال انتظارنا له دون جدوى ، وكانت الفتاة الحزينة قد أضناها الألم .. ولكن أملها فى عودة الفتى لم ينقطع فكانت تقضى الليل جالسة على هذا الحجر الذى يجلس عليه الآن ، وقد شرد بصرها فى الظلمات كأنها تريد أن ترى ما وراء الغيب .. وكنا فى فصل الشتاء والليالى قارسة البرد ، ولكنها كانت تأبى أن تغادر مكانها أو تعود إلى الكوخ .. وكثيراً ما كان نحيتها المكتوم يوقظنى فى الليل ، فلا أملك نفسى من البكاء لبكائها .

وأخيراً حدث ما كنت أخشاه ، فقد أصيبت الفتاة بالتهاب فى الرئة لم يمهله إلا أياماً ، ثم قضت نحبها !

وعاد الكوخ أشد مما كان ظلمة ، وأكثر وحشة ، وعدت وحيداً كما كنت ، وكان مامرّ بى لم يكن إلا حلماً عابراً .

وفى ذات ليلة سمعت طرقاتاً على باب الكوخ .. وشد ما أدهشنى أن أجد الفتى قد عاد !

ورأيت عينيه غائرتين ، ووجهه شاحباً ، فكأنه شبح يسرى فى الظلام ، وكان أول ما قاله لى :

- أين هى ؟

- ذهبت ..

- إلى أين ؟

- إلى حيث لا غدر ولا سوء .. إلى الراحة الأبدية !

وجحظت عينا الفتى ، وفغر فاه ، وعقدت الدهشة لسانه فلم
ينبس بينت شفة .

وقصصت عليه القصة ، وقد أطرقت إلى الأرض ، فكأنه تمثال
لليأس ! ولما انتهيت من حديثي ، رفع رأسه فى صوت أجش :
- وماذا قالت عنى ؟

- ما قالت عنك كلمة سوء .. وكل ما كانت تفعله ، أن تجلس
على هذا الحجر تنتظر أوبتك ساكنة صامته .. وحينما أوشكت روحها
أن تفيض قالت فى صوت ضعيف متقطع :
«عندما يعود أخبره إلا يخرج بغير العباءة ، فإننى أخشى أن يضر
به البرد !»

ومنذ تلك الليلة والرجل كما تراه على هذه الحال .. لا يغادر
مقعده الحجرى ، ولا يخلع العباءة ، ولا يتكلم .. وكل ما يفعله أن
يحملق فى الظلمات ، ويعزف على القيثارة .. وأغلب ظنى أنه هو الآخر
ينتظر أوبتها .. كما انتظرت هى أوبته من قبل .

★ ★ ★

وعادت أصابع الرجل تتحرك على القيثارة ، فإذا به ينبعث فى زفير
حنين .. وبكاء وأنين !

★ ★ ★

للمؤلف

- | | |
|--------------------|----------------------|
| (قصص قصيرة ١٩٤٧) | . . . اطياف |
| (رواية ١٩٤٧) | . . نائب عزرائيل |
| (قصص قصيرة ١٩٤٨) | . اثنتا عشرة امرأة |
| (قصص قصيرة ١٩٤٨) | . . خبايا الصدور |
| (قصص قصيرة ١٩٤٨) | . يا امة ضحككت |
| (قصص قصيرة ١٩٤٩) | . اثنا عشر رجلا |
| (رواية ١٩٤٩) | . . ارض النفاق |
| (قصص قصيرة ١٩٤٩) | . في موكب الهوى |
| (قصص قصيرة ١٩٤٩) | . من العالم المجهول |
| (قصص قصيرة ١٩٥٠) | . . هذه النفوس |
| (رواية ١٩٥٠) | . . انى راحلة |
| (قصص قصيرة ١٩٥٠) | . . مبكى العشاق |
| | بين ابو الريش وجنيبة |
| (قصص قصيرة ١٩٥٠) | . . . ناميش |
| (قصص قصيرة ١٩٥١) | . . . اغنيات |
| (مسرحية ١٩٥١) | . . . ام رتيبة |
| (قصص قصيرة ١٩٥١) | . . هذا هو الحب |
| (قصص قصيرة ١٩٥١) | . صور طبق الأصل |
| (رواية ١٩٥٢) | . . بين الاطلال |
| (رواية ١٩٥٢) | . . المسقامات |
| (قصص قصيرة ١٩٥٢) | . . سمار الليالى |
| (قصص قصيرة ١٩٥٢) | . . الشيخ زعرب |
| (قصص قصيرة ١٩٥٢) | . نفحة من الايمان |
| (مسرحية ١٩٥٢) | . . وراء الستار |
| (قصص قصيرة ١٩٥٣) | ست نساء وستة رجال |
| (قصص قصيرة ١٩٥٣) | هذه الحياة |

مكتبة مصر
شارع كامل صدقي - البحالة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه